سورة الروم

ستون آية مكية [إلا آية ١٧ فمدنية، نزلت بعد الانشقاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول، فنقول: لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقلِ كما في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله كما قال: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧] أي: أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادي، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمُعَادِي.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ فنقول: قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [طه: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [السجدة: ١، ٢] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [ص: ١] إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على

الاستماع، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أرض العرب، لأن الألف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أية فائدة في ذكره مع أن قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بعد قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول: الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفًا، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فإذا غلبوا بعدما غلبوا، دل على أن ذلك بأمر الله، فذكر ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله: ﴿فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لبيان شدة ضعفهم، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم بإذن الله.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿فِى بِضۡعِ سِنِينَ﴾ قيل: هي ما بين الثلاثة والعشرة، أبهم الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول: السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له في إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره، وناحبوا أبا بكر أي خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبي بكر: «البضع ما بين الثلاثة والعشرة» فزايده في الإبل وماده في الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعًا[(١)]، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة.

[**قوله تعالى:** ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾].

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي: من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها، يعني إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هي إرادة نافذة، وبنيا على الضم لما قطعا عن الإضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر، أما النصب ففي قولك: جئت قبله أو بعده، وأما الجر ففي قولك: من قبله ومن بعده، فبُنِيَا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه في الإعراب وهو الرفع ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قيل: يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما

---

(١) أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٤٢)، حديث رقم (٣١٩١) من طريق محمد بن خالد بن عثمة حدثنا عبد الله بن عبد الله الجمحي حدثنا ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس... فذكره.

وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس، وفي إسناده عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي مجهول وقال ابن معين: لا أعرفه، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٧/ ٣٥٤)، حديث رقم (٣٣٥٤)، وقال: ضعيف.

فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذٍ بل الفرح يحصل بعده.

قوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ قدم المصدر على الفعل حيث قال: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ﴾ وقدم الفعل على المصدر في قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾[الأنفال: ٦٢] وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر، وليس المقصود النصرة ووقوعها، والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذكر من أسمائه هذين الاسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته في الآخرة واصلة إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ يعني سيغلبون وعدهم الله وعدًا ووعد الله لا خلف فيه، قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون وعده وأنه لا خلف في وعده.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني علمهم منحصر في الدنيا وأيضًا لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ والمعنى هم عن الآخرة غافلون، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره: غفلت عن أمري، فإذا قال هو: شغلني فلان، فيقول: ما شغلك ولكن أنت اشتغلت.

ثم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٧] والإنكار بالحشر كما

قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو (أن) أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه، والآخر لخروج الطعام منه، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجًا صالحًا، ثم يخرج من المنفذ الآخر، وخلق تحت المعدة عروقًا دقاقًا صلابًا كالمصفاة التي يصفى بها الشيء فينزل منها الصافي إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهًا إلى الخروج، وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية، والعبرية عربية مفسودة في الأكثر، يقال لموسى ميشا وللإله إيل إلى غير ذلك، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجًا آخر، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق في العروق الدقاق المذكورة، وفي الكبد يستغني عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذي به الكلية وغيرها، ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول، والجداول إلى سواق، والسواقي إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن، فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان، وهذه كفاية في معرفة كون الله فاعلاً مختارًا قادرًا كاملاً عالمًا شاملاً علمه، ومن يكون كذلك يكون واحدًا وإلا لكان عاجزًا عند إرادة شريكه ضد ما أراده. وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروري، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثًا، وإليه أشار بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذا ظاهر، لأن من يفعل شيئًا للعبث فلو بالغ في إحكامه وإتقانه يضحك منه، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية، وقد بينا ذلك في قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] ونعيده فإن التكرير في الذهن يفيد التقرير لذي الذهن، فنقول: إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يذكر بالأصل الآخر الذي أنكروه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما في إسعاد أو شقاء.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق، وفي قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] قدم دلائل الآفاق، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الأبين، ثم يرتقي إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخرًا، فالمذكور من المفيد آخرًا مفهوم عند السامع أولاً، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبًا إلى السامع حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانيًا، وأما في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر أولاً الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للإنسان عنها، وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي يعلمون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] بدلائل الآفاق.

المسألة الثانية: وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر، وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو؟ فنقول: وقوع تخريب السماوات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبدًا كما أنه يبقي الجنة والنار بعد إحداثهما أبدًا، والخلق دليل إمكان العدم، لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم، فإذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعبًا ولهوًا كما بين بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقال من قبل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٦] وذلك لأنه من قيل لم يذكر دليلاً على الأصلين، وهاهنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو، فقال بعد إقامة الدليل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ وقبله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [الروم: ٦٠] ثم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه، والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التي فوقه والأرض التي تحته، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ
كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وقال في الدليلين المتقدمين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [العنكبوت: ١٩، ٦٧] ولم يقل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا . . . فَيَنظُرُوا﴾ ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالاً وعمارة، ولم يمنع عنهم الهلاكَ أموالُهم وحصونُهم، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء: قوة جسمية فيه أو في أعوانه إذ بها المباشرة، وقوة مالية إذ بها التأهب للمباشرة، وقوة ظهرية يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر، فقال تعالى: كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالاً لأنهم أثاروا الأرض أي حرثوها، ومنه: بقرة تثير الأرض، وقيل: منه سمي ثورًا، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني لم يظلمهم بالتكليف، فإن التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح، لأنه تعالى قال: خلقتكم لتربحوا علي لا لأربح عليكم، والوضع في [أيِّ] موضع كان الخلق له ليس بظلم، وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين، وهذا الكلام منا وإن كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته، لكنه كان منهم ومضافًا إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُوا۟﴾ قيل: معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا، وقيل معناه أساءوا وكذبوا، فـ(كذبوا) يكون تفسيرًا لـ(أساؤا) وفي هذه الآية لطائف: إحداها: قال في حق الذين أحسنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] وقال في حق من أساء: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فإن الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار، فإذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء، ومن

له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين، وأما الذين أساءما، فالسوأى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم إليها، الثانية: ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها، الثالثة: لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق، وذكر في المسيء أن له السوأى بأنه كذب، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ، وأما السوأى للمسيء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلاً فذكر السبب في التعذيب وهو الإصرار على التكذيب، ولم يذكر السبب في الثواب.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق، يعني من خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

في ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم، والإبلاس يأس مع حيرة، يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى الراحتين، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمرًا غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضروريًا بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس، ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال، وهو أن نقول: مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي، ولديه ما يفتخر به ويباهي، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد، ولا يصده صاد، إذا جاءه لا يبلعه ريقًا، ولا يترك له إلى الخلاص طريقًا، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون: إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادي عمن يكون تحتها، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمدًا على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرًا آيسًا، مفتقرًا، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه، ويأتيه عذاب يخزيه، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء: إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل بأس، وشافعة لك عند خمود الحواس، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق، ويحق عليه عذاب الحريق، فييأس حينئذٍ أي إياس ويبلس أشد إبلاس. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني يكفرون بهم ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾.

ثم بين أمرًا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فكأن هذه الحالة مترتبة على الإبلاس، فكأنه أولاً يبلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير، وأعاد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدًا للتخويف، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله.

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي في جنة يسرون بكل مسرة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

يعني لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] وقال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥] وفي الآيتين مسائل فيها لطائف:

المسألة الأولى: بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى، ولو أدخل الكافر النار أولاً لكان يظن أن الكل في العذاب مشتركون، فقدم ذلك زيادة في إيلامهم.

المسألة الثانية: ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيئ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال: والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع، فإن قيل: فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين، فنقول: له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد.

المسألة الثالثة: قال في الأول: ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾ على التنكير، وقال في الآخر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ على التعريف، لتعظيم الروضة بالتنكير، كما يقال لفلان مال وجاه، أي كثير وعظيم.

المسألة الرابعة: قال في الأول: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ بصيغة الفعل ولم يقل: محبورون، وقال في

الآخر: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بصيغة الاسم ولم يقل: يحضرون، لأن الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يعني يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به. وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين.

قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾

لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الروم: ٨] وعظمته في الانتهاء، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، أمر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي سبحوا الله تسبيحًا.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في معنى سبحان الله ولفظه، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذي هو التسبيح، سمي التسبيح بسبحان وجعل علمًا له. وأما المعنى فقال بعض المفسرين: المراد منه الصلاة، أي صلوا، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس، وقال بعضهم: أراد به التنزيه، أي نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال، وهذا أقوى والمصير إليه أولى، لأنه يتضمن الأول وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعًا وهو العمل الصالح، والأول هو الأصل، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئًا ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان، وهو تنزيه في التحقيق، فإذا قال: نزهوني، وهذا نوع من أنواع التنزيه، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضًا هذا أمرًا بالصلاة، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] قال: إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان، والعمل الصالح استعمال الأركان، والكل تنزيهات وتحميدات، فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض، والحضور على الحياض.

المسألة الثانية: خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها، لكن

أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] والإنسان ما دام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح، لكونه محتاجًا إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه، ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله منَّ على عباده بالاستراحة بالنوم، كما قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الروم: ٢٣] فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات، وإذا صلى أربعًا في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات، فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع، وهذا القدر لو نام الإنسان فيه لكان كثيرًا وإليه أشار تعالى بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٢-٤] وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم، فيقول الله: عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي ادعيتم بقولكم: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين، واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة، أما في عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة، وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى، فنقول: هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل: ٢٠] ذكر بلفظ التوبة، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة، وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلاً كما قال: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي»(١) جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به، وإلى هذا أشار تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] أي كل الليل لك للتسبيح، فصار هو في أربع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التهجد)، باب: (قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره) (٣/ ٤٠)، حديث رقم (١١٤٧).

ومسلم في كتاب (صلاة المسافرين)، باب: (صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ في الليل) (١/ ١٢٥/ ٥٠٩) من طريق أبي سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن. . . به.

وعشرين ساعة مسبحًا، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين، وأما في أوقاته فما تقدم أيضًا أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته في نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة، ليكون في وسط الليل المعتبر، كما أن الظهر في وسط النهار، وأما النبي ﷺ لما كان ليله نهارًا ونومه انتباهًا قال: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ وَتَأْخِيرِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ»(١) ليكون الأربع في نصف الليل كما أن الأربع في نصف النهار، وأما التفصيل فالذي يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدي ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل، لأن المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس.

المسألة الثالثة: في فضيلة السبحلة والحمدلة في المساء والصباح، ولنذكرها من حيث النقل والعقل، أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندًا عن النبي ﷺ أنه قال لبعض أصحابه: «أَتَعْجِزُ عَنْ أَنْ تَأْتِيَ وَقْتَ النَّوْمِ بِأَلْفِ حَسَنَةٍ؟ فَتَوَقَّفَ فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِائَةَ مَرَّةٍ يُكْتَبُ لَكَ بِهَا أَلْفُ حَسَنَةٍ». وسمعته يقول رحمه الله مسندًا: «مَنْ قَالَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ عَشْرَ مَرَّاتٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَشْرَ مَرَّاتٍ اللَّهُ أَكْبَرُ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ»(٢) وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله، أما الأولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص، فإذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالمًا بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شيء لكونه قادرًا على كل شيء فقد نزهه عن العجز، وإذا علم أنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكونه مريدًا لكل كائن فقد وصفه ونزهه، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٤٥)، حديث رقم (٧٣٣٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. . . به.

(٢) أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٠٥)، حديث رقم (١٠٦٥٦) من طريق يزيد قال أخبرنا العوام عن عطاء بن السائب عن أبيه عبد الله بن عمرو. . . فذكره.

وفي إسناده عطاء بن السائب اختلط وسماع العوام منه بعد الاختلاط، والله أعلم.

بالقدم فقد نزهه، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضًا أو جسمًا أو في مكان لكونه واجبًا بريئًا عن جهات الإمكان فقد نزهه. لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها. فإذا قال قائل مستحضرًا بقلبه: سبحان الله، متنبهًا لما يقوله من كونه منزهًا له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل، لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفي به الأعمار، فيقول: هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه، فإن الله تعالى يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه.

وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول: الحمد لله، فإذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول: الحمد لله، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول: الحمد لله، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به، فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ويقول: الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل، ويقول: عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق في صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله، فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي أن يقول: الله أكبر مما أدركه، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها، فإن أراد أن يقول على سبيل التفصيل: الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفني عمره ولا يفي بإدراك جميع الوجوه التي يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه، فإذا قال مع نفسه: الله أكبر، أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة إدراكي يكون متوغلاً في العرفان وإليه الإشارة بقوله:

الْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكُ [1]

فقول القائل المستيقظ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» مفيد لهذه الفوائد، لكن شرطه أن يكون كلامًا معتبرًا وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على (حين) أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيًا، وقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا

(١) هذا القول منسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

المسألة الخامسة: قدم الإمساء على الإصباح هاهنا وأخره في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] وذلك لأن هاهنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١١- ١٦] وآخر هذه الآية أيضًا ذكر الحشر والإعادة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة.

المسألة السادسة: في تعلق إخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج الإنسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم، واختلف المفسرون في قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال أكثرهم: يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، وقال بعضهم: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، ويمكن أن يقال المراد: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي اليقظان من النائم والنائم من اليقظان، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أي إحياء الميت عنده وإماتة الحي كتنبيه النائم وتنويم المنتبه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وفي هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧ -١٩] ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيث كيفيته فإنه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة، ومن حيث لونه فإنه كدر والروح نير، ومن حيث فعله فإنه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة، ومن حيث السكون فإنه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها

كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فإنه ممتزج، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الإنسان فإن الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعي، ثم الإنسان، وأعلى مراتب الإنسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له، فالله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حيًّا هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهًا عن العجز والجهل، ويكون له الحمد على إنعام الحياة، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الإرادة فيجوز منه الإبداء والإعادة، وفي الآية لطيفتان إحداهما: قوله: ﴿إِذَآ﴾ وهي للمفاجأة يقال: خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بـ(كن) فكان لا أنه صار معدنًا ثم نباتًا ثم حيوانًا ثم إنسانًا، وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنسانًا فينبهه أنه يحيي حيوانًا وناميًا وغير ذلك لا أنه خلق أولاً حيوانًا، ثم يجعله إنسانًا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها، اللطيفة الثانية: قوله: ﴿بَشَرٌ﴾ إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته، فإن غيره من الحيوانات أيضًا كذلك، وقوله: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب، أما الإدراك فلكثافته وجموده، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلاً عن خلق البشر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: وهي أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: ما قيل: إن المراد من قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ أنه خلق أصلكم، والثاني: أن نقول: إن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر، وأما نحن فلأنا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان أيضًا له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو.

المسألة الثانية: قال تعالى في موضع آخر: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وقال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨] وهاهنا قال: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ فكيف الجمع؟ قلنا: أما على الجواب الأول:

فالسؤال زائل، فإن المراد منه آدم، وأما على الثاني: فنقول ههنا قال ما هو أصل أول، وفي ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لأن ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعًا وهو المني، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنسانًا، أو نقول: الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فإن التراب لا ينبت إلا بالماء ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فإن جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك، فإن قال قائل: الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وإن كان الماء فكيف قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وإن كانا هما أصلين فلم لم يقل: خلقكم منهما؟ فنقول: فيه لطيفة، وهي أن كون التراب أصلاً والماء أصلاً والماء ليس لذاتيهما، وإنما هو بجعل الله تعالى فإن الله نظرًا إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الإنسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان، فإن كان كونهما أصلين ليس أمرًا ذاتيًا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً، وإن شاء جعلهما أصلين.

المسألة الثالثة: قال الحكماء: إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار، وقالوا: التراب فيه لثباته، والماء لاستمساكه، فإن التراب يتفتت بسرعة، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء، فهل هذا صحيح أم لا؟ فإن كان صحيحًا فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل في موضع آخر: إنه خلقكم من نار ولا من ريح؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه، وأما الآيات فنقول: ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب، فالأصل الموجود أولاهما لا غير فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

لما بين الله خلق الإنسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم

سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩] وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول: خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى، أما النقل فهذا وغيره، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي، لكن الصبي لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم، ولولا ذلك لظهر الفساد.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بعضهم قال: المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم، والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ويدل عليه قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه.

المسألة الثالثة: يقال: سكن إليه، للسكون القلبي ويقال: سكن عنده، للسكون الجسماني، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فيه أقوال قال بعضهم: مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكًا بقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] وقال بعضهم: محبة حالة حاجة نفسه، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه، وهذا لأن الإنسان يحب مثلاً ولده، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال: ذكر من قبل أمرين أحدهما: كون الزوج من جنسه، والثاني: ما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما: يفضي إلى الآخر فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يقال: المراد إن في خلق الأزواج لآيات، ويحتمل أن يقال في جعل المودة بينهم آيات أما الأول: فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضًا لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات، وأما الثاني: فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين

ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التي بها يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض، فإن بعض الكفار يقول في خلق البشر وغيره من المركبات: إنه بسبب ما في العناصر من الكيفيات وما في السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات، فإذا قيل له: فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب، فلا يجد بدًّا من أن يقول: ذلك بقدرة الله وإرادته، ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذي بين ألوان الإنسان فإن واحدًا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات في الصورة، والثاني: اختلاف كلامهم فإن عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى إن من يكون محجوبًا عنهما لا يبصرهما يقول: هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر، وفيه حكمة بالغة وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز، ومن الناس من قال: المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها، والأول أصح، ثم قال تعالى: ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال: ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ لعموم العلم بذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو اختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبًا للرزق بالنهار، فذكر من اللوازم أمرين، ومن المفارقة أمرين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ قيل: أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي

القيلولة، ثم قال: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ أي فيهما فإن كثيرًا ما يكتسب الإنسان بالليل، وقيل: أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض، ويدل عليه آيات أخر. منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا﴾ [الإسراء: ١٢] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] ويكون التقدير هكذا: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله، فأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه، بل يرى كل ذلك من فضل ربه، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤].

المسألة الثانية: قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل.

المسألة الثالثة: قال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ وقال من قبل: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال: ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ فنقول: المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل: آيات للعالمين، ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان، فإنهما يدومان بدوام الإنسان، فجعلهما آيات عامة، وأما قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة، فقال: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤﴾

لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق، وقال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق، بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢].

المسألة الثانية: قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ﴾ وذلك لأن الإنسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة، وأما اللوازم فيه فقريبة. وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بيانًا فنقول: الإنسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره، وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة، والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران، ثم يرى في بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة، والسماء كما كانت والأرض كذلك، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرًا مع تغير المحل ويزيل أمرًا مع ثبات المحل.

المسألة الثالثة: كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء.

المسألة الرابعة: كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة، وذلك لأن البرق إذا لاح، فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له، والذي له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوي مجاري الماء، وأيضًا العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة، وآية، وأما كونه آية فظاهر فإن في السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله، قالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء، فالهواء ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسمًا بعنف، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد، فإن قال قائل: الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان، فيقولون: لكن حركة يد الإنسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار، فنقول لهم: البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله، ثم إنا نقول: هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد من سبب وينتهي إلى واجب الوجود، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك.

المسألة الخامسة: قال ههنا: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لما كان حدوث الولد من الوالد أمرًا عاديًا مطردًا قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف، لكن البرق والمطر ليس أمرًا مطردًا غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار، فقال: هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكرًا تامًا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

لما ذكر من العوارض التي للسماء والأرض بعضها، ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها، فإن الأرض لثقلها يتعجب الإنسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد، وهذا من اللوازم، فإن الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه فإن قيل: إنها تتحرك في مكانها كالرحى، ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عنه، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع الذي هما عليه من الأمور الممكنة، وكونهما في غير ذلك الموضع جائز، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحًا للجائز على غيره، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار، والفلاسفة قالوا: كون الأرض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما، فنقول: قد تقدم مرارًا أن القول بالطبيعة باطل، والذي نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محدبه، وذلك بالخروج والزوال، فإذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فإنها محددة الجهات على مذهبكم أيضًا والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله من كل باب أمرين، أما من الأنفس فقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض في قوله: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض، لأن الواحد يكفي للإقرار بالحق والثاني: يفيد الاستقرار بالحق، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فإن قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بقوله: قوما، أو بإرادته قيامهما، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الأمر الذي للتكليف لا في الأمر الذي للتكوين، فإنا لا ننازعهم في أن قوله: ﴿كُن﴾ و(كونوا) و﴿يَٰنَارُ كُونِى﴾ [الأنبياء: ٦٩] موافق للإرادة.

المسألة الثالثة: قال ههنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ وقال قبله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: ٢٤] ولم يقل: أن يريكم، وإن قال بعض المفسرين: إن (أن) مضمرة هناك معناه: من آياته أن

يريكم ليصير كالمصدر بأن، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرًا، لأن المستقبل ينبئ عن التجدد، وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئًا من الحروف المصدرية.

المسألة الرابعة: ذكر ستة دلائل، وذكر في أربعة منها (إن في ذلك لآيات) ولم يذكر في الأول وهو قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ولا في الآخر وهو قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أما في الأول فلأن قوله بعده: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ [الروم: ٢١] أيضًا دليل الأنفس، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد، على ما بينا، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير، فإذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ كان عائدًا إليهما، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الأمر ظاهرًا ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر، فلم يميز أحدًا عن أحد في ذلك، وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الإعادة، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: ما وجه العطف بثم، وبم تعلق ثم؟ فنقول: معناه -والله أعلم- إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة: اخرجوا من الأجداث، يخرجون أحياء.

المسألة الثانية: قول القائل: دعا فلان فلانًا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل: يا فلان اصعد إلى الجبل، فيقال دعاه من الجبل، ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل: يا فلان انزل من الجبل، فيقال: دعاه من الجبل، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعي هو الله، فالمدعو يدعى من الأرض يعني أنتم تكونون في الأرض فيدعوكم منها فتخرجون.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون.

المسألة الرابعة: قال ههنا ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه، فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج، فلم يقل ههنا (ثم).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر، والوحدانية التي

هي الأصل الأول، أشار إليها بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يعني لا شريك له أصلاً لأن كل من في السموات وكل من في الأرض، ونفس السموات والأرض له وملكه، فكل له منقادون قانتون، والشريك يكون منازعًا مماثلاً، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول الآخر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي في نظركم الإعادة أهون من الإبداء لأن من يفعل فعلاً أولاً يصعب عليه، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون، وقيل: المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل: الله أكبر، أي كبير، وقيل: المراد هو أهون عليه أي الإعادة أهون على الخالق من الإبداء لأن في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم عظمًا ثم يخلق بشرًا ثم يخرج طفلاً يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله، وأما في الإعادة فيخرج بشرًا سويًا بكن فيكون أهون عليه، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول: (هو أهون) يحتمل أن يكون ذلك لأن في البدء خلق الأجزاء وتأليفها والإعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة، ولنبين هذا فنقول الْهَيِّن هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائل: إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع، إلى موضع وسلم السامع له ذلك، فإذا قال: فكونه لا يتعب من نقل خردلة، يكون ذلك كلامًا معقولاً مبقي على حقيقته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي قولنا: هو أهون عليه، يفهم منه أمران أحدهما: هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال: إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل، والآخر: هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر، فقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثاني لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب (الكشاف) وهي أن الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١]وقال هاهنا: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ فقدم هناك كلمة (على) وأخرها هنا، وذلك لأن المعنى الذي قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٢١] يعني لا على غيري، وأما ههنا المعنى الذي ذكر أنه أهون هو الإعادة والإعادة على كل مبدئ أهون فقال: وهو أهون عليه، لا على سبيل الحصر، فالتقديم هناك كان للحصر، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذي ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وكان ذلك مثلاً مضروبًا لمن في الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني هذا مثل مضروب لكم ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات، وأما على الوجه الثاني فمعناه أن له المثل الأعلى أي فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به، لكن ذاته ليس كمثله شيء فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما. وقيل: المثل الأعلى أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي كامل القدرة على الممكنات، شامل العلم بجميع الموجودات، فيعلم الأجزاء في الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

لما بين الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية أيضًا بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكًا له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له؟! وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا؟!

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدًا لمعنى المثل وقد يكون موهنًا له وههنا وجه المشابهة معلوم، وأما المخالفة فموجودة أيضًا وهي مؤكدة وذلك من وجوه أحدها: قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني ضرب لكم مثلاً من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها، وثانيها: قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارئ قابل للنقل والزوال، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه، فإذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكًا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى إنكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكًا له، وثالثها: قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: هل أنتم ومماليككم في شيء مما تملكون سواء؟ ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما يملكه، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئًا أصلاً ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه، وأما قولكم: هؤلاء شفعاؤنا، فليس كذلك، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة،

فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه وإلى هذا أشار بقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

المسألة الثانية: بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم، فكيف تخافونهم خوفًا أكثر من خوفكم بعضًا من بعض حتى تعبدوهم للخوف.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والمحاكيات الإقناعية لقوم يعقلون، يعني لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون له عقل.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي هؤلاء أضلهم الله فلا هادي لهم، فينبغي أن لا يحزنك قولهم، وههنا لطيفة وهي أن قوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ مقو لما تقدم وذلك لأنه لما قال: لأن الله لا شريك له بوجه ما، ثم قال تعالى: بل المشركون يشركون من غير علم، يقال فيه: أنت أثبت لهم تصرفًا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه، فقال: إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئًا فلا ناصر لهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي ذاته بصفاته، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل ما

عداه، أي أقبل على الدين ومل عن كل شيء أي لا يكون في قلبك شيء آخر فتعود إليه، وهذا قريب من معنى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]ثم قال الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي الزم فطرة الله وهي التوحيد فإن الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]فقالوا: بلى، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ فيه وجوه، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي ﷺعن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال: هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيًا لا يسعد، وقيل: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون: الله، لكن الإيمان الفطري غير كاف. ويحتمل أن يقال: خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدًا مثل كون المملوك عبدًا لإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف، وقول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعبادة الله، وإنما الإنسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله، وقول النصارى: إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهًا، فقال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين المستقيم.

قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لما قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن غيره قال: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي مقبلين عليه، والخطاب في قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ مع النبي والمراد جميع المؤمنين، وقوله: ﴿ وَاتَّقُوهُ﴾ يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك، ثم إنه تعالى قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال المفسرون: يعني ولا تشركوا بعد الإيمان أي ولا تقصدوا بذلك غير الله، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله: ﴿ مُنِيبِينَ﴾ أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر وبقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أراد إخراج العبد عن الشرك الخفي أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله؛ وعلى هذا فقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ يعني لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل أحد إلى مذهب، ويحتمل أن يقال: ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ يعني بعضهم عَبَدَ الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد بما في نظره فرح، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافد

لقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافد، أما في الدنيا فظاهر، وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل، بين أن لهم حالة يعرفون بها، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة، فإن عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله، ويجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول: تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان، وبسبب الصنم الفلاني، لا، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهرًا فإنه شرك خفي، مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فيهيئ له لوحًا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو، فيقول: تخلصت بلوح، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلاً فيعينه فيقول: خلصني زيد، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي، وإن كان بمعنى أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفى، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿أَذَاقَهُم﴾ فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن العرف (أن) من أكل مأكولاً كثيرًا لا يقول: ذقت، ويقال في النفي: ما ذقت في بيته طعامًا، نفيًا للقليل ليلزم نفي الكثير بالأولى، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال: أذاقهم، ولهذا قال في العذاب: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة.

المسألة الثالثة: قال هاهنا ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ وقال في العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولم يقل: فريق، وذلك لأن المذكور هناك ضر معين، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل، والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم

في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقًا لقلة من خرج من المشركين، وأما المذكور ههنا الضر مطلقًا فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهوال، والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركًا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم، وهو جميع المسلمين فإنهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم، فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعًا كثيرًا، جعل الباقي فريقًا.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قد تقدم تفسيره في العنكبوت، بقي بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ وعدمه هناك في قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦] فنقول: لما كان الضر المذكور هناك ضرًا واحدًا جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم فخاطب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ لما سبق قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [الروم: ٢٩] أي المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فإنهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الإنكار، أي ما أنزلنا بما يقولون سلطانًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطًا، كما قال قائلهم:

أَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلَاجِلٍ وبين النقا آأنت أَمْ أُمُّ سَالِمِ [1]

فما الاستفهام الذي قبله؟ فنقول: تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول، أهم يتبعون الأهواء من غير علم؟ أم لهم دليل على ما يقولون؟ وليس الثاني فيتعين الأول.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ مجاز كما يقال: إن كتابه لينطق بكذا، وفيه معنى لطيف وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به، وما لا دليل عليه لا يقبل، فإذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر ذي الرمة وقد تقدم ترجمته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ لما بين حال المشرك الطاهر شركه بين حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا، فإذا آتاه رضي وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء، فمن الناس من يعبد الله في الشدة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ والأول كالذي يخدم مكرها مخافة العذاب والثاني كالذي يخدم أجيرًا لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين في ديوان المرتبين في الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن، فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم، وفيه مسألة: وهي أن قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ إشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فإن فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم، فإن قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨] وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة، فكيف ذلك؟ فنقول: هناك قال: فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفًا على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به، ولو أعطى الملك فقيرًا غير ملتفت إليه رغيفًا أو زبدية طعام أيضًا يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفًا وزبدية.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لم يذكر عند النعمة سببًا لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سببًا لأن الأول يزيد في الإحسان والثاني يحقق العدل. قوله ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ إذا للمفاجأة أي لا يصبرون على ذلك قليلاً لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾. أي لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله، فلا يكون له تبدل حال، وإنما يكون عنده الفرح الدائم، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على

حالة الشدة بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس يعبد الله إذا كان في الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله، بقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ وبين أنه ينبغي أن يكون، في حالة بسط الرزق وقدره عليه، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله، والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر، فلا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق، وإذا قدر لا يزداد بالإمساك.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية في الصدقات فنقول: أراد ههنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكويًا أو لم يكن، وسواء كان بعد الحول أو قبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد، أما القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته، وإن لم يكن عليه زكاة، وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئًا يصرف إلى الفقراء أيضًا، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون، ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال: المسكين من له شيء ما، فنقول: وإن كان الأمر كذلك لكن لا نزاع في أن إطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الإطلاق هنا بذلك الوجه، والفقير يدخل في ذلك بالطريق الأولى.

المسألة الثانية: في تقدم البعض على البعض فنقول: لما كان دفع حاجة القريب واجبًا سواء كان في شدة ومخمصة، أو لم يكن كان مقدمًا على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان في شدة، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدمًا على من حاجته مختصة بموضع دون موضع.

المسألة الثالثة: ذكر الأقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى، ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت، وذو كذا لا يقال إلا في الثابت، فإن من صدر منه رأي صائب مرة أو حصل له جاه يومًا واحدًا أو وجد منه فضل في وقت يقال: ذو رأي وذو جاه وذو فضل، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرًا يقال له: ذو

الرأي وذو الفضل، فقال ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال: ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[البلد: ١٦] فإن المسكين يدوم له كونه ذا متربة ما دامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الأمر.

المسألة الرابعة: قال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولاً للتشريك والأولى لكون التشريك واردًا على الكلام، كأنه يقول: أعط ذا القربى حقه، ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك: خل فلان يدخل، وفلانًا أيضًا، يكون في التعظيم فوق ما إذا قال: خل فلانًا وفلانًا يدخلان، وإلى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «بئس خطيب القوم أنت»(١) حيث قال الرجل: من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن عصاهما فقد غوى، ولم يقل: ومن عصى الله ورسوله.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال: ذلك خير في نفسه، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾[الحج: ٧٧] ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[البقرة: ١٤٨] والثاني أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة، عند نزول درجة ما يقاس إليه، كما يقال: السكوت خير من الكذب، وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل، فإن من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله، وقوله: ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي يكون عطاؤه لله لا غير، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله، وإنما أراد مخلوق الله.

المسألة السابعة: كيف قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ مع أن للإفلاح شرائط أخر، وهي المذكورة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١] فنقول: كل وصف مذكور هناك يفيد الإفلاح، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[المؤمنون: ٤] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[المؤمنون: ٨] إلى غير ذلك عطف على المفلح أي هذا مفلح، وذاك مفلح، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الإفلاح لمن يتصدق ولا يصلي، فنقول: هذا كقول القائل العالم مكرم أي نظرًا إلى علمه ثم إذا حد في الزنى على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل: إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجمعة)، باب: (تخفيف الصلاة والخطبة) (٢/ ٥٩٤/ ٤٨)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الرجل يخطب على قوس) (١/ ٤٧٤)، حديث رقم (١٠٩٩)، والنسائي في كتاب (النكاح)، باب: (ما يكره من الخطبة) (٦/ ٣٩٨)، حديث رقم (٣٢٧٩)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٥٦)، جميعًا من طريق سفيان... به.

الإفلاح، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب.

المسألة الثامنة: لِمَ لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها؟ فنقول: الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب هاهنا بقوله: ﴿فَـَٔاتِ﴾ مع النبي ﷺ وغيره تبع، وقد قال له من قبل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: ٣١].

المسألة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة، فلو كان المفلح منحصرًا في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحًا؟ فنقول: هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٤٣] متصل بهذا الكلام فإذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور في البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ذكر هذا تحريضًا يعني أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ فتربو حَتَّى تَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ»(١) فينبغي أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي أولئك ذوو الأضعاف كالموسر لذي اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى في كونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفًا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل، فبالرغيف الواحد يكون له قصر في الجنة فيه من كل شيء ثوابًا نظرًا إلى الرحمة، وعشر قصور مثله نظرًا إلى الفضل. مثاله في الشاهد، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرمًا، بل إذا جرت عادته بأنه يعطي على مثل ذلك ألفًا، فإذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب.

---

(١) أخرجه ابن بشران في (أماليه) (٢/ ٤٩٩)، حديث رقم (٩٣٧) من طريق القاسم بن جعفر حدثنا علي بن المثنى حدثني محمد بن الحسن حدثني سفيان بن سعيد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة... به، والحديث أصله في الصحيح عند مسلم وغيره..

أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة)، باب: «قبول الصدقة من الكسب الطيب» (٢/ ٦٣/ ٧٠٢)، والترمذي في كتاب (الزكاة)، باب: (في فضل الصدقة) (٣/ ٤٩)، حديث رقم (٦٦١)، والنسائي في كتاب (الزكاة)، باب: (الصدقة من غلول) (٥/ ٦٠)، حديث رقم (٢٥٢٤)، وابن ماجه في كتاب (الزكاة)، باب: (فضل الصدقة) (١/ ٥٩٠)، حديث رقم (١٨٤٢)، والحميدي في مسنده (٢/ ١١٥٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣١/ ٤١٨/ ٤٣١/ ٥٣٨)، والدارمي في كتاب (الزكاة)، باب: (في فضل الصدقة) (١/ ٤٤٠)، حديث رقم (١٦٧٥)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤) حديث رقم (٢٤٢٢)، جميعًا من طريق سعيد بن يسار... به.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي أبقاكم، فإن العرض مخلوق وليس بمبقي ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد، أما الحشر فبقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ والدليل قدرته على الخلق ابتداء، وأما التوحيد فبقوله ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فقوله: سبحانه، أي سبحوه تسبيحًا أي نزهوه ولا تصفوه بالإشراك، وقوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فإذا قال: سبحوه، أي لا تصفوه بالإشراك، وإذا قال: وتعالى، فكأنه قال: ولا يجوز عليه ذلك.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثًا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ واختلفت الأقوال في قوله: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فقال بعض المفسرين: المراد خوف الطوفان في البر والبحر، وقال بعضهم: عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار، وقال آخرون: المراد من البحر المدن، فإن العرب تسمي المدائن بحورًا لكون مبنى عمارتها على الماء، ويمكن أن يقال: إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقًا وعصيانًا وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس، فالفاسق مشرك بالله بفعله، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما، وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام، فيقول القائل: لماذا لا تؤدبه بالكلام؟ فإذا قال: لا ينفع، ربما يقع في وهمه أنه لا يبعد عن نفع، فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي قوم نوح وعاد وثمود، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾[الروم: ٤٠] أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الروم: ٤١] أي قلل رزقكم، ثم قال تعالى: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم، فكأنه قال: أعطاكم الوجود والبقاء، ويسلب منكم الوجود والبقاء، وأما سلب البقاء فبإظهار الفساد، وأما سلب الوجود فبالإهلاك، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء، لأن الوجود أولاً ثم البقاء، وعند السلب قدم البقاء، وهو الاستمرار ثم الوجود.

وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يحتمل وجوهًا ثلاثة أحدها: أن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضًا كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت، الثاني: أن كل كافر أهلك لم يكن مشركًا بل منهم من كان معطلاً نافيًا لكنهم قليلون، وأكثر الكفار مشركون، الثالث: أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥] بل كان على الصغار والمجانين، ولكن أكثرهم كانوا مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لما نهى الكافر عما هو عليه، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبي عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فإنه أمر به أشرف الأنبياء، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ» وقد ذكرنا معناه، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يحتمل وجهين الأول: أن يكون قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿يَأْتِيَ﴾ والثاني: أن يكون المراد ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون. ثم أشار إلى التفرق بقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ ولم يقل: ومن آمن، وذلك لأن

العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضًا للمكلف عليه، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه، ووجه آخر: وهو أن الكفر قسمان: أحدهما: فعل وهو الإشراك والقول به، والثاني: ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان في مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل، لكن الإيمان لا بد معه من العمل الصالح، فإن الاعتقاد الحق عمل القلب، وقول: لا إله إلا الله، عمل اللسان وشيء منه لا بد منه.

المسألة الثانية: قال: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ فوحد الكناية وقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته، أما الغضب فمسبوق بالرحمة، لازم لمن أساء.

المسألة الثالثة: قال: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ ولم يبين وقال في المؤمن: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ تحقيقًا لكمال الرحمة فإنه عند الخير بين وفصل بشارة، وعند غيره أشار إليه إشارة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح، وهو الجزاء الذي يجازيه به الله والملك إذا كان كبيرًا كريمًا، ووعد عبدًا من عباده بأني أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ يعني: أنا المجازي فكيف يكون الجزاء، ثم إني لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل، فيزداد الرجاء، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل، فإن عدم المحبة من الله غاية العذاب، وأفهم ذلك ممن يكون له معشوق فإنه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته، وإذا قيل له: إنه قال: إني أحب فلانًا كيف يكون سروره.

وفيه لطيفة وهي أن الله عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ [الروم: ٤٤] وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأن قوله ﴿مَن كَفَرَ﴾ في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ لتحريض المؤمن، فالنهي كالإيعاد والتحريض للتقرير، والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم، وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالإحسان إظهارًا للكرم والرحمة، فإن قال قائل: هذا إنما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك فإن الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الإثابة، فنقول: إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالاً وهو قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ [الروم: ١٥] قدم المؤمن على الكافر، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن

فنقول: هناك أيضًا قدم الكافر في الذكر لأنه قال من قبل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] فذكر الكافر وإبلاسه، ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله: ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] وقوله في حق المؤمن: ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الروم: ١٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لإحسانه عوضًا، ويذكر لأضراره سببًا لئلا يتوهم به الظلم فقال: ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ قيل: بالمطر كما قال تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] أي قبل المطر ويمكن أن يقال: مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ عطف على ما ذكرنا، أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالمطر، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في القليل، ولما كان أمر الدنيا قليلاً وراحتها نزر قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي الفعل ظاهرًا عليه ولكنه بأمر الله، ولذلك لما قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ مسندًا إلى العباد ذكر بعده ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لا استقلال لشيء بشيء.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فنقول: في الرياح فوائد، منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها فقال: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بإصلاح الهواء فإن إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختبار من الآدمي بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها.

المسألة الثانية: قال في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ . . . لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١] وقال هاهنا: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فخاطب ههنا تشريفًا ولأن رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم، وأيضًا قال هناك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وقال هاهنا: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان: أحدهما: ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لإحسانه ورحمته عوضًا، وإن وجد فلا يقول: أعطيتك لأنك فعلت كذا، بل يقول: هذا لك مني. وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد

عندي، وثانيهما: أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل، فلو قال: أرسلت الرياح بسبب فعلكم، لا يكون بشارة عظيمة، وأما إذا قال: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ كان غاية البشارة، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال: بما فعلتم، لكان ذلك موهمًا لنقصان ثوابهم في الآخرة، وأما في حق الكفار فإذا قال: بما فعلتم، ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك.

المسألة الثالثة: قال هناك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وقال هاهنا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم.

المسألة الرابعة: إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الرعد: ١٢] والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرًا وتقريرًا للدلائل، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفًا وطمعًا، أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم، وحكمه به حكم جازم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ أي إرسالهم دليل رسالتك فإنهم لم يكن لهم شغل غير شغلك، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك، ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار، وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ وقال: حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضًا بالبينات، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ وجهان: أحدهما: فانتقمنا، وكان الانتقام حقًّا واستأنف وقال ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أي علينا نصركم أيها المؤمنون، والوجه الثاني: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي نصر المؤمنين كان حقًّا علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى، أما على الأول فهو أنه لما قال ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ بين أنه لم يكن ظلمًا وإنما كان عدلاً حقًّا، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرًا من وجودهم الخبيث، وعلى الثاني تأكيد البشارة. لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال: على فلان كذا، ينبئ عن اللزوم، فإذا قال حقًّا أكد ذلك المعنى، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، فإن إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولاً، ثم عادت آخرًا لا يكون النصر إلا للمنهزم، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة، فالكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في إرسالها قدرة وحكمة. أما القدرة فظاهرة فإن الهواء اللطيف الذي يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي إليه من إثارة السحب، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعًا، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة، وما يفضي إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: هو تأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ﴾ [الحشر: ١٧] وقال بعضهم: من قبل التنزيل من قبل المطر، والأولى أن يقال: من قبل أن ينزل عليهم من قبله، أي من قبل إرسال الرياح، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلسًا، فلما قال ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ لم يقل: إنهم كانوا مبلسين، لأن من قبله قد يكون راجيًا غالبًا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال (من قبله)، أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب، ثم لما فصل قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾ لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل، فإن الإنسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك، لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفًا بالعطاء، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله: إنك ميت، فإنه آكد من قوله إنك تموت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيد لما يفيد الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين، وعند ظهوره يكونون مستبشرين، بين أن تلك الحالة أيضًا لا يدومون عليها، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الآية الأولى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧] على طريقة الإخبار عن الإرسال، وقال ههنا: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ لا على طريقة الإخبار عن الإرسال، لأن الرياح من رحمته وهي متواترة، والريح من عذابه وهو تعالى رؤوف بالعباد يمسكها، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في الليالي والأيام في البراري والآكام، وريح السموم لا تهب إلا في بعض الأزمنة وفي بعض الأمكنة.

المسألة الثانية: سمى النافعة رياحًا والضارة ريحًا لوجوه أحدها: النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة، ولا تهب الريح الضارة في أعوام، بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور، الثاني: هو أن النافعة لا تكون إلا رياحًا فإن ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم، الثالث: هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها، أما الكيفية فهي إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم، وهذا لا يكون للريح في هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جدًا، أو تكون متكونة في أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارًا ولا متكيفًا، لأن المكث الطويل شرط التكيف، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر، والحديد إذا مكث فيها يذوب، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد. وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهرًا عظيمًا لا تسده السدود ولا يرده الجلمود، ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير، فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح.

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، وإنباؤه إلا كفرًا وإضرارًا، قال له: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الترتيب فنقول: إرشاد الميت محال، والمحال أبعد من الممكن، ثم إرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير، والإفهام بالإشارة صعب، ثم إرشاد الأعمى أيضًا صعب، فإنك إذا قلت له: الطريق على يمينك، يدور إلى يمينه، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب، وإرشاد الأصم أصعب، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى

أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئًا، لأن غاية الإفهام بالكلام، فإن ما لا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة، فإن المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا: لا تسمع الموتى، ثم قال: ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم.

المسألة الثانية: قال في الصم: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ليكون أدخل في الامتناع، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة، فإذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم.

المسألة الثالثة: قال في الأصم: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال: إنك داع لست بملجئ إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء.

المسألة الرابعة: قال: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْيِ﴾ أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل: فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتًا وبيتين، أي ليس شغله ذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ نفى ذلك عنه، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْيِ﴾ يعني ليس شغلك ذلك، وما أرسلت له.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيًّا سميعًا وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت في قلبه العقائد الحقة، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فإنهم قالوا: الله يريد من الكل الإيمان، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله، وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي ﷺ ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ومن هاهنا كما تكون في قول القائل: فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيًّا، أي من حالة فقره، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ فقوله ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ إشارة إلى حالة كان فيها جنينًا وطفلاً مولودًا ورضيعًا ومفطومًا فهذه أحوال غاية الضعف.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف، ثم بين بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن هذا ليس طبعًا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق:

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨] ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ لِمَ قدم العلم على القدرة؟ وقال من قبل ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا، فنقول هناك المذكور الإعادة بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] لأن الإعادة تكون بكن فيكون، فالقدرة هناك أظهر وهاهنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالمًا بأعمال الخلق كان عالمًا بأحوال المخلوقات فإن عملوا خيرًا علمه وإن عملوا شرًّا علمه، ثم إذا كان قادرًا فإذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] وإلى مثل هذا أشار في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عقيب خلق الإنسان، فنقول: أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم، والخلق المفهوم من قوله: ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] إشارة إلى القدرة، ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قيل: ما لبثوا في الدنيا غير ساعة. وقيل: ما لبثوا في القبور، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين، فنقول: الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما: إن مدة لبثنا قليل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ويقول الآخر: لبثنا مديدًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ يعني كان في كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم

البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني طلبكم التأخير، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير، فإن طلبوا شيئًا آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل آخر بعد ما ذكر دليلاً جيدًا مستقيمًا ظاهرًا لا غبار عليه وعانده الخصم، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف، فإن اعترف يكون انقطاعًا وهو يقدح في الدليل أو المستدل، إما بأن الدليل فاسد، وإما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره موهمًا أن الخصم ليس معاندًا فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر. فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعًا من الدلائل، نقول: سردوها سردًا، ثم قرروها فردًا فردًا، كمن يقول: الدليل عليه من وجوه: الأول كذا، والثاني كذا، والثالث كذا، وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتنحط درجته فإذن لكل مكان مقال. وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وفي توحيد الخطاب بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ والجمع في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون: أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون. ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله

على قلوبهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإن قيل: من لا يعلم شيئًا أية فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه؟ نقول: المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل، ثم إنه تعالى سلى قلب النبي ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن صدقك يبين وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ إشارة إلى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فإنه لو سكت لقال الكافر: إنه متقلب الرأي، لا ثبات له. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكيةٌ كلُّها من غير خلاف[1]، وهي ستون آية[2]

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى الترمذيُّ عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ ظهرتِ الرومُ على فارسٍ، فأَعجَبَ ذلك الْمُؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال: فَفَرِحَ المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. هكذا قرأ نصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيُّ «غَلَبَتِ الرُّومُ»[3]. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمَّ منه. قال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ؛ قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم سيَغلِبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتُم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكِرَ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ .

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٢). وهذه القراءة شاذة، وسيوردها المصنف قريباً عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

للنبيِّ ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دون العشرة. قال: ثم ظهرتِ الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال سفيان: سمعتُ أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[1]. ورواه أيضاً عن نِيَار بن مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ قال: لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ وكان فارسُ يومَ نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظهورَ الروم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريشٌ تُحِبُّ ظهورَ فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل اللهُ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾. قال ناسٌ من قريشٍ لأبي بكر: فذلكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبكم[2] أنَّ الرومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين! أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون وتواضعوا الرِّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنينَ إلى[3] تسعِ سنين، فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فَسمَّوا بينهم ستَّ سنين. قال: فمضَتِ السِّتُ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلتِ السنةُ السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ سِتِّ سنين. قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناسٌ كثير. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[4]. وروى القُشَيْرِيُّ وابن عطية وغيرهما: أنه لمَّا نزلتِ الآياتُ خرجَ أبو بكرٍ بها إلى المشركين فقال: أَسَرَّكُم أن

---

(١) سنن الترمذي (٣١٩٣).

(٢) في النسخ: صاحبك. والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في النسخ: أو. والمثبت من سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٩٤).

غُلبتِ الروم؟ فإنَّ نبيَّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبيُّ ابن خلف وأُميَّةُ أخوه ـ وقيل: أبو سفيان بن حرب ـ: يا أبا فَصِيل[١] ـ يُعرِّضون بكنيته بالبَكر[٢] ـ فلْنَتَنَاحَبْ ـ أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يُحرَّم القمار، وجعلوا الرِّهان خمسَ قلائِصَ، والأجلَ ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرِّهان ثلاثَ قلائِصَ. ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «فهلَّا احتطْتَ، فإنَّ البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع[٣] والعشر، ولكنِ ارجِعْ فزِدْهم في الرِّهانِ واستزِدْهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائصَ مئةً، والأجلَ تسعةَ أعوام، فغلبتِ الرومُ في أثناء الأجل[٤]. وقال الشَّعبيُّ: فظهروا في تسع سنين[٥]. القشيريُّ: المشهور في الروايات أنَّ ظهورَ الروم كان في السابعة من غَلَبَةِ فارس للروم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبي تصحيفٌ من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائِصَ سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوحِ كسرى أبروِيز فَتَحَ فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقَّاش وغيره: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﵁ لمَّا أراد الهجرة مع النبيِّ ﷺ تعلَّقَ به أُبيُّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلاً بالخَطَرِ[٦] إن غلَبتُ. فكفِلَ به ابنُه عبد الرحمن[٧]، فلمَّا أراد أُبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه

(١) والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه. الصحاح (فصل).

(٢) في (ظ): بكنية أبا بكر، وفي (م): بكنيته يا أبا بكر. والمثبت من (د) و(ز) والمحرر الوجيز.

(٣) في (ظ) و(م): والتسع، والمثبت من (د) و(ز)، وكذلك وقع في رواية الترمذي (٣١٩١) من حديث ابن عباس ﵄، ولم يذكر: والعشر. قلنا: والقول في أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر هو قول قتادة والأصمعي فيما ذكر النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ دون قوله: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. والقلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة. الصحاح (قلص).

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠١ .

(٦) أي: بالسبق الذي يُتراهن عليه. الصحاح (خطر).

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

كفيلاً، ثم مات أُبيٌّ بمكة من جرحٍ جرحَه النبيُّ ﷺ، وظهرتِ الرومُ على فارس يوم الحديبية على رأسِ تسع سنينَ من مُناحبتهم. وقال الشَّعبيُّ: لم تمضِ تلكَ المدَّةُ حتى غلبتِ الرومُ فارسَ، وربطوا خيلَهم بالمدائن، وبنَوا رومِيَة؛ فقَمَر[١] أبو بكرٍ أُبَيًّا، وأخذ مالَ الخَطَرِ من وَرَثَتِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «تصدَّق به» فتصدَّق به[٢].

وقال المفسِّرون: إنَّ سببَ غَلَبَةِ الرومِ فارسَ امرأةٌ كانت في فارسَ لا تلِدُ إلَّا الملوكَ والأبطال، فقال لها كسرى: أُريدُ أن أستعمل أحدَ بنيكِ على جَيشٍ أُجهِّزُه إلى الروم. فقالت: هذا هُرْمُز أرْوَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر، وهذا فَرُّخان أحَدُّ من سِنان، وأنفَذُ من نَبْل، وهذا شهربزان أحلَمُ من كذا، فاخْتَرْ. قال: فاختار الحليم وولَّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر على الروم. وقال عكرمة وغيره: إن شهربزان لمَّا غلبَ الرومَ خرَّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سريرِ كسرى، فكتب كسرى إلى شهربزان أن[٣] أرسل إليَّ برأس فَرُّخان. فلم يفعل، فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملتُ عليكم فَرُّخان، وعزلتُ شهربزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهربزان، فأراد فَرُّخان قتل شهربزان، فأخرج له شهر بزان ثلاثَ صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرُّخان، فقال شهربزان لفَرُّخان: إنَّ كسرى كتبَ إليَّ أن أقتُلَكَ ثلاث صحائف وراجعتُه أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتابٍ واحد؟! فرَدَّ المُلْكَ إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم، فتعاونا على كسرى، فغلبتِ الرومُ فارس ومات كسرى، وجاء الخبر إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، ففرح مَنْ معه من المسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض الشام. عكرمة: بأذْرِعات[٤]، وهي ما بين بلاد

---

(١) أي: غلب. الصحاح (قمر).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ .

(٣) كلمة أن من (د) و(ز).

(٤) من قوله: وقال عكرمة وغيره... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

العرب والشام. وقيل: إنَّ قيصر كان بعثَ رجلاً يُدعى يُحنَّس، وبعث كسرى شهربزان، فالتقيا بأذرِعاتَ وبصرى، وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضعٌ بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين(١). و«أدنى» معناه أقرب(٢). قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس(٣) في قوله:

تنوَّرْتُها من أذْرِعاتَ وأهلُها ... بيثربَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلمَّا طرأ ذلك وغلبتِ الرومُ سُرَّ الكفارُ، فبشَّرَ اللهُ عباده بأنَّ الرومَ سيغْلِبون وتكونَ الدُّولةُ لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة: «غَلَبَتِ الرُّومُ» بفتح الغين واللام(٤). وتأويلُ ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانتِ الروم غلبت، فعزَّ ذلك على كفار قريش، وسُرَّ بذلك المسلمون، فبشَّرَ اللهُ تعالى عباده أنهم سيغْلِبون أيضاً في بضع سنين. ذكر هذا التأويل أبو حاتم(٥). قال أبو جعفر النحَّاس: قراءة أكثر الناس: «غُلِبت الروم» بضمِّ الغين وكسر اللام. ورُويَ عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا «غَلَبَتِ الروم» وقرأا: «سيُغلبون»(٦). وحكى أبو حاتم أنَّ عِصْمة روى عن هارون أنَّ هذه قراءة أهل الشام، وأحمد بن حنبل يقول: إنَّ عِصْمةَ هذا ضعيف، وأبو حاتم كثيرُ الحكاية عنه، والحديث يدلُّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ دون قوله: إن قيصر... والعجم.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٧ .

(٣) في ديوانه ص ٣١ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٢ .

(٤) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما. وقد سلفت قريباً عن نصر بن علي الجهضمي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٦) قراءة: «سيُغلبون» في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

على أنَّ القراءة «غُلِبتْ» بضَمِّ الغين، وكان في هذا الإخبار دليلٌ على نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ لأنَّ الروم غلبَتْها فارس، فأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ أنَّ الرومَ ستغلِبُ فارسَ في بضع سنين، وأنَّ المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الرومَ أهلُ كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عزَّ وجلَّ به مما لم يكن(١)، وأمر أبا بكرٍ أن يُراهنهم على ذلك وأن يُبالِغَ في الرهان، ثم حُرِّم الرِّهانُ بعدُ، ونُسِخَ بتحريم القِمار(٢). قال ابن عطية(٣): والقراءةُ بضمِّ الغين أصحُّ، وأجمع الناس على «سيغلِبون» أنه بفتح الياء، يُراد به الروم. ويُروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضمِّ الياء في «سيغلِبون»، وفي هذه القراءة قلبٌ للمعنى الذي تظاهرتِ الرواياتُ به. قال أبو جعفر النحَّاس(٤): ومن قرأ: «سيُغلبون» فالمعنى عنده: وفارسُ من بعدِ غَلَبِهم ـ أي: من بعد أن غَلَبوا ـ سيُغلبون.

ورُوِيَ أنَّ إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذيّ، ورُويَ أنَّ ذلك كان يوم الحُديبِية، وأنَّ الخبرَ وصلَ يوم بيعة الرِّضوان. قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية(٥): وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمين بغَلبة الرومِ وهمِّهم أن تُغلَبَ إنَّما هو أنَّ الرومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان كما تقدَّم بيانُه في الحديث. قال النحَّاس(٦): وقولٌ آخر وهو أولى: أنَّ فَرَحَهم إنَّما كان لإنجاز وعدِ الله تعالى؛ إذ كان فيه دليلٌ على النبوَّة؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه. قال ابن عطية(٧): ويُشبه أن يُعلَّلَ ذلك بما يقتضيه النظرُ من محبة أن

(١) بعدها في (م) كلمة «علموه» وهي ليست في النسخ ولا في إعراب القرآن.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٣ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما قبله منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

يغلِبَ العدوُّ الأصغر؛ لأنه أيسرُ مؤونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثُرَ الخوفُ منه. فتأمَّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثَه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملكٍ يستأصله ويُريحهم منه.

وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنَّ جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر. حكاه القُشَيْرِيُّ.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون سرورُهم بالمجموع من ذلك، فسُرُّوا بظهورهم على عدوِّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله.

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميُّ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «من بعد غَلْبِهم» بسكون اللام[١]، وهما لغتان، مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرَّاء أنَّ الأصل «من بعد غلبتهم» فحُذِفت التاءُ كما حُذفتْ في قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ» وأصلُه: وإقامة الصلاة. قال النحَّاس: وهذا غلط لا يُخِيل على كثيرٍ من أهل النحو؛ لأنَّ «إقام الصلاة» مصدرٌ قد حُذِفَ منه لاعتلالِ فعله، فجُعِلَتِ التاءُ عوضاً من المحذوف، و«غلب» ليس بمعتَلٍّ ولا حُذِفَ منه شيء. وقد حكى الأصمعِيُّ: طَرَدَ طَرَدًا، وجَلَبَ جَلَبًا، وحَلَبَ حَلَبًا، وغَلَبَ غَلَبًا، فأيُّ حذفٍ في هذا، وهل يجوز أن يُقالَ في أَكَلَ أَكْلاً وما أشبَهه: حُذِفَ منه[٢]؟

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حُذِفَتِ الهاءُ من «بِضع» فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في سورة «يوسف»[٣]. وفُتِحَتِ النونُ من «سِنِينَ» لأنه جمعٌ مُسَلَّم. ومن العرب من يقول في «بضع سنين» كما يقول في «غِسلِين». وجاز أن يُجمعَ سنة جَمعَ من يعقِلُ بالواو والنون والياء والنون؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها شيءٌ فجُعِلَ هذا الجمعُ عِوَضاً من النقص الذي في واحده؛ لأنَّ أصل «سنة» سنهة أو سنوة، وكُسِرَتِ السينُ

(١) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي بن أبي طالب ﷺ.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩.
(٣) ١١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

منه دلالةً على أنَّ جمعَه خارجٌ عن قياسه ونمطه. هذا قول البصريين. ويلزم الفرَّاءُ أن يضُمَّها؛ لأنه يقول: الضمةُ دليلٌ على الواو وقد حُذِفَ من سنة واوٌ في أحد القولين، ولا يضُمُّها أحدٌ علِمناه(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلَبةٍ وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذه الغلَبةِ ومِنْ بعدِها(٢). وقيل: من قبلِ كلِّ شيءٍ ومن بعد كلِّ شيء(٣). و﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ ظرفان بُنيا على الضمِّ، لأنَّهما تعرَّفا بحذفِ ما أُضيفا إليهما، وصارا مُتضمَّنين ما حُذِفَ، فخالفا تعريفَ الأسماء، وأشبَها الحروفَ في التضمين فبُنيا، وخُصَّا بالضمِّ لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأُضيفَ زالَ بناؤه، وكذلك هما فَضُمَّا(٤).

ويقال: «من قبلٍ ومِن بعدٍ»، وحكى الكسائيُّ عن بعضِ بني أسد: «لِلهِ الْأَمْرُ مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضين بغير تنوين، والثاني مضمومٌ بلا تنوين. وحكى الفرَّاء: «مِن قبلٍ ومن بعدٍ» مخفوضتين بغير تنوين. وأنكره النحَّاسُ وردَّه. وقال الفرَّاء في كتابه: في القرآن أشياءُ كثيرة، الغلطُ فيها بيِّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجَّاج: المعنى: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ(٥).

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾ تقدَّم ذِكْرُه. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ يعني: من أوليائه؛ لأنَّ نصرةَ مختصٌّ بغلبَةِ أوليائه لأعدائه، فأمَّا غلَبةُ أعدائِه لأوليائه فليس

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٧٦ .

بنصره، وإنَّما هو ابتلاءٌ، وقد يُسمَّى ظَفَراً .﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ لأن كلامه صدق .﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم الكفار، وهم أكثر[١]. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب «وَعْدَ اللهِ» على المصدر، أي: وعدَ ذلك وعداً[٢].

ثم بيَّن تعالى مقدار ما يعلمون، فقال: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم؛ متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون، وكيف يبنون. قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحَّاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها، وغرس أشجارها. والمعنى واحد. وقيل: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا. قاله سعيد بين جُبير. وقيل: الظاهر والباطن، كما قال في موضعٍ آخر ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾[٣] [الرعد: ٣٣].

قلتُ: وقولُ ابن عباس أشبَهُ بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغَ ـ واللهِ ـ من علمِ أحدِهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيُخبرك بوزنه ولا يُحسِنُ أن يُصلِّي[٤]. وقال أبو العباس المبرِّد: قسمَ كسرى أيامَه فقال: يَصلح يومُ الريح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للشرب واللهو، ويومُ الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ قال بعضهم:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٤) قول الحسن في الوسيط ٣/ ٤٢٨ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨٩ .

ومن البليَّة أن ترى لكَ صاحباً في صورةِ الرجلِ السميعِ المُبصرِ
فَطِنٍ بكلِّ مصيبةٍ في مالِهِ وإذا يُصابُ بدينهِ لم يَشعُرِ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ۝٨﴾

قوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وليس بمفعول، تعدَّى إليه «يَتفكَّروا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلقِ أنفسهم، إنما أُمروا أن يستعملوا التفكُّرَ في خلق السماوات والأرض وأنفُسِهم، حتى يعلموا أنَّ الله لم يخلُقِ السماوات وغيرَها إلَّا بالحق[٢]. قال الزجَّاج: في الكلام حذفٌ، أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[٣]. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قال الفرَّاء: معناه: إلا للحق، يعني: الثواب والعقاب[٤]. وقيل: إلَّا لإقامة الحق[٥]. وقيل: «بِالْحَقِّ»: بالعدل. وقيل: بالحكمة. والمعنى متقارب[٦]. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي: أنه هو الحقُّ وللحقِّ خلقَها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة[٧]. وفي هذا تنبيهٌ على الفناء، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[٨]. وقيل: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: خَلَقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه.

---

(١) نسبهما في بهجة المجالس ٢/ ٨٠١ لعبد الله بن المبارك أو لغيره، ووقع صدر البيت الأول فيه: أُخَيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٥ بمعناه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٩ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠ .

(٧) الوسيط ٣/ ٤٢٩ عن مقاتل.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠ .

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لَكافرون بلقاء ربهم، على التقدير والتأخير، أي: لَكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إنَّ زيداً في الدار لَجالس. ولو قلت: إنَّ زيداً لفي الدار لجالسٌ، جاز. فإن قلتَ: إنَّ زيداً جالسٌ لفي الدار، لم يَجزْ؛ لأنَّ اللامَ إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنَّ وخبرِها، وإذا جئتَ بهما لم يَجزْ أن تأتي بها. وكذا إن قلتَ: إنَّ زيداً لجالس لفي الدار، لم يَجزْ[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة[(٢)]؛ لأنَّ أهل مكة لم يكونوا أهلَ حرث[(٣)]؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]. ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وعمروها أولئك أكثرَ ممَّا عمروها هؤلاءِ فلم تنفعْهم عمارتُهم ولا طولُ مُدَّتهم. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات. وقيل: بالأحكام، فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حُجَّة. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنَّ الحُسنى تأنيث الأحسن[(٤)]. وقيل: يعني بها هاهنا النار.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٩٠ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٢١٦ .

قاله ابن عباس[١]. ومعنى «أساؤوا»: أشركوا؛ دلَّ عليه: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. «السُّوءى» اسمُ جهنم، كما أنَّ الحُسنى اسم الجنة[٣]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا. قاله الكسائي[٤]. وقيل: بأن كذبوا[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذُكِّرتْ لأنَّ تأنيثها غيرُ حقيقي. و«السُّوءَى» خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. «السوءى» بالرفع اسم كان[٦]. ويجوز أن يكون اسمُها التكذيب[٧]، فيكون التقدير: ثمَّ كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساؤوا[٨]، ويكون السُّوءى مصدرًا لأساؤوا، أو صفةً لمحذوف، أي: الخَلَّة السوءى[٩]. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السوءُ» برفع السوء[١٠]. قال النحَّاس: السُّوء أشدُّ الشر، والسُّوءى الفُعلى منه[١١]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمحمدٍ والقرآن. قاله الكلبيُّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزِلَ بهم. الضحَّاك: بمعجزات محمدٍ ﷺ. ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٢].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٨. وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وينظر السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٨.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وهي قراءة شاذة.

(١١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(١٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠١.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء. الباقون بالتاء[١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ «يُبْلَسُ» بفتح اللام[٢]، والمعروف في اللغة: أبلَسَ الرجلُ إذا سكتَ وانقطعت حُجَّتُه، ولم يؤمِّلْ أن تكون له حُجَّة. وقريبٌ منه: تحيَّر؛ كما قال العجَّاج[٣]:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا ... قال نعم أعرفُهُ وأبْلَسا

وقد زعمَ بعضُ النَّحويين أنَّ إبليس مشتَقٌّ من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حُجَّتُه. النحَّاس: ولو كان كما قال لوجَبَ أن ينصرِفَ، وهو في القرآن غيرُ منصرف[٤]. وقال الزجَّاج[٥]: المُبلِسُ: الساكتُ المُنقطِعُ في حُجَّتِه، اليائسُ من أن يهتدي إليها.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ما عبدوه من دون الله ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلهة[٦]. فتبرَّؤوا منها وتبرَّأت منهم، حسبما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين.

---

(١) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٢) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن السُّلمي وعليٍّ ﷺ.

(٣) في ديوانه ص ٥٦، وسلف ٨/ ٣٨١.

(٤) من بداية الآية إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٧٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧.

ثم بيَّن كيفَ تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال النحَّاس: سمعتُ الزجَّاج يقول معنى «أمّا»: دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره. وكذا قال سيبويه: إنَّ معناها: مهما يَكُنْ من[1] شيءٍ فخُذْ في غير ما كُنَّا فيه. ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحَّاك: الروضة: الجنة، والرِّياض: الجِنان. وقال أبو عبيد: الروضةُ: ما كان في تَسفُّلٍ، فإذا كانت مرتفعةً فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسَنُ ما تكون الروضةُ إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظ، كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يومًا بأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ جَنا الأُصُلُ[2]

إلا أنه لا يُقال لها: روضة، إلَّا إذا كان فيها نبتٌ، فإن لم يكن فيها نبتٌ وكانت مرتفعةً فهي تُرعة. وقد قيلَ في التُّرعة غيرُ هذا[3]. وقال القُشَيْرِيُّ: والروضةُ عند العرب: ما ينبتُ حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيءٌ أحسنَ منه. الجوهريُّ: والجمع رَوْضٌ ورِياض، صارتِ الواوُ ياءً لكسرِ ما قبلها. والرَّوض: نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضةٌ من ماءٍ إذا غطَّى أسفله[4]. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) في (م): كنا في، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن.

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٧ . الحَزْن: ما غلظ من الأرض في ارتفاع. يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حُسنٌ له ونضرة. والكوكب: معظم النبات. والشَّرِق: الريَّان الممتلئ ماءً. والمؤزَّر: الذي صار النبات كالإزار له. والعميم: النبات الكثيف الحسن. والمكتهِل من اكتهل: إذا تمَّ طوله. والنشر: الريح الطيبة. والأُصُل جمع أصيل: وهو الوقت بعد العصر حتى المغرب. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٥ و٦/ ١٩ و١١/ ٣٣٨ ، والصحاح (أصل).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧ . والأبيات ذكرها الماوردي أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ .

(٤) الصحاح (روض).

ورَوْضةٍ سَقَيْتُ منها نِضْوَتي[١].

﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكْرَمون. وقيل: يُنعَّمون. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: يُسَرُّون. السُّدِّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح. ذكره الماوردي[٢]. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور، ويقال: حبرَه يحبُره ـ بالضَمِّ ـ حَبْراً وحَبَرَةً؛ قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي: يُنعَّمون ويُكرَمون ويُسَرُّون. ورجلٌ يَحْبُور يَفْعول من الحبور[٣]. النحَّاس: وحكى الكسائيُّ: حَبَرْتُه أي: أكرمتُه ونعَّمتُه، وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: وهو مشتَقٌّ من قولهم: على أسنانه حَبْرةٌ، أي: أثر، فـ «يُحبرون» يَتَبَيَّن عليهم أثر النعيم. والْحَبْرُ مشتقٌّ من هذا[٤]. قال الشاعر:

لا تـمـلأِ الـدّلْـوَ وعَـرِّقْ فـيـهـا[٥] أمـا تَـرَى حَـبـارَ مَـن يَـسْـقـيـهـا

وقيل: أصله من التَّحبير: وهو التَّحسين، فـ «يُحبَرُونَ»: يُحسَّنون[٦]. يقال: فلانٌ حَسَنُ الحِبْرِ والسِّبْرِ إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة. ويُقال أيضاً: فلانٌ حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ بالفتح، وهذا كأنه مصدرُ قولِك: حَبَرْتُه حَبراً إذا حسَّنتُه. والأوَّل اسمٌ؛ ومنه الحديث: «يخرج رجلٌ من النار ذهبَ حِبْرُه وسِبْرُه»[٧]. وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال: السَّماع في الجنة. وقاله الأوزاعِيُّ؛ قال: إذا أخذَ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلَّا رَدَّدَتِ الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال

(١) قائله هميان كما في تاج العروس (روض). والنِّضوة: هي الناقة المهزولة، مذكرها نِضو. الصحاح (نضو).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٢، دون قوله: وقيل: يُسرُّون، فقد ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٣) الصحاح (حبر).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) أي: اجعل فيها دون الملء. الصحاح (عرق).

(٦) سلف هذا المعنى ٧/ ٤٩٥.

(٧) تهذيب اللغة ٥/ ٣٢ - ٣٣. والحديث أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٥.

الأوزاعِيُّ: ليسَ أحدٌ من خَلْقِ الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطعَ على أهل سبع سماواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم[(١)]. زاد غير الأوزاعِيّ: ولم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت، ولم يبقَ سِترٌ ولا بابٌ إلا ارتَجَّ وانفتح، ولم تبقَ حلقةٌ إلا طنَّتْ بألوان طنينها، ولم تبقَ أجَمَةٌ من آجام الذهب إلَّا وقع أُهبوبُ الصوت في مقاصبها، فَزَمَرت تلك المقاصبُ بفنون الزمر، ولم تبقَ جاريةٌ من جواري الحورِ العينِ إلَّا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويُوحي اللهُ تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعَهم عن مزامير الشيطان، فيُجابون بألحانٍ وأصواتٍ روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصيرُ رجَّةً واحدة، ثم يقول الله جَلَّ ذِكْرُه: يا داودُ قُمْ عند ساقِ عرشي فمجِّدْني. فيندفع داودُ بتمجيد ربِّه بصوتٍ يغمرُ الأصواتَ ويُجليها، وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيُّ الحكيم رحمه الله[(٢)]. وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ كان يُذكِّر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي أُخريات القوم أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابِيُّ، إنَّ في الجنة لَنهراً حافَتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خِمصانية يتغَنَّينَ بأصواتٍ لم تَسمعِ الخلائقُ بمثلها قطُّ، فذلك أفضلُ نعيم الجنة» فسأل رجلٌ أبا الدَّرداء: بماذا يتغنَّينَ؟ فقال: بالتسبيح. والخِمصانية: المُرهَفَةُ الأعلى، الخِمصانةُ البطن، الضخمةُ الأسفل[(٣)].

قلت: وهذا كلُّه من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارضَ بين تلك الأقوال.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٩ .

(٢) لم نقف عليه في القسم المطبوع من نوادر الأصول.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣١ - ٣٣٢ من طريق سليمان بن عطاء ، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال ابن حبان: سليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله.

وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] على ما يأتي. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»[١]. وقد رُوِي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السماعَ بعثَ اللهُ ريحاً من تحت العرش فتقعُ في تلك الأشجار، فتُحرِّكُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمِعَها أهلُ الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشريّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ تقدَّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَـآءِ ٱلْـَٔاخِـرَةِ﴾ أي: بالبعث. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: مُعذَّبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨] أي: نزَل به. قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيه ثلاثة أقوال: الأوّل ـ أنه خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضِّ على الصلاة في هذه الأوقات[٤]. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن. قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ

---

(١) سلف ١/ ١٢٢ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٢١٧ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣ ، وفيه أن قول ابن شجرة: يقيمون.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢ .

﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[١]. وقاله الضحَّاك وسعيد بن جُبير[٢]. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أنَّ الآية تنبيهٌ على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آيةٍ أخرى في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وفي ذكر أوقات العورة[٣]. وقال النحَّاس: أهل التفسير على أنَّ هذه الآية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: حقيقتُه عندي: فسبِّحوا اللهَ في الصَّلوات؛ لأنَّ التسبيحَ يكون في الصلاة. وهو القول الثاني[٤]. والقول الثالث ـ فسبِّحوا الله حين تُمسون وحين تُصبحون. ذكره الماوردِيُّ، وذكر القولَ الأوّل، ولفظه فيه: فصلُّوا للهِ حين تُمسون وحين تُصبحون[٥]. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لِما تضمَّنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذٌ من السُّبحة، والسُّبحة: الصلاة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «تكون لهم سبحةً يوم القيامة» أي صلاةً[٦].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمِه وآلائه. وقيل: معنى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: الصلاةُ له؛

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٢)، والطبري ١٨/ ٤٧٤، والطبري (١٠٥٩٦)، والحاكم ٢/ ٤١٠ - ٤١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) لم نقف على هذا الكلام عند الماوردي في النكت والعيون ولا عند أحد ممَّن ينقل عنه. وقد ذكر ابن الجوزي الكلام الأخير في زاد المسير ٦/ ٢٩٣ من غير نسبة.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣. والحديث لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد معنى السُّبحة أنها الصلاة في أحاديث عدة منها ما أخرجه أحمد (٢٤٥٥٩)، والبخاري (١١٧٧) ومسلم (٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى، وإني لأُسبِّحها. ومنها ما أخرجه أحمد (١٢٤٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ سُبحة الضحى ثمان ركعات.

لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوَّل أظهر؛ فإنَّ الحمدَ لله من نوع التعظيم لله تعالى والحضِّ على عبادته ودوام نعمته، فيكون نوعاً آخرَ خلافَ الصلاة، والله أعلم[١].

وبدأ بصلاة المغرب؛ لأنَّ الليلَ يتقدَّم النهار. وفي سورة «سبحان» بدأ بصلاة الظهر؛ إذ هي أوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريل بالنبيِّ ﷺ. قال الماورديُّ[٢]: وخصَّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاةَ النهار باسم الحمد؛ لأنَّ للإنسان في النهار متقلَّباً في أحوالٍ تُوجِبُ حمدَ الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوةٍ تُوجِبُ تنزيهَ الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صارَ الحمدُ بالنهار أخَصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ النهار، والتسبيحُ بالليل أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ الليل.

الثالثة ـ قرأ عكرمة: «حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ» والمعنى: حيناً تُمسون فيه وحيناً تُصبحون فيه؛ فحذف «فيه» تخفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨][٣]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريُّ: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيتُه عشِيةَ أمسِ وعَشِيَّ أمسِ. وتصغير العَشِيِّ: عُشَيَّان، على غير [قياسِ] مُكَبَّرِه، كأنهم صغَّروا عَشْيَانًا، والجمع عُشَيَّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَّة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاءُ ـ بالكسر والمدِّ ـ مثلُ العَشِيِّ. والعِشاءان المغربُ والعَتْمة. وزعم قومٌ أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غدونا غدوةً سَحَراً بليلٍ عِشاءً بعد ما انتصفَ النهارُ[٤]

الماورِديُّ[٥]: والفرقُ بين المساء والعِشاء: أنَّ المساءَ بُدُوُّ الظلام بعد المغيب،

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢ .

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٣ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٧ ، وينظر إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨ ، وقراءة عكرمة في المحتسب ٢/ ١٦٣ ، والشاذة ص ١١٦ .

(٤) الصحاح (عشا) ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٤ .

والعِشاءَ آخرُ النهار عند ميل الشمس للمغِيب، وهو مأخوذٌ من عشا العين: وهو نقصُ النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيَّن كمالَ قدرته؛ أي: كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يُحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى في «آل عمران»[1] بيانُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: من علامات رُبُوبِيَّتِهِ ووَحْدانيَّته أنْ خلقكم من تراب[2]، أي: خلقَ أباكم منه، والفرع كالأصل، وقد مضى بيانُ هذا في «الأنعام»[3]. و«أنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم

(١) ٥/ ٨٦ - ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨١.

(٣) ٨/ ٣١٨.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما هو قِوامُ معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثًا، ومن قَدَر على هذا فهو أهلٌ للعبادة والتسبيح.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: نساءً تسكنون إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من نُطَفِ الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوَّاء، خلقها من ضِلَع آدم. قاله قتادة[٢]. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودَّة: الجماع، والرحمة: الولد. وقاله الحسن. وقيل: المودَّة والرحمة عَطْفُ قلوبِهم بعضِهم على بعض[٣]. وقال السُّدِّي: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقة[٤]. ورُوي معناه عن ابن عباس قال: المودَّةُ: حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمة: رحمتُه إيَّاها أن يُصيبَها بسوء[٥]. ويُقال: إنَّ الرجل أصلُه من الأرض، وفيه قوَّةُ الأرض، وفيه الفَرْجُ الذي منه بُدئ خَلْقُه، فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقتِ المرأةُ سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ فأوَّلُ ارتفاقِ الرجل بالمرأة سكونُه إليها مما فيه من غليَان القوَّة، وذلك أنَّ الفرجَ إذا تُحمِّلَ فيه هيَّجَ ماءَ الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهنَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦] فأعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرجالَ أنَّ ذلك الموضعَ خُلِقَ منهنَّ للرجال، فعليها بذلُه في كلِّ وقتٍ يدعوها الزوج، فإن منعَتْه فهي ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٢) مجمع البيان ٢١/ ١٩، وقول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣، وذكر القول الأول عن مجاهد، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ عن مجاهد والحسن وعكرمة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٥، ومجمع البيان ٢١/ ١٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»(١). وفي لفظٍ آخر: «إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجِها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصبح»(٢).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «البقرة»(٣) وكانوا يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ اللِّسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكادُ ترى أحداً إلا وأنتَ تُفرِّقُ بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بُدَّ من فاعل، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو الله تعالى، فهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على المدبِّر البارئ(٤). ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي للبَرِّ والفاجر(٥). وقرأ حفص: «للعالِمِينَ» بكسر اللام، جمع عالِم(٦).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير(٧)، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذِفَ حرفُ الجرِّ لاتصاله بالليل وعَطْفِه عليه، والواو تقوم مقامَ حرف الجرِّ إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصةً، فجُعلَ النومُ بالليل دليلاً على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر(٨).

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (١٢١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (١٢٠)، وأخرجه أحمد (١٠٩٤٦)، والبخاري (٥١٩٤)، وقد سلف ٦/ ٢٨٣.

(٣) ١/ ٣٧٦ فما بعدها.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٥) زاد المسير ٥/ ٣٩٨ عن ابن عباس ﷺ عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٦) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١.

وقيل: يسمعون الحقَّ فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيُصدِّقونه. والمعنى متقارب[(١)]. وقيل: كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضرٌ سَدَّ أذنيه حتى لا يسمع، فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الدلائل عليه[(٢)].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى: أن يُريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

أَلَا أيُّهذا اللائِمي أحْضُرُ الوَغَى ... وأنْ أشْهَدَ اللَّذَاتِ هل أنت مُخْلِدي[(٣)]

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: ويُريكم البرقَ من آياته. وقيل: أي: ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق، كما قال الشاعر:

وما الدَّهرُ إلَّا تارتانِ فمنهما ... أموتُ وأخْرَى أبتغي العيشَ أكْدَحُ[(٤)]

وقيل: أي: من آياته أنه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياته. قاله الزجَّاج[(٥)]، فيكون عطفَ جملةٍ على جملة. ﴿خَوْفًا﴾ أي: للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم. قاله قتادة. الضحَّاك: «خَوْفًا» من الصواعق، «وَطَمَعًا» في الغيث. يحيى بن سلام: «خَوْفًا» من البرد أن يُهلِكَ الزرعَ، «وَطَمَعًا» في المطر أن يُحييَ الزرعَ. ابن بحر: «خَوْفًا» أن يكون البرقُ بَرْقًا خُلَّبًا لا يُمطر، «وَطَمَعًا» أن يكون ممطراً، وأنشد قولَ الشاعر:

لا يكُنْ بَرْقُكَ برقًا خُلَّبا ... إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه[(٦)]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ دون قوله: فحذف حرف الجر ... إلى قوله: خاصةً. ودون قوله: يريد سماع تفهم وتدبر.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) البيان ٢/ ٢٥٠ . والبيت في ديوان طرفة ص ٣٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤ . والبيت قائله تميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٢ ، والعبارة التي بعده منه.

(٦) نسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي كما في عيون الأخبار ص ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ٣/ ١٥٦ ، ونسب إلى عبد الله بن كريز كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٠ ، ونسب إلى أنس بن زنيم كما في خزانة الأدب ٦/ ٤٧١ .

وقال آخر:

فقد أرِدُ المياهَ بغير زادِ سوى عَدِّي لها برقَ الغمامِ[١]

والبرقُ الخُلَّبُ: الذي لا غيثَ فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجز: إنما أنت كبرقٍ خُلَّب. والخُلَّب أيضاً: السحابُ الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلَّبٍ، بالإضافة[٢]. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ «أنْ» في محلِّ رفعٍ كما تقدم، أي: قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد[٣]. وقيل: بتدبيره وحكمته، أي: يمسكها بغير عمدٍ لمنافع الخلق. وقيل: «بأمرِهِ» بإذنه. والمعنى واحد[٤]. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: الذي فعلَ هذه الأشياء قادرٌ على أن يبعثكم من قبوركم[٥]، والمرادُ سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقُّفٍ ولا تلبُّث؛ كما يُجيبُ الداعي المطاعَ مَدْعُوُّه، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمهِ فكأنَّما دعوتُ برأسِ الطَّودِ أو هو أسرعُ

يريد برأس الطود: الصَّدى، أو الحجرَ إذا تَدَهْده. وإنما عطفَ هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثمَّ» لِعظَمِ ما يكون من ذلك الأمر واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقَى نسمةٌ من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. و«إذا» الأولى في

(١) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ١٤٣ ، وفيه: «هاد» بدل «زاد». ومن قوله: ﴿خوفاً﴾.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) الصحاح (خلب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٨ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوبُ منابَ الفاء في جواب الشرط[١]. وأجمع القرَّاء على فتح التاء هنا في «تُخْرَجُونَ»، واختلفوا في التي في «الأعراف» [الآية:٢٥] فقرأ أهل المدينة: «ومنها تُخرجون» بضمِّ التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد، والمعنيان متقاربان، إلَّا أنَّ أهل المدينة فرَّقوا بينهما لِنَسقِ الكلام، فنسَقُ الكلام في التي في «الأعراف» بالضمِّ أشبه؛ إذ كان الموتُ ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبَهُ بنَسقِ الكلام، أي: إذا دعاكم خرجتُم، أي: أطعمتم؛ فالفِعْلُ [بهم] أشبه[٢]. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة[٣]، على ما تقدَّم ويأتي. وقُرِئ: «تخرجون» بضمِّ التاء وفتحِها، ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٤] ولم يزِدْ على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعة». قال النحَّاس: مطيعون طاعة انقياد[٥]. وقيل: «قَانِتُونَ» مُقِرُّون بالعبودية، إما قالةً وإما دِلالةً. قاله عِكرمة وأبو مالك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: «قَانِتُونَ»: مُصلُّون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: قائمٌ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠، وما بين حاصرتين منه. وينظر النشر ٢/ ٢٠٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٩٦.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠، والحديث أخرجه - بهذا اللفظ - الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، به.
وأخرجه أحمد (١١٧١١) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، به. بلفظ: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». رشدين وابن لهيعة ضعيفان، وكذلك دراج أبو السمح في روايته عن أبي الهيثم العتواري. قلنا: وقد رُوي هذا من كلام قتادة فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١١٦.

[المطففين:٦] أي: للحساب. الحسن: كلٌّ له قائمٌ بالشهادة أنه عبدٌ له. سعيد بن جُبير. «قَانِتُونَ»: مخلصون[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمَّا بدْءُ خلقِه فبِعُلوقه في الرَّحم قبل ولادته، وأمَّا إعادتُه فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقِه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[٢]. وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يُبْدِئُ الخَلْقَ»[٣] من أبدأ يُبدئ؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣]. ودليلُ قراءة العامَّة قولُه سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]. و«أَهْوَنُ» بمعنى هيِّن، أي: الإعادةُ هيِّنٌ عليه. قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن[٤]. فأهونُ بمعنى هيِّن؛ لأنه ليس شيءٌ أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومَنْ جعلَ أهونَ يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيءٍ فقولُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٣٠] وبقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]. والعرب تحمِلُ أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق[٥]:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائِمُه أعزُّ وأطولُ

أي: دعائمه عزيزةٌ طويلة. وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أوَّلُ[٦]

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) وهي قراءة شاذة لم نقف عليها إلا عند المصنف.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس والربيع، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن الربيع وقتادة والكلبي. وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ عن الحسن وقتادة.

(٥) في ديوانه ص ٧١٤ .

(٦) قائله معن بن أوس المزني، وهو في الكامل ٢/ ٧٥٠ ، والحماسة البصرية ٢/ ٧ ، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥ .

أراد: إني لوَجِلٌ. وأنشد أبو عبيدةَ أيضاً:

إنـي لأمْـنَـحُـكَ الـصُّـدودَ وإنَّـنـي قَـسَـمًـا إلـيـكَ مـع الـصُّـدود لَأَمْـيَـلُ(١)

أراد: لَمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَـمـنَّـى رجـالٌ أن أمـوتَ وإن أمُـتْ فـتـلـكَ سـبـيـلٌ لـسـتُ فـيـهـا بـأوْحَـدِ(٢)

أراد: بواحد. وقال آخر:

لَـعَـمـرُكَ إنَّ الـزِّبـرقـانَ لَـبـاذلٌ لـمـعـروفـهِ عـنـد الـسـنـيـنَ وأفـضَـلُ(٣)

أي: وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر، إنما معناه: الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وهو عليه هيِّن»(٤). وقال مجاهد وعكرمة والضحَّاك: إنَّ المعنى أن الإعادة أهونُ عليه ـ أي: على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعُه على الله تعالى هيناً. وقاله ابن عباس(٥). ووجهُه أنَّ هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهوَنُ من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعثُ لمن قدَرَ على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين، أي: هو أهوَنُ عليه، أي: على الخلق، يُصاح بهم صيحةً واحدةً فيقومون ويُقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهوَنُ عليهم من أن

(١) إلى هذا الموضع من مجاز القرآن ٢/ ١٢١ - ١٢٢ ، وهذا البيت قائله الأحوص بن محمد الأنصاري، وهو في كتاب سيبويه ١/ ٣٨٠ ، وخزانة الأدب ٢/ ٤٨ .

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري ٢٤/ ٤٧٨ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ إلى طرفة، وذكر أن الشافعي رحمه الله تمثل به عندما دعا عليه أشهب بالموت. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القين.

(٣) ذكره الطبري ١٨/ ٤٨٧ من غير نسبة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦ ، ووقع فيه وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ : «وهو هينٌ عليه». وأخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ بمثل ما أثبتناه، وهي قراءة شاذة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن مجاهد وعكرمة، وزاد المسير ٦/ ٢٩٧ عن مجاهد وأبي العالية.

يكونوا نُطَفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم أجِنَّةً، ثم أطفالاً، ثم غلماناً، ثم شُبَّاناً، ثم رجالاً أو نساءً. وقاله ابن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون: أسهل[١]؛ قال:

وهانَ على أسماءَ أن شَطَّتِ النَّوَى يَحِنُّ إليها والِهٌ ويتوقُ

أي: سهلٌ عليها. وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيءٌ على الله بعزيز[٢]. عِكرمة: تعجَّبَ الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية[٣]. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: ما أراده جلَّ وعزَّ كان. وقال الخليل: المثلُ: الصفة[٤]، أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] أي: صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قولُ: لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي: الذي له الوصفُ الأعلى، أي: الأرفع الذي هو الوصف بالواحدانية. وكذا قال قتادة: إنَّ المثلَ الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] على ما نُبيِّنُه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجَّاج: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربَه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوَّل[٥]. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء[٦] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٠ ، والبيت قائله عمرو بن الأهتم كما في المفضليات ص ١٢٥ ، وقول الربيع أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٦ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢١ دون قول قتادة، وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٧) ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ ثم قال: ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ فـ «من» الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذَ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام[1]. والآيةُ نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيكَ لا شريكَ لك، إلّا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَكَ. قاله سعيد بن جُبير[2]. وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَه الله للمشركين، والمعنى: هل يرضى أحدُكم أن يكون مملُوكه في ماله ونفسه مِثلَه، فإذا لم ترضَوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء[3]؟!

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصلٌ في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليسَ عبيدُنا شركاءَنا فيما رزقتَنا. فيُقال لهم: فكيف يُتصوَّرُ أن تُنزِّهوا نفوسَكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقِلةُ نظرٍ وعَمَى قلب! فإذا بطلتِ الشركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادةُ - والخلقُ كلُّهم عبيدٌ لله تعالى - فيبطل أن يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلّا أنه واحدٌ يستحيلُ أن يكون له شريك، إذِ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل، والقديمُ الأزليُّ منزَّهٌ عن ذلك جَلَّ وعزَّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١١، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢، والطبري ١٨/ ٤٩٠.

وهذه المسألة أفضَلُ للطالب من حفظ ديوانٍ كاملٍ في الفقه؛ لأنَّ جميعَ العبادات البدنية لا تصِحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لمَّا قامتْ عليهم الحُجَّةُ ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا هاديَ لمن أضلَّه اللهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية .﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ قال الزجَّاج: «فِطْرَةَ» منصوبٌ بمعنى: اتَّبِعْ فطرةَ الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ الحنيفَ واتَّبِعْ فطرةَ الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ مصدر من معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطرَ اللهُ الناس على ذلك فِطرةً. وقيل: معنى ذلك: اتَّبعوا دينَ الله الذي خَلَقَ الناسَ له، وعلى هذا القول يكون الوقفُ على «حَنِيفًا» تامًّا. وعلى القولين الأوَّلين يكون متَّصلاً، فلا يُوقَفُ على «حنيفاً». وسُمِّيتِ الفِطْرَةُ دِيناً لأن الناسَ يُخلقون له قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ويقال: «عَلَيْهَا» بمعنى لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] [الإسراء:٧]. والخطاب بـ «أقِمْ وَجْهَكَ» للنبيِّ ﷺ، أمرَه بإقامة وجهِه للدِّين المستقيم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم:٤٣] وهو دين الإسلام.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ دون قوله: وعلى هذا القول يكون الوقف.. إلى قوله: فلا يوقف على «حنيفاً». وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤ ، وقول الطبري في تفسيره ١٨/ ٤٩٣ .

وإقامة الوجه هو تقويمُ المقصد، والقوَّة على الجِدِّ في أعمال الدين .وخصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أُمَّتُه باتِّفاقٍ من أهل التأويل. و«حَنِيفًا» معناه: معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة[١].

الثانية ـ في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرة ـ في رواية: على هذه الملة ـ فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسَانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٢]. في رواية: «حتى تكونوا أنتم تجدعونَها» قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَنْ يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين». لفظ مسلم[٣].

الثالثة ـ واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة، منها الإسلام. قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرُهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامَّة السلف من أهل التأويل، واحتجُّوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ في كتابه، أنَّ الله خلق آدمَ وبَنيه حُنفاءَ مسلمين، وأعطاهمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيه، فجعلوا ممَّا أعطاهم اللهُ حلالاً وحراماً...» الحديث[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨): (٢٢). وهو في مسند أحمد (٧٧١٢). ورواية: «على الملة» في صحيح مسلم (٢٦٥٨): (٢٣)، وهي في مسند أحمد (٧٤٤٣). وقد سلف بعضه ١٤٨/٧.

(٣) في صحيحه (٢٦٥٨): (٢٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٧٨)، والطبراني ١٧/ (٩٩٧)، وابن عبد البر في التمهيد ٧٣/١٨ من طريق محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عياض بن حمار ﷺ، به. محمد بن إسحاق مدلس، وقد رواه بالعنعنة. وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤)، ومسلم (٢٨٦٥) بغير هذا السياق.

وبقوله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة..»[١] فذكر منها قصَّ الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أنَّ الطفل خُلِقَ سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار. وقال آخرون: الفطرةُ: هي البداءةُ التي ابتدأهم الله عليها، أي: على ما فطرَ اللهُ عليه خَلْقَه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ. واحتجُّوا بما رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: لم أكُنْ أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُها. قال الْمَرْوَزِيُّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب «التمهيد» له: ما رسمَه مالكٌ في «موطَّئه»[٢] وذكرَ في أبواب[٣] القدر فيه من الآثار يَدلُّ على أنَّ مذهبَه في ذلك نحوُ هذا، والله أعلم. ومما احتجُّوا به ما رُوِيَ عن [محمد بن][٤] كعب القُرَظيِّ في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال: مَنِ ابتدأ اللهُ خلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمِلَ بأعمال الهدى، ومَنِ ابتدأ اللهُ خَلْقَه على الهدى صيَّره إلى الهدى وإن عمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ خَلْقَه،[٥] قال: وكان من الكافرين.

---

(١) وقد سلف ٢/ ٣٦٣.

(٢) ٢/ ٨٩٨ - ٩٠١.

(٣) في (م): باب، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) ما بين حاصرتين من المصادر، وهو ليس في النسخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٦٧)، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي. موسى بن عبيدة ضعيف فيما قال ابن حجر في التقريب. والكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من التمهيد ١٨/ ٦٦ و٧٢ و٧٣ و٧٦ - ٨٠.

قلت: قد مضى قول [محمد بن] كعب هذا في «الأعراف»(١)، وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة غلامٍ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكْه. قال: «أوَغيرَ ذلكَ يا عائشة، إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»(٢). وخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تُخبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن(٣).

وقالت فرقةٌ: ليس المراد بقولِه تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ولا قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» العمومَ، وإنما المرادُ بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطِرَ الجميعُ على الإسلام لمَا كفر أحد، وقد ثبت أنه خلقَ أقواماً للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٧٩] وأخرجَ الذُّرّيةَ من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر: طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً(٤). وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال:

---

(١) ٩/ ١٩١ ، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٢) ، وأخرجه أحمد (٢٥٤٧٢) ، ومسلم (٢٦٦٢) : (٣١).

(٣) سنن الترمذي (٢١٤١) ، وهو في مسند أحمد (٦٥٦٣) ، وفي إسناده أبو قبيل حيي بن هانئ المعافري، وهو مختلف فيه، وضعفه الحافظ في تعجيل المنفعة ص ٢٧٧ ، وذكر أنه كان يكثر النقل عن الكتب القديمة.

(٤) التمهيد ١٨/ ٥٩ و٦١ دون قوله: إذ لو فطر... إلى قوله: سوداء وبيضاء.

«ألَا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى، فمنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَنُ القضاء حَسَنُ الطلب». ذكره حماد بن زيد قال[1]: حدثنا عليُّ بن زيد، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد[2]. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثيرٌ في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولم تدمِّرِ السماواتِ والأرض، وقولِه: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة[3]. وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: فطَرَ اللهُ الخلقَ فِطرةً إمَّا بجنةٍ أو نار، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس[4]: من قال: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، فهذا إنَّما يليقُ بالفِطرةِ المذكورةِ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنَّه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تُبدَّلُ وتُغيَّر.

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرةُ: هي الخِلقةُ التي خُلِقَ عليها المولودُ في المعرفة بربِّه، فكأنه قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على خِلْقةٍ يعرِفُ بها ربَّه إذا بلغَ مبلَغَ المعرفة؛ يريد خِلقةً مخالفةً لخِلقة البهائم التي لا تصِلُ بخلقتها إلى معرفته، واحتَجُّوا على أنَّ الفِطرةَ الخِلقةُ، والفاطِرَ الخالقُ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المثبت من (ز). وفي (ظ): ذكره حماد بن زيد كذا قال. وفي (د): ذكره حماد بن أسلم الطيالسي قال: وفي (م): ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال.

(٢) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٢١٩١) من طريق حماد بن زيد، به.

وأخرجه أحمد (١١١٤٣) والطيالسي (٢١٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به. علي بن زيد: هو ابن جدعان، وهو ضعيف، وقد تكلم فيه شعبة كما سيذكر المصنف.

(٣) التمهيد ١٨/ ٦٢.

(٤) في المفهم ١/ ٦٧٥ - ٦٧٦.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يعني: خالقهنَّ، وبقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] يعني: خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] يعني: خلقهنَّ. قالوا: فالفطرةُ: الخِلقَةُ، والفاطرُ الخالق، وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَرُ على كفرٍ أو إيمانٍ أو معرفةٍ أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنيةً ليس معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفرَ والإيمانَ بعد البلوغ إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَجُ البَهِيمةُ بهيمةً جَمعاءَ - يعني سالمة - هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعةَ الأذن. فمثَّلَ قلوبَ بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولَدُ كاملةَ الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تُقطَعُ آذانُها بعدُ وأنوفُها، فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفرٌ ولا إيمان، ولا معرفةٌ ولا إنكار، كالبهائم السائمة، فلمَّا بلغوا استهوتهم الشياطينُ فكفر أكثرهم، وعصمَ اللهُ أقلَّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوَّليَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نَجِدُهم يؤمنون ثم يكفرون [ويكفرون ثم يؤمنون]. قالوا: ويستحيلُ في المعقول أن يكون الطفلُ في حين ولادته يعقلُ كفراً أو إيماناً؛ لأنَّ الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] فمَنْ لا يعلمُ شيئاً استحالَ منه كفرٌ أو إيمان، أو معرفةٌ أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصَحُّ ما قيل في معنى الفطرة التي يولَدُ الناسُ عليها. ومن الحجَّة أيضاً في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن لم يبلُغْ وقتَ العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولمَّا أجمعوا على دفعِ القَوَد والقصاصِ والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك، والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأنَّ الإسلام والإيمان: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدومٌ من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل.

وأما قول الأوزاعي: سألتُ الزهريَّ عن رجلٍ عليه رَقَبَةٌ أيُجزِئُ عنه الصبيُّ أن يَعتِقَه وهو رضيع؟ قال: نعم؛ لأنه وُلِدَ على الفِطرة يعني الإسلام، فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأنَّ حُكمَه حُكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزي في الرقابِ الواجبةِ إلَّا مَنْ صام وصلَّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولا في «أن يختمَ اللهُ للعبد بما قضاه له وقدَّره عليه» دليلٌ على أنَّ الطفل يولَدُ حين يولَدُ مؤمناً أو كافراً؛ لِما شهدتْ له العقولُ أنه في ذلك الوقت ليس ممَّن يعقِلُ إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أنَّ الناس خُلِقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مَطعنَ فيها؛ لأنَّه انفرد به عليُّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلَّم فيه، على أنه يحتمل قوله: «يولَدُ مؤمناً» أي: يُولَدَ ليكون مؤمناً، ويُولَدَ ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث: «خلقتُ هؤلاء للجنة، وخلقتُ هؤلاء للنار» أكثرَ من مراعاة ما يُختَمُ به لهم، لا أنهم في حين طفولتهم ممَّن يستحِقُّ جنةً أو ناراً، أو يعقِلُ كفراً أو إيماناً[(١)].

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتجَّ له ذهبَ غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، منهم ابن عطية في «تفسيره» في معنى الفطرة، وشيخُنا أبو العباس؛ قال ابن عطية[(٢)]: والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقةُ والهيئةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّةٌ ومهيَّأةٌ لِأَنْ يُميِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، ويستدِلَّ بها على ربِّه، ويعرفَ شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقِمْ وجهَك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرةُ الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكْرُ الأبوين إنما هو مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته[(٣)]: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوب بني آدم

(١) التمهيد ١٨/ ٦٨ و٧٠ و٧١ و٧٦ و٧٧ و٨٢ و٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.

(٣) في المفهم ١/ ٦٧٦.

مؤهَّلَةً لقبول الحق، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامَتْ باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلَّ على هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تَلِدُ ولدَها كاملَ الخِلْقةِ سليماً من الآفات، فلو تُرِكَ على أصل تلك الخِلْقةِ لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتُجدَعُ أذنُه ويُوسَمُ وجهُه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائصُ فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأوَّل موافقٌ له في المعنى، وأنَّ ذلك بعد الإدراك حين عقَلوا أمر الدنيا، وتأكَّدت حُجَّةُ الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبرِّ والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عمِلَتْ أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعَتْهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً في الجنة، أعني جميعَ الأطفال؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا أخرجَ ذريةَ آدمَ من صلبه في صورة الذَّرِّ أقرُّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم أعادهم في صُلبِ آدم بعد أن أقرُّوا له بالرُّبوبية، وأنه اللهُ لا إله غيرُه، ثم يُكتَبُ العبدُ في بطن أمِّه شقيًّا أو سعيداً على الكتاب الأوَّل، فمن كان في الكتاب الأوَّل شقيًّا عُمِّرَ حتى يجري عليه القلمُ، فينقضَ الميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوَّلِ سعيداً عُمِّر حتى يجري عليه القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومن ماتَ صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلمُ فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فماتَ قبل أن يجري عليه القلم، فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أُخِذَ عليهم في صُلب آدم ولم ينقُضِ الميثاق. ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئِلَ عن أولاد

المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[١] يعني: لو بلغوا.

ودلَّ على هذا التأويل أيضاً حديثُ البخاريِّ[٢] عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبي ﷺ... الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأمَّا الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإبراهيمُ عليه السلام، وأما الوِلدانُ حولَه فكلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة». قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشركين». وهذا نصٌّ يرفع الخلاف، وهو أصحُّ شيءٍ رُوي في هذا الباب، وغيرُه من الأحاديث فيها عِلَلٌ وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء. قاله أبو عمر بن عبد البر[٣]. وقد رُوِيَ من حديث أنس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «لم تكُنْ لهم حسناتٌ فيُجْزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئاتٌ فيُعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خَدَمٌ لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلاَّم في التفسير له[٤]. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة»[٥]، وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدَّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مواتياً أو متقارباً - أو كلمة تشبه هاتين - حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرتُه لابن المبارك، فقال: أيسكتُ الإنسانُ على الجهل؟ قلتُ: فتأمرُ بالكلام؟ قال: فسكت[٦]. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣٤)، والبخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٣٢٥)، والبخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في صحيحه (٧٠٤٧)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٤)، وقد سلف بعضه ٢/ ٣٤٩.

(٣) في التمهيد ١٨/ ١١٨ و١٣٠.

(٤) وأخرجه الطيالسي (٢١١١)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٠٨ من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس ﷺ، به. يزيد الرقاشي: هو ابن أبان، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٥) ص ٥١١ - ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٣١.

﴿عَلَيْهَا﴾: هي الفقر والفاقة. وهذا حسن؛ فإنه منذُ وُلِدَ إلى حين يموت فقيرٌ محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الفطرةُ لا تبديلَ لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمرُ على خلاف هذا بوجه، أي: لا يشقى مَنْ خَلَقَه سعيداً، ولا يسعَدُ مَنْ خَلَقَه شقيًّا. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديلَ لدين الله. وقاله قتادة وابن جُبير والضحَّاك وابن زيد والنَّخَعيّ؛ قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: ورُوي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أنَّ المعنى: لا تغييرَ لخلق الله من البهائم أن تُخصى فحولُها، فيكون معناه النهيَ عن خِصاء الفحول من الحيوان[١]. وقد مضى هذا في «النساء»[٢]. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك القضاء المستقيم. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحسابُ البيِّن[٣]. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: دينُ الإسلام هو الدينُ القيِّمُ المستقيم[٤]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيعلمون أنَّ لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حُكمُه.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختُلِفَ في معناه، فقيل: راجعينَ إليه بالتوبة والإخلاص[٥]. وقال يحيى بن سلاَّم والفرَّاء: مُقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مُطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأَسْلَت:

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٢ ، وقول مجاهد ومن وافقه أخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٤٩٤ - ٤٩٦ ، وكذلك أخرج القول الذي يليه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٢) ٧/ ١٤٧ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٤٣٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣ .

فإن تابوا فإنَّ بني سُلَيمٍ وقومَهُمُ هوازِنَ قد أنابوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب ثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماورديُّ[١]: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أنَّ أصلَه القطع، ومنه أُخِذَ اسمُ النَّاب؛ لأنه قاطع، فكأنَّ الإنابةَ هي الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع، مأخوذٌ من نابَ ينوبُ إذا رجع مرةً بعد أخرى، ومنه النَّوْبة؛ لأنها الرجوعُ إلى عادة. الجوهري[٢]: وأناب إلى الله: أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبَتُك ونيابتُك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره.

وانتصب على الحال؛ قال محمد بن يزيد: لأنَّ معنى: «أَقِمْ وَجْهَكَ»: فأقيموا وجوهَكم منيبين. وقال الفرَّاء: المعنى: فأقِمْ وجهَكَ ومَنْ معكَ منيبين[٣]. وقيل: انتصبَ على القطع، أي: فأقِمْ وجهَكَ أنتَ وأمتكَ المنيبين إليه؛ لأنَّ الأمرَ له أمرٌ لأُمَّته، فَحسُنَ أن يقول: منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٤] [الطلاق: ١]. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وامتثِلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيَّن أنَّ العبادة لا تنفع إلَّا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء»[٥] و«الكهف»[٦]. وغيرهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تأوَّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣١٣، وما قبله منه.

(٢) في الصحاح (نوب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٥.

(٥) ٦/ ٢٩٧ فما بعد.

(٦) ١١/ ٢٠٦ فما بعد.

أهل الأهواء والبِدَع[١]. وقد مضى في الأنعام[٢] بيانُه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرَّقوا دينَهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى[٣]. وقاله قتادة ومَعْمَر[٤].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليُّ بن أبي طالب[٥]، أي: فارقوا دينَهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد[٦]. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً. قاله الكَلْبيُّ. وقيل: أدياناً. قاله مقاتل. ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورونَ مُعجَبون[٧]؛ لأنهم لم يتبيَّنوا الحقَّ وعليهم أن يتبيَّنوه[٨]. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض[٩]. وقول ثالث: أنَّ العاصي لله عزَّ وجلَّ قد يكون فَرِحاً بمعصيته، فكذلك الشيطانُ وقُطَّاعُ الطريق وغيرُهم، والله أعلم. وزعم الفرَّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينَهم ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحَّاس[١٠]: وإذا كان متَّصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولو كان بلا حرف لجاز.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٢) ٩/ ١٣٣ فما بعد.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٩٨ عن قتادة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٢٧٤ ، والتيسير ص ١٠٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٤ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦١ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ ، وما قبله منه. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: قَحْطٌ وشِدَّة[(١)] ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مُقبِلين عليه بكلِّ قلوبهم لا يشركون[(٢)]. ومعنى هذا الكلام التعجُّب؛ عجب نبيَّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحُججِ عليهم؛ أي إذا مسَّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرضٍ وشدَّةٍ دَعَوْا ربَّهم، أي: استغاثوا به في كشف ما نزلَ بهم، مُقبلين عليه وحدَه دون الأصنام؛ لعلمهم بأنَّه لا فَرَج عندها. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: عافية ونعمة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: هي لامُ كي. وقيل: هي لامُ أمرٍ فيه معنى التهديد، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[(٣)] [الكهف: ٢٩]. ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[(٤)]. وفي مصحف عبد الله: «وَليتَمتَّعُوا»[(٥)]، أي: مكَّناهم من ذلك لكي يتمتَّعوا، فهو إخبارٌ عن غائب، مثل: «لِيَكْفُرُوا». وهو على خطِّ المصحف خطابٌ بعد الإخبار عن غائب، أي: تمتَّعوا أيها الفاعلون لهذا[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ استفهامٌ فيه معنى التوقيف. قال الضحَّاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢٢، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

«سُلْطَاناً» أي: كتاباً(١). وقاله قتادة والربيع بن أنس(٢). وأضافَ الكلامَ إلى الكتاب توسُّعًا. وزعم الفرَّاءُ أنَّ العربَ تؤنِّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليكَ السلطانُ. فأما البصريون فالتذكيرُ عندهم أفصحُ، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائزٌ؛ لأنه بمعنى الحجة(٣)، أي: حُجَّةٌ تنطقُ بشِرْكِكم. قاله ابن عباس والضحَّاك أيضاً(٤). وقال عليُّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سَليط؛ مثل رَغيف ورُغْفان، فتذكيرُه على معنى الجمع، وتأنيثُه على معنى الجماعة(٥). وقد مضى في «آل عمران»(٦) الكلامُ في السلطان أيضاً مستوفى. والسلطان: ما يدفعُ به الإنسانُ عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ يعني الخِصْبَ والسَّعةَ والعافية. قاله يحيى بن سلاَّم. النَّقَّاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعَة. والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بالرحمة. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاءٌ وعقوبة. قاله مجاهد. السُّدِّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفَرَج. قاله الجمهور. وقال الحسن: إنَّ القنوطَ تركُ فرائضِ الله سبحانه وتعالى في السرِّ(٧). قَنِطَ يَقْنَطُ، وهي قراءة العامَّة. وقَنَطَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٤ عن قتادة، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٠٠.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤.
(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٢ من غير نسبة.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.
(٦) ١/ ٣٥٧.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٥.

يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب(١). وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِطُ» بالكسر فيهما، مثل حَسِبَ يَحْسِبُ. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدَّة، ويبطَر عند النعمة، كما قيل:

كحمارِ السَّوءِ إن أعلَفْتَهُ رَمَحَ الناسَ(٢) وإن جاعَ نَهَقْ(٣)

وكثيرٌ ممن لم يرسُخِ الإيمانُ في قلبه بهذه المثابة، وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربَّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدَّة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعُ الخير في الدنيا لمن يشاء ويُضيِّق لمن يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل**:

الأولى ـ لمَّا تقدَّم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِرُ أمرَ مَنْ وسَّعَ عليه الرزقَ أن يُوصِلَ إلى الفقير كفايتَه؛ ليمتحِنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمرادُ هو وأمتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمرَ بإيتاء ذي القربى؛ لِقُرْب رَحِمِه، وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلةُ الرِّحِم. وقد

(١) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) أي: ضرب الناس بحافره. اللسان (رمح).

(٣) قائله مسكين الدارمي، وهو في الشعر والشعراء ص ٥٤٤، وبهجة المجالس ١/ ١٠٤، وخزانة الأدب ٣/ ٧٠.

فضَّل رسولُ الله ﷺ الصدقةَ على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنَّكِ لو أعطيْتِها أخوالَكِ كان أعظَمَ لأجْرِك»[1].

الثانية ـ واختُلِفَ في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخةٌ بآية المواريث. وقيل: لا نسخَ، بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح.

قال مجاهد وقتادة: صِلةُ الرَّحِم فرضٌ من الله عزَّ وجلَّ، حتى قال مجاهد: لا تُقبَلُ صدقةٌ من أحدٍ ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المرادُ بالقربى أقرباءُ النبيِّ ﷺ[2]. والأوَّل أصحُّ؛ فإنَّ حقَّهم مُبيَّنٌ في كتاب الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: إنَّ الأمرَ بالإيتاء لذي القُربى على جهة النَّدب. قال الحسن: «حقَّه» المواساة في اليسر، وقولٌ ميسورٌ في العسر[3]. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعِم السائلَ الطوَّاف[4]. «وابن السبيل»: الضيف[5]، فجعل الضيافةَ فرضاً، وقد مضى جميعُ هذا مبسوطاً مُبيَّنًا في مواضعه[6]، والحمد لله.

الثالثة ـ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساك إذا أُريدَ بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدَّم في «البقرة»[7] القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٢٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٦.

(٦) ٢/ ٢٣٢ و٣/ ٥٩ و١٠/ ٢١ - ٢٢.

(٧) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

فيه أربع مسائل:

الأولى - لمَّا ذكر ما يُراد به وجهُه ويُثيبُ عليه ذكرَ غيرَ ذلك من الصفة وما يُراد به أيضاً وجهُه.

وقرأ الجمهور: «آتَيْتُمْ» بالمدِّ بمعنى: أعطيتُم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ، بمعنى: ما فعلتُم من ربًا ليَرْبُو؛ كما تقول: أتيتُ صواباً وأتيتَ خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والربا الزيادة[1]. وقد مضى في «البقرة» معناه[2]، وهو هناك مُحرَّمٌ وها هنا حلال. وثبتَ بهذا أنه قسمان: منه حلالٌ ومنه حرام[3]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: الرِّبا رِبَوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الرِّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يُلتمس ما هو أفضلَ منه. وعن الضحَّاك في هذه الآية: هو الرِّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثابَ ما هو أفضلُ منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجرٌ وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريدُ هديةَ الرجلِ الشيءَ يرجو أن يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يُؤجَرُ صاحبه، ولكن لا إثمَ عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية[4]. قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آيةٌ نزلت في هِبة الثواب. قال ابن عطية[5]: وما جرى مجراها ممَّا يصنعه الإنسان لِيُجازى عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثمَ فيه فلا أجرَ فيه ولا زيادةَ عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي[6]. وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدمَ وفدُ ثَقيفٍ على رسول الله ﷺ ومعهم هديَّةٌ فقال: «أهديةٌ أم صدقة؟ فإن كانت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وقراءة الجمهور وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص٣٠ .

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧٩ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٩ .

هديةً فإنَّما يُبْتَغَى بها وجهُ رسولِ الله ﷺ وقضاءُ الحاجة، وإن كانت صدقةً فإنما يُبْتَغى بها وجهُ الله عزَّ وجلَّ» قالوا: لا بل هدية. فقَبِلها منهم، وقعدَ معهم يُسائلهم ويسألونه[١]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قومٍ يُعطون قراباتِهم وإخوانَهم على معنى نفْعِهم وتمويلِهم والتفضُّلِ عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجهِ النفع لهم. وقال الشَّعبيُّ: معنى الآية: أنَّ ما خدمَ الإنسانُ به أحداً وخفَّ له لينتفع به في دنياه فإنَّ ذلك النفعَ الذي يَجزي به الخدمةَ لا يربو عند الله[٢]. وقيل: كان هذا حراماً على النبيِّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] فنهى أن يُعطى شيئاً فيأخذَ أكثرَ منه عِوضاً[٣]. وقيل: إنَّه الربا المحرَّم[٤]، فمعنى: «لا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يُحكَمُ به لآخذِه، بل هو للمأخوذِ منه[٥]. قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش[٦].

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمَنْ يَهبُ يطلُبُ الزيادة من أموال الناس في المكافأة[٧]. قال المُهَلَّب: اختلفَ العلماءُ فيمن وَهَب هبةً يطلبُ ثوابَها وقال: إنما أردتُ الثواب، فقال مالكٌ: يُنظَرُ فيه؛ فإن كان مثلُه ممن يطلبُ الثوابَ من الموهوبِ له فله ذلك، مثلُ هبة الفقير للغنيِّ، وهبةُ الخادم لصاحبه، وهبةُ

(١) سنن النسائي ٦/ ٢٧٩ ، وسنن النسائي الكبرى (٦٥٥٧) من طريق أبي حذيفة، عن عبد الملك بن محمد بن نُسَير، عن عبد الرحمن بن علقمة، به. أبو حذيفة وعبد الملك مجهولان فيما ذكره الحافظ في التقريب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٤ عن الحسن البصري.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٠ .

الرجل لأميره ومَن فوقه. وهو أحد قَولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط. وهو قول الشافعيِّ الآخر؛ قال: والهبةُ باطلةٌ لا تنفعه؛ لأنها بيعٌ بثمنٍ مجهول. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوع الهبة التبرُّع، فلو أوجَبْنا فيها العِوضَ لَبطلَ معنى التبرُّعِ وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرَّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظَ البيع على ما يُستَحقُّ فيه العِوَض، والهبةُ بخلاف ذلك. ودليلُنا ما رواه مالك في «موطَّئه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما رجلٍ وهَبَ هبةً يرى أنها للثواب فهو على هِبته حتى يرضى منها[(١)]. ونحوه عن عليٍّ ﷺ قال: المواهبُ ثلاثةٌ: مَوْهبةٌ يُرادُ بها وجهُ الله، وموهبةٌ يُرادُ بها وجوهُ الناس، وموهبةٌ يُرادُ بها الثواب؛ فموهبةُ الثواب يرجع فيها صاحبُها إذا لم يُثَبْ منها[(٢)]. وترجم البخارِيُّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساقَ حديث عائشة قالت: كانَ رسول الله ﷺ يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها[(٣)]. وأثابَ على لِقْحةٍ[(٤)] ولم يُنْكِرْ على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي[(٥)].

الثالثة ـ ما ذكره عليٌّ ﷺ وفصَّله من الهبة صحيح، وذلك أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها ـ أن يُريدَ بها وجهَ الله تعالى ويبتغي عليها الثوابَ منه. والثاني ـ أن يُريدَ بها وجوهَ الناس رياءً؛ ليحمدوه عليها، ويُثنوا عليه من أجلها. والثالث ـ أن يُريد بها الثوابَ من الموهوب له، وقد مضى الكلامُ فيه. وقال ﷺ: «الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[(٦)]. فأمَّا إذا أراد بهبتِه وجهَ الله تعالى، وابتغى عليه الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٥٤.

(٢) أخرجه مالك في المدونة الكبرى ٦/ ١٠٩ و١٤١.

(٣) صحيح البخاري (٢٥٨٥)، وهو في مسند أحمد (٢٤٥٩١).

(٤) جمع لقاح: وهي ذوات الألبان من النوق. اللسان (لقح).

(٥) في سننه (٣٩٤٥)، وهو في مسند أحمد (٧٩١٨).

(٦) سلف ٣/ ٢٧٠.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك مَنْ يصِلُ قرابتَه ليكون غنيًّا حتى لا يكون فقيراً(١) كَلَّا فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهرَ بذلك ديناً فليس لوجه الله، وإن كان لِما له عليه من حقِّ القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأمَّا من أراد بهبتِه وجوهَ الناس رياءً ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها، فلا منفعةَ له في هبته، لا ثوابَ في الدنيا ولا أجرَ في الآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيـــــة: [البقرة: ٢٦٤].

وأمَّا مَنْ أراد بهبته الثوابَ من الموهوب له فله ما أرادَ بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يُثَبْ بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرضَ منها بأزْيَدَ من قيمتها، على ظاهر قول عمرَ وعليٍّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أنَّ الهبةَ ما كانت قائمةَ العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوعُ فيها وإن أثابه الموهوبُ فيها أكثرَ منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمةَ العين لم تتغيَّر فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمةُ كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فَوْتِ الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً. قاله ابن العربي(٢).

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القرَّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافعٌ وحده: بضمِّ التاء [والواو] ساكنةٌ على المخاطبة، بمعنى: تكونوا ذَوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتُنا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث(٣). ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يُثيبُ عليه؛ لأنه لا يقبلُ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه وكان خالصاً له، وقد تقدَّم في

(١) كلمة فقيراً من (ظ).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩، وما بين حاصرتين ليس فيه ولا في النسخ، وهو من زاد المسير ٦/ ٣٠٤. وقراءة نافع في السبعة ص ٥٠٧، والتيسير ص ١٧٥. وقراءة أبي مالك شاذة.

«النساء»[(١)]. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من صدقة[(٢)]. ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرةَ أضعافه أو أكثر، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقلْ: فأنتم المضعفون؛ لأنه رجعَ من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وفي معنى المُضْعِفِين قولان: أحدهما ـ أنه تُضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أُضِعفَ لهم الخير والنعيم، أي: هم أصحابُ أضعاف، كما يُقال: فلانٌ مُقْوٍ إذا كانت إبِلُه قويةً، أَوْلَه أصحابٌ أقوياء[(٣)]. ومُسْمِنٌ إذا كانت إبلُه سِماناً، ومُعْطِشٌ إذا كانت إبلُه عِطاشاً، ومُضعِفٌ إذا كانت إبلُه ضعيفةً؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخبيثِ المُخْبِثِ الشيطانِ الرجيم»[(٤)]. فالمُخبِثُ: الذي أصابه خبث، يقال: فلانٌ رديء أي هو رَدِيء في نفسه. ومُرْدِئ: أصحابُه أردِئاء[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاج على

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، والطبري ١٨/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. قال البوصيري: إسناده ضعيف؛ قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خبرٍ عبيد الله ابن زَحر وعلي بن يزيد والقاسم، فذاك مما عملته أيديهم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ ببعضه.

المشركين، وأنه الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا يفعل. ثم نزَّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضاف الشركاءَ إليهم لأنهم كانوا يسمُّونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ اختلف العلماء في معنى الفسادِ والبرِّ والبحر، فقال قتادة والسُّدِّي: الفساد: الشرك، وهو أعظم الفساد[(١)]. وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد: فسادُ البرِّ قتلُ ابنِ آدم أخاه؛ قابيلُ قتلَ هابيل. وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً[(٢)]. وقيل: الفسادُ: القحطُ وقِلَّةُ النبات وذهابُ البركة[(٣)]. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصانُ البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحّاس: وهو أحسن ما قيل في الآية[(٤)]. وعنه أيضاً: أنَّ الفساد في البحر: انقطاعُ صيدِه بذنوب بني آدم[(٥)]. وقال عطية: فإذا قلَّ المطرُ قَلَّ الغَوْصُ عنده، وأخفقَ الصيادون، وعميت دوابُّ البحر[(٦)]. وقال ابن عباس: إذا مطرتِ السماءُ تفتحتِ الأصدافُ في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ[(٧)]. وقيل: الفسادُ: كسادُ الأسعار وقِلَّةُ المعاش. وقيل: الفسادُ: المعاصي وقطعُ السبيل والظلم[(٨)]، أي: صار

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٤، والطبري ١٨/ ٥١١ - ٥١٢ عن مجاهد، وهو كذلك في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٣٥، والوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٦ مختصراً، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

هذا العملُ مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كلُّه متقارب. والبرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العُبَّاد: أنَّ البرَّ اللسانُ، والبحرَ القلبُ؛ لظهور ما على اللسان وخفاءِ ما في القلب. وقيل: البَرُّ: الفَيافي، والبحر: القُرى. قاله عكرمة. والعرب تسمِّي الأمصارَ البحار. وقال قتادة: البَرُّ: أهل العمود، والبحر: أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إنَّ البرَّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شطِّ نهر[1]. وقاله مجاهد؛ قال: أَمَا واللهِ ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهي بحر[2]. وقال معناه النحَّاس؛ قال: في معناه قولان: أحدهما ـ ظهر الجَدْب في البر، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أي: ظهر قِلَّةُ الغيث وغلاءُ السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾ أي: عقاب بعض ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه أظهرتِ المعاصي مِنْ قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوَّلُ مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذفٌ واختصارٌ دَلَّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرتِ المعاصي في البَرِّ والبحر، فحبس اللهُ عنهما الغيثُ، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقابَ بعضِ الذي عملوا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّهم يتوبون[3]. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لأنَّ معظمَ الجزاء في الآخرة.

والقراءة «لِيُذِيقَهُمْ» بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم، أي: نُذيقهم عقوبةَ بعض ما عملوا[4].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) أخرجه الطبري ٣/ ٥٨٣ و١٨/ ٥١٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣١).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٦ عنهم وعن عكرمة وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ عن قنبل والسلمي والأعرج. ورواية قنبل عن ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧، والتيسير ص ١٧٥. وقراءة يعقوب وهو من العشرة في رواية روح عنه في النشر ٢/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض ليعتبروا بمَنْ قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبةُ مَنْ كذَّب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين فأُهلِكوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجَّاج: أي: أقِمْ قصدَك، واجعل جهتَك اتِّباعَ الدّين القيِّم، يعني الإسلام[١]. وقيل: المعنى: أوضحِ الحقَّ، وبالِغْ في الإعذار، واشتغِلْ بما أنت فيه، ولا تحزَنْ عليهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يردُّه الله عنهم، فإذا لم يرُدَّه لم يتهيَّأْ لأحدٍ دفْعُه. ويجوز عند غير سيبويه «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ» وذلك عند سيبويه بعيد، إلَّا أن يكون في الكلام عطف[٢]. والمراد يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: يتفرَّقون. وقال الشاعر:

وكُنَّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا

أي: لن يتفرَّقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير[٣]. والأصل يتصدَّعون، ويقال: تصدَّع القومُ إذا تفرَّقوا؛ ومنه اشتُقَّ الصُّداعُ؛ لأنه يُفرِّق شُعَبَ الرأس[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٨ - ٣١٩، والبيت قائله متمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٧، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨، والكامل ٣/ ١٤٤٠، وبهجة المجالس ٢/ ٨٠٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره[(١)]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح[(٢)]. ومنه: مهدُ الصبيِّ. والمهادُ: الفراشُ، وقد مَهَدْتُ الفراشَ مَهْدًا: بسطتُه ووطّأتُه. وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها. وتمهيدُ العُذرِ: بسطُه وقبولُه. والتمهُّد: التمكُّن[(٣)]. وروى ابن أبي نَجيحٍ عن مجاهد: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر[(٤)].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يَمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصَّدَّعون ليجزيهم الله، أي: ليميِّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسالُ الرياح مبشِّراتٍ، أي: بالمطر لأنها تتقدَّمه[(٥)]. وقد مضى في «الحِجر»[(٦)] بيانه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب[(٧)]. ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: في البحر عند هبوبها. وإنما زاد «بِأَمْرِهِ» لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بُدَّ من إرساء

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤ ، وزاد المسير ٦/ ٣٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٩ عن يحيى بن سلام.

(٣) الصحاح (مهد).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٦ - ٥١٧ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧ ، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٥٥).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥ .

(٦) ١٢/ ١٩٤ .

(٧) الوسيط ٣/ ٤٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ٣٠٨ .

السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتْها بأمره. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الرزق بالتجارة[١] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلُّه مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات والحجج النيِّرات ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ أي: فكفروا فانتقمنا ممَّن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «حقًّا» نصب على خبر كان، و«نصر» اسمها[٢]. وكان أبو بكر يقف على «حَقًّا» أي: وكان عقابُنا حقًّا، ثم قال: «علينا نصرُ المؤمنين» ابتداء وخبر[٣]؛ أي: أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا.

ورُويَ من حديث أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ يَذُبُّ عن عرضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على اللهِ تعالى أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة» ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ذكره النحَّاس والثعلبيُّ والزّمخشريُّ وغيرهم[٤].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن مُحيصن وابن كثير وحمزة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٥ بمعناه.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦، والكشاف ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦. وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٣٤) والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٦ من طريق ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ﷺ، به. ليث وشهر ضعيفان. وهو في مسند أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية.

والكسائي: «الريح» بالتوحيد. والباقون بالجمع[١]. قال أبو عمرو: وكلُّ ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحَّد[٢]. وقد مضى في «البقرة»[٣] معنى هذه الآية وفي غيرها.

«كِسَفًا» جمع كِسْفة: وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسْفًا» بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كِسْفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المُضمَرُ الذي بعده عائداً عليه، أي: فترى الودقَ ـ أي المطر ـ يخرج من خلال الكِسَف؛ لأنَّ كلَّ جَمْعٍ بينه وبين واحده الهاء لا غير، فالتذكيرُ فيه حَسَن. ومن قرأ: «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائدٌ على السحاب. وفي قراءة الضحَّاك وأبي العالية وابن عباس: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ» ويجوز أن يكون خَلَل جمعَ خِلال[٤]. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم[٥].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين قد ظهر الحزنُ عليهم لاحتباس المطرِ عنهم[٦]. و«مِنْ قَبْلِهِ» تكريرٌ عند الأخفش معناه التأكيد، وأكثر النَّحويين على هذا القول. قاله النحَّاس. وقال قُطْرُب: إن «قبل» الأولى للإنزال

---

(١) السبعة ص ١٧٢، والتيسير ص ٧٨ سوى قراءة ابن محيصن.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣ دون نسبة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١٩ ونسبه إلى أبي بن كعب ﷺ.

(٣) ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧. وقراءة: «كِسْفاً» بسكون السين عن ابن عامر برواية هشام عنه في السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ وعن أبي جعفر وهو من العشرة في النشر ٢/ ٣٤٥. وقراءة: «يخرج من خَلَلِهِ» في المحتسب ٢/ ١٦٤ عن ابن عباس والضحاك والحسن، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ بمثله وزاد في نسبتها إلى علي، وزاد المسير ٦/ ٣٠٩ عن ابن عباس وأبي العالية وزاد في نسبتها إلى ابن مسعود ومجاهد، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢١.

والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلَّ على الزرع المطرُ؛ إذ بسببه يكون. ودلَّ عليه أيضاً ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ على ما يأتي. وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. واختار هذا القول النحّاس، أي: من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: ليائسين. وقد تقدَّم ذِكْرُ السَّحاب[١].

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر[٢]، أي: انظروا نظرَ استبصارٍ واستدلال، أي: استدِلُّوا بذلك على أنَّ من قدِرَ عليه قادرٌ على إحياء الموتى.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: «آثَارِ» بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضافٌ إلى مفرد. والأثرُ فاعل «يُحْيي»، ويجوز أن يكون الفاعلُ اسمَ الله عزَّ وجلَّ. ومن قرأ: «آثَارِ» بالجمع فلأنَّ رحمةَ الله يجوز أن يُرادَ بها الكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣] [إبراهيم: ٣٤]. وقرأ الجَحدرِيُّ وأبو حَيوة وغيرهما: «كَيْفَ تُحْيي الأرضَ» بتاء، ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأنَّ أثرَ الرحمة يقومُ مقامَها فكأنه هو الرحمة، أي: كيفَ تُحيي الرحمةُ الأرضَ أوِ الآثارُ. و«يُحيي» أي: يُحيي اللهُ عزَّ وجلَّ، أو المطرُ أو الأثرُ فيمن قرأ بالياء. و﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ في موضع نصبٍ على الحال على الحمل على المعنى؛ لأنَّ اللفظَ لفظُ الاستفهام، والحالَ خبرٌ؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله مُحيِيةً للأرض بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٦٨ - ٢٦٩ دون قوله: وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث... إلى قوله: على ما يأتي. وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/٦٥٨ . وذكر السحاب سلف ٢/٥٠٢ - ٥٠٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/٣٤٢ .

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/٤٤٨ - ٤٤٩ ، وينظر السبعة ص ٥٠٨ ، والتيسير ص ١٧٥ .

موتها[١]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيرُه. قال محمد بن يزيد: لا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنثٍ غيرِ حقيقي، نحو أعجبني الدارُ وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر. والمعنى: فرأوا الأثرَ مصفرًّا، واصفرارُ الزرعِ بعد اخضراره يدلُّ على يبسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح. ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لَيَظَلُّنَّ؛ وحَسُنَ وقوعُ الماضي في موضع المستقبل لِما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكونُ إلَّا بالمستقبل. قاله الخليل وغيره[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وَضَحتِ الحُججُ يا محمد؛ لكنَّهم لإِلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولُهم وعمِيت بصائرُهم، فلا يتهيَّأ لكَ إسماعُهم وهدايتُهم. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: لا تُسمع مواعظَ الله إلَّا المؤمنين الذين يُصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهدايةَ. وقد مضى هذا في «النمل»[٣] ووقع قولُه ﴿بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ﴾ هنا بغير ياء[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، ونسب قراءة: «كيف تُحيي الأرض» أيضاً إلى محمد بن السَّميفع، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣١٠ ونسبها إلى عثمان بن عفان وأبي رجاء وأبي عمران الجوني وسليمان التيمي، وهي قراءة شاذة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ – ٢٧٧ دون قوله: واصفرار الزرع... إلى قوله: لا تلقح.

(٣) ١٦/ ٢٠٧.

(٤) الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٥٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: «مِنْ ضَعْفٍ» من نطفةٍ ضعيفة. وقيل: «مِنْ ضَعْفٍ» أي: في حال ضعف، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعن الهرم[١].

وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهنَّ، الباقون بالضم، لغتان، والضمُّ لغة النبيِّ ﷺ[٢]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ» بالفتح فيهما، «ضُعْفًا» بالضمِّ خاصةً؛ أراد أن يجمع بين اللغتين[٣]. قال الفرَّاء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم[٤]. الجوهري: الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوّة[٥]. وقيل: الضَّعفُ بالفتح في الرأي، وبالضمِّ في الجسد[٦]؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يُخدَعُ في البيوع... أنه يبتاع وفي عقُدَتِه ضُعف[٧].

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من قوَّةٍ وضعف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على إرادته.

وأجاز النَّحْويون الكوفيون «من ضَعَفٍ» بفتح العين، وكذا كلُّ ما كان فيه حرفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٥ - ٥٢٦ بمعناه.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٥٠، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن الجحدري وأبي عبد الرحمن والضحاك عكس ذلك بأنهم ضمُّوا الضاد في الأول والثاني وفتحوا «ضعفاً».

(٤) زاد المسير ٣/ ٣٧٨.

(٥) الصحاح (ضعف).

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٤٨٢.

(٧) سلف ٤/ ٤٣٥ و٦/ ٦٦.

من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون[٢]. ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ ليس في هذا ردٌّ لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من غير طريقٍ أنه تعوَّذ منه، وأمر أن يُتعوَّذ منه، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيُّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، ولكن سلِيه أن يُعيذَكِ من عذاب جهنَّم وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرَّجها البخاريُّ ومسلم وغيرهما[٣]. وقد ذكرنا منها جملةً في كتاب «التذكرة»[٤].

وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بُدَّ من خمدةٍ قبل يوم القيامة، فعلى هذا قالوا: ما لَبِثنا غيرَ ساعةٍ. والقول الآخر ـ أنهم يَعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيبٍ وعلى غيرِ ما يدرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذِّبون في الدنيا[٥]؛ يقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصِّدقِ والخير، وأرضٌ مأفوكة: ممنوعةٌ من المطر[٦].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩، والحديث الذي ذكره المصنف أخرجه أحمد (٣٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦٣). ووقع في النسخ سوى (ظ): خرجها مسلم والبخاري وغيرهما.

(٤) ص ١١٥ و١٤٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

وقد زعمَ جماعةٌ من أهل النظر أنَّ القيامة لا يجوز أن يكون فيها كَذِبٌ لما هم فيه، والقرآن يدلُّ على غير ذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كما صُرِفوا عن الحقِّ في قَسَمِهم أنهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُصرفون عن الحقِّ في الدنيا، وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ﴾[1] [الأنعام: ٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ اختُلِفَ في الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة. وقيل: جميع المؤمنين[2]. أي: يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم: لقد لبِثْتم في قبوركم إلى يوم البعث[3]. والفاء في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم مُنكرين البعث فهذا يوم البعث[4]. وحكى يعقوب عن بعض القُرَّاء ـ وهي قراءة الحسن ـ «إلى يوم البَعَث» بالتحريك، وهذا ممَّا فيه حرفٌ من حروف الحلْق[5]. وقيل: معنى ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ: لقد

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ ببعضه.

(٢) زاد المسير ٥/ ٩٧ و٦/ ٣١٢ و٧/ ٤٠٢، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢. وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ القول الأول ونسبه للكلبي.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٧.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ دون نسبة القراءة إلى الحسن، وقد نُسبت إليه في المحتسب ٢/ ١٦٦، والكشاف ٣/ ٢٢٧، وهي قراءة شاذة.

لبثتُم إلى يوم البعث. قاله مقاتل وقتادة والسُّدِّي[١]. القشيري: وعلى هذا «أُوتُوا الْعِلْمَ» بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذارُ يومئذٍ[٣]. وقيل: لمَّا ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يُعذَروا .﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالُهم حالُ من يَستعتِبُ ويَرجع[٤]؛ يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٥]، وذلك إذا كنتَ جانياً عليه، وحقيقةُ أعتبتُه: أزلْتُ عتبَه[٦]. وسيأتي في «فصلت»[٧] بيانُه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كلِّ مَثَلٍ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٢٧ عن قتادة.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) الصحاح (عتب).

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٧) عند تفسير الآية (٢٤).

(٨) السبعة ص ٥٠٩ ، والتيسير ص ١٧٦ .

يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، ويُنبِّههم على التوحيد وصِدْقِ الرسل[١]. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزةٍ، كفلقِ البحر والعصا وغيرهما ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين[٢] ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: تتبعون الباطلَ والسحر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى لا يفهموا الآياتِ عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلَّةَ التوحيد[٣].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم فإنَّ الله ينصرك[٤] ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفِزَّنَّك عن دينك[٥] ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمتُه؛ يقال: استخَفَّ فلانٌ فلاناً أي: استجهلَه حتى حملَه على اتِّباعه في الغيِّ[٦]. وهو في موضع جزمٍ بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنيَ على الفتح كما يُبنى الشيئانِ إذا ضُمَّ أحدُهما إلى الآخر. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع[٧]. وقد مضى في «الفاتحة»[٨].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) الوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٩ .

(٤) مجمع البيان ٢١/ ٤٣ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٢ .

(٦) تهذيب اللغة ٧/ ٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٨) ١/ ٢٢٩ .

تفسير سورة الروم

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ .

[نزلت] (١) هذه الآيات حين غلب (٢) سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل مَلك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل ، كما سيأتى .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس (٣) ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى :﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أدْنَى الأَرْضِ ﴾ قال : غُلِبَت وغَلَبَت . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر (٤) الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر (٥) ذلك لأبى بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون »، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس(٦) سنين، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُون » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ من قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

هكذا رواه (٧) الترمذى والنسائى جميعا ، عن الحسين (٨) بن حُرَيْث ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان بن سعيد الثورى (٩) به، وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « غلبت » . (٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٤) فى ف : « يظهر » . (٥) فى ت : « فذكروه » ، وفى ف ، أ : « فذكروا » . (٦) فى ت : « خمسين » .

(٧) فى ت : « ورواه » . (٨) فى أ : « الحسن » .

(٩) المسند (١/٢٧٦) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصاغانى (١) ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جرير :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن سعيد ـ أو سعيد (٢) الثعلبى الذى يقال له: أبو سعد من أهل طرسوس ـ حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، فذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغنى أنهم غلبوا يوم بدر (٣) .

حديث آخر : قال سليمان بن مِهْران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق، قال : قال عبد اللّه : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه (٤) (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكِيع ، حدثنا المحاربى ، عن داود بن أبى هند ، عن عامر ـ هو الشعبى ـ عن عبد اللّه ـ هو(٦) ابن مسعود رضى اللّه عنه ـ قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : **﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ﴾** قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين ؟! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شىء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذُكِر (٧) ذلك للنبى ﷺ ، فقال :« ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا : دون العشر . قال: « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ،وأنزل اللّه: **﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّوم ﴾** إلى قوله: **﴿[وَعْدَ اللّهِ] (٨) لا يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَه﴾**(٩).

حديث آخر : قال (١٠) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوَكيعى، حدثنا مُؤَمَّل ، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق ، عن البراء ،قال : لما نزلت : **﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾** ، قال المشركون لأبى بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبى . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الرومُ فارسَ ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فساءه ذلك وكرهه ، وقال لأبى بكر : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال : تصديقاً للّه ولرسوله . فقال : « تَعَرَّض لهم وأعظم الخَطَر واجعله إلى بضع سنين » . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم فى العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا:

---

(١) فى أ : « الصنعانى » . (٢) فى ف ، أ : « أبو سعد » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ١٢) .
(٤) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير عن » . (٧) فى ت : « فذكروا » . (٨) زيادة من ت ، أ .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٤) .
(١٠) فى ت : « روى » .

نعم . [قال] (١) : فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارسَ ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » (٢).

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس، أخبرنى ابن أبى الزِّنَاد ، عن عروة بن الزبير (٣) ، عن نِيَار بن مُكْرَم الأسلمى قال : لما نزلت، ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك قول الله : ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾، قال(٤) ناس من قريش لأبى بكر : فذاك بيننا وبينك (٥) . زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضَعُوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تَجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فَسمِّ بيننا وبينك وَسَطاً ننتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : ﴿ **فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾. قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير (٦) .

هكذا ساقه الترمذى ، ثم قال : هذا (٧) حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين ، مثل عِكْرِمة ، والشعبى، ومجاهد ، وقتادة ، والسُّدِّى ، والزهرى ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن داود فى تفسيره حيث قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد الله ، عن عكرمة قال : كانت فى فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلا من بنيك ، فأشيرى عَلَىَّ ، أيَّهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان . وهذا شهريراز (٨)، وهو أحلم من كذا ـ تعنى أولادها الثلاثة ـ فاستعمل أيهم شئت. قال : فإنى قد استعملت الحليم . فاستعمل شهريراز (٩)، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

---

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) ورواه أبو يعلى فى المسند الكبير ،كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق١٨٣ سليمانية) من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعرة ،عن المؤمل بنحوه ، وقال البوصيرى : « وله شاهد من حديث نيار بن مكرم رواه الترمذى » . وهو الآتى بعده .

(٣) فى ت : « رواه أبو عيسى الترمذى » . (٤) فى ت ، ف : « فقال » . (٥) فى ت ، ف : « وبينكم » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٩٤) .

(٧) فى ت : « وقال الترمذى » . (٨ ، ٩) فى ت : « شهريزار » .

قال أبو بكر بن عبد اللّه : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراسانى فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لو رأيتها (١) لرأيت المدائن التى خربت ، والزيتون الذى قطع . فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته (٢) .

قال عطاء الخراسانى : حدثنى يحيى بن يَعْمَر : أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز (٣) ، فالتقيا بأذرعات وبُصرى ، وهى أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم ، فغلبتهم فارس . ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون .

قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب، [ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب] (٤) ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنّ عليكم ، فأنزل اللّه : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ** ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا، ولا يُقرَّن اللّه أعينكم ، فواللّه ليظهرن اللّه الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ . فقام إليه أبيّ بن خلَف فقال : كذبت يا أبا فضيل . فقال له أبو بكر : أنت أكذب ياعدو اللّه . فقال: أناحبُكَ عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتُ ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين . ثم جاء (٥) أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : « ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدْه فى الخَطَر ومادّه فى الأجل » . فخرج أبو بكر فلقى أبيّا فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ،تعال أزايدك فى الخَطَر وأمادُّك فى الأجل ،فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين . قال : قد فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون .

قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز (٦) ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى . فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز (٧) : إذا أتاك كتابى [هذا] (٨) فابعث إلىَّ برأس فرخان .فكتب إليه:أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت فى العدو ، فلا تفعل . فكتب إليه : إن فى رجال فارس خلفاً منه ، فعجّل إلىَّ برأسه. فراجعه ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريدا إلى أهل فارس : إنى قد نزعت (٩) عنكم شهريراز ، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال : إذا ولى فرخان الملك ، وانقاد له أخوه ، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ، ودفع إليه الصحيفة ،قال (١٠) : ائتونى بشهريراز (١١) ، وقَدَّمَه ليضرب عنقه ، قال:لا تعجل [علىَّ] (١٢) حتى أكتب وصيتى، قال : نعم . فدعا بالسَّفط فأعطاه

---

(١) فى ف : « لو أتيتها » .
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢١/ ١٣) من طريق سنيد به .
(٣) فى ت : « شهريزار » ، وفى ف ، أ : « بشهريراز » .
(٤) زيادة من ت ، ف .
(٥) فى ت : « فجاء » .
(٦ ، ٧) فى ت : « شهريزار » .
(٨) زيادة من ف .
(٩) فى ف : « عزلت » .
(١٠) فى ف : « فقال » .
(١١) فى ت : « بشهريزار » .
(١٢) زيادة من ت .

الصحائف[(١)] وقال : كل هذا راجعتُ فيك كسرى ، وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد . فرد الملك إلى أخيه شهريراز [(٢)] ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إن لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصّحف ، فالقنى، ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا ، فإنى ألقاك فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا [(٣)] ترجمانا بينهما ، فقال شهريراز [(٤)] : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حَسَدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى . وقد خلعناه جميعا ، فنحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا . قال : أجل . فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما . [قال] [(٥)]: فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ففرح والمسلمون معه .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء [(٦)] عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان [(٧)] الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية [(٨)] من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها ـ يقال: تَقِيَّة ـ واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا [كثيراً][(٩)] منتشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم [(١٠)] ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ـ يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغَيَّروا دين المسيح، عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق [(١١)] واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس [(١٢)] والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعانين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ، ثم الشمامسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « ثلاث صحائف » . (٢) فى ت : « شهريزار » . (٣) فى ت ، ف : « فدعا» .
(٤) فى ت : « شهريزار » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى أ : « أتباع » .
(٧) فى ف : « وكان » . (٨) فى ت : « القندقانية » ، وفى ف : « الغندقانية » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « جماعته » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « وصلوا إلى الشرق » . (١٢) فى ف ، أ : « والقرابين » .

والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه (١) اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة (٢) محاريب ، وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة » (٣) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّكَ عليهم فى رياسَة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناوأه كسرى ملك الفرس ، ومَلَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكَسَرَه وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من(٤) ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى فى نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا (٥) ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره ، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ،وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركّبه على

---

(١) فى أ : « زمانه » . (٢) فى ف : « بثلاث » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩٢) وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان فى الثقات وباقى رجال الإسناد ثقات » .

(٤) فى ت : « فى » . (٥) فى ت : « الأرض » .

حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخُذه . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد (١) فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل (٢) لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصارى ، وبقى كسرى وجيوشه (٣) حائرين لا يدرون ماذا يصنعون . لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادُهم قد خرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غَلب الروم فارسَ ، وكان ذلك بعد تسع (٤) سنين من غلب الفرس للروم (٥) .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبُصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله (٦) أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البِضْعَ فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ،وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحى ، عن الزهرى ،عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُنَاحَبَة (٧) :﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»،ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٨) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٩) .

وقوله : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قُطع المضاف ، وهو قوله:﴿قبلِ﴾ عن الإضافة ، ونُويت .

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ،وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ،كابن عباس ،والثورى، والسُّدّى ، وغيرهم .وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار ، من حديث الأعمش ، عن عطية (١٠) ، عن أبى سعيد قال : لما

---

(١) فى أ : « فجدّ » . (٢) فى أ : « لا مسلك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وجنوده » .
(٤) فى ت : « ثلاث » . (٥) فى ت ، ف : « من غلب فارس للروم » ، وفى أ : « من غلب فارس الروم » .
(٦) فى ف : « والله » . (٧) فى ت : « مبايعته » .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣١٩١) ،وتفسير الطبرى (٢١/١٢) .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/١٦) .
(١٠) فى ت : « وقد روى مالك » .

كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل الله : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١) .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام (٢) الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم (٣) ، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا ـ وهو بيت المقدس ـ شكراً (٤) الله عز وجل ، ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عَرَب الحجاز ، فأحضرَ له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجىء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فقال لأصحابه ـ وأجلسهم خلفه ـ : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذّبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يَأثُروا علىّ الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مُدّة لا ندرى ما هو صانع فيها ـ يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم (٥) الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفَّى بنذره ، والله أعلم .

والأمر (٦) فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال [الله] (٧) تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ههنا : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صَفْوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أسيد الكلابى ، قال : سمعت (٨) العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/ ١٦).

(٢) فى ف : « يوم » . (٣) فى أ : « وغير واحد » . (٤) فى ت : « تشكراً » .

(٥) فى ت ، ف : « عام » . (٦) فى ت : « فالأمر » . (٧) زيادة من ت .

(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن » .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا (١) الذى أخبرناك به ـ يا محمد ـ من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من اللّه حق ، وخَبَر صدق لا يخلف ، ولابد من كونه ووقوعه ؛ لأن اللّه قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم اللّه فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مُغَفَّل لا ذهن (٢) له ولا فكرة .

قال الحسن البصرى : واللّه لَبَلَغَ (٣) من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى .

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا(٤) أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة (٥) إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل (٦) الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) فى أ : « هو » . (٢) فى أ : « لا ذكر » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « ليبلغ » .

(٤) جميع النسخ : « فيعلموا » وهو خطأ ، والصواب : « فيعلمون » لعدم جواز النصب فيها ؛ لأنها لم تسبق بطلب ، فتكون الفاء ناصبة.

(٥) فى ت : « وأنهما مؤجلين » . (٦) فى ت ، ف ، أ : « والدلالات » .

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم ـ أيها المبعوث إليهم محمد صلوات اللّه وسلامه عليه (١) ـ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم اللّه بذنوبهم ، وما كان لهم من اللّه من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) اللّه ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان اللّه ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات اللّه ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وعلى هذا تكون (٤) السوأى منصوبة مفعولا لأساؤوا . وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ** ﴾ أى : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان . هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم ، وهو الظاهر ، واللّه أعلم ، ﴿ **وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ .

﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ﴾ أى : كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته ، ﴿ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ ، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ قال ابن عباس : ييأس المجرمون .

وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى رواية : يكتئب المجرمون .

﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ** ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

---

(١) فى ت : « ﷺ » . (٢) فى ت : « أمر » . (٣) فى ت ، ف : « وقال » .
(٤) فى ف : « يكون » .
(٥) تفسير الطبرى (١٨/٢١) .
(٦) فى ت : « ومنقول » .

ثم قال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ، قال قتادة : هى ـ واللّه ـ الفرقة التى لا اجتماع بعدها ، يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون.

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله ، قال العجاج :

الحمد (١) للّه الذى أعطَى الحَبَرْ مَوَالِيَ الْحَقّ إن المَوْلى شكَرَ (٢)

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، فالعشاء (٣) هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال : ﴿وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجُهَنى ، عن أبيه (٤) ، عن رسول اللّه ﷺ ، أنه قال: « ألا أخبركم لم سمى اللّه إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شُعَيب الأزدى ، حدثنا عبد اللّه بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن أبيه (٦) ، عن عبد اللّه بن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ.

---

(١) فى ت : « فالحمد » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/١٩) ، ولسان العرب لابن منظور مادة « حبر » .

(٣) فى ت : « فالعشى » . (٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أنس الجهنى » .

(٥) المسند (٣/٤٣٩) .

(٦) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾الآية بكمالها ، أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » . إسناد جيد [١] ، ورواه أبو داود فى سننه [٢].

وقوله :﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ،والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال :﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ ـ ٧] ، وقال :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٥٧] ؛ولهذا قال ههنا :﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تَصوّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا اللّه تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكرة ، والحسن والقبح، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم

---

(١) فى أ : « إسناد ضعيف » ، وهو الصواب .

(٢) المعجم الكبير (١٢/٢٣٩) وسنن أبى داود برقم (٥٠٧٦) .

بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغُنْدَر ،قالا : حدثنا عَوْف ، عن قسامة بن زهير [١]، عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ :« إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك ».

ورواه أبو داود والترمذى من طرق ، عن عوف الأعرابى ، به[٢] . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكُنّ لكم أزواجا ،﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يعنى بذلك: حواء ، خلقها الله من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر . ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] [٣] إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل [٤] يمسك المرأة إما لمحبته لها ،أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله :﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج ، وهؤلاء روم ، هؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بَرْبر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلاَهم ، فجميع أهل الأرض ـ بل أهل الدنيا ـ منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين،

---

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٢) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥) .

(٣) زيادة من ت ، ف .

(٤) فى ت ، ف : « فالرجل » .

وفم وخدان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح (١) ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ أى : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم فى الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ أى : يعون .

قال الطبرانى : حدثنا حجاج بن عمران السدوسى ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلاثة ، حدثنى ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعْدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه (٢) ، عن زيد بن ثابت ، رضى الله عنه ، قال : أصابنى أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حى قيوم، يا حى ياقيوم ، [أنم عينى و] (٣) أهدئ ليلى » فقلتها ، فذهب عنى (٤) .

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ **يُرِيكُمُ الْبَرْقَ** [**خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ أى :] (٥) تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وَميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥]. وفى ذلك عبرة ودَلالَة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا** ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، إذا اجتهد فى اليمين يقول : لا ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى: هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض

(١) فى أ : « قبيح » . (٢) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٣) زيادة من ت ، ف ، ومعجم الطبرانى .

(٤) المعجم الكبير (٥/ ١٢٤) ، ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٤٥) وابن عدى فى الكامل (٥/ ١٥٠) من طريق عمرو بن الحصين به ، وقال ابن عدى : « تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظلم الحديث ، ويروى عن قوم معروفين » . وله شاهد من حديث أنس ، حسنه الحافظ ابن حجر كما فى الفتوحات الربانية لابن علان (٣/ ١٧٧) .

(٥) زيادة من ت .

غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : ملكه وعبيده ، ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً .

وفى حديث دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، مرفوعا : « كل حَرْف فى[1] القرآن يُذكَرُ فيه القنوت فهو الطاعة » [2] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال [على] [3] بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى : أيسر عليه.

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البَدَاءة ، والبداءة عليه هَيْنٌ . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزِّناد ، عن الأعرج [4] ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله : كَذَبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أو الخلق بأهونَ علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » [5] .

انفرد بإخراجه البخارى كما انفرد بروايته ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن همام، عن أبى هريرة ، به [6] . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْر ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه ، أو مثله [7] .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء .

---

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٥)،وتقدم الحديث عند تفسير الآية : ١١٦ من سورة البقرة . قال الحافظ ابن كثير : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى ، أو من دونه ، والله أعلم » .

(٣) زيادة من أ . (٤) فى ت : « وقال البخارى بإسناده » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٥) .

(٧) المسند (٢/ ٣٥٠) .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خُثَيْم . ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كقوله :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقال قتادة : مَثَله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير .

وقد أنشد بعض المُفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إِذَا سَكَنَ الغَدِيرُ عَلَى صَفَاء وَجُنِبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلا امْتِرَاء كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ
كَذَاكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلِّى يُرَى فِى صَفْوِهَا اللَّهُ العَظِيمُ

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾: الذى [1] لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شىء ، وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه،﴿الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شَرْعاً وقَدَرا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾، قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ،ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ،﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى:لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله،فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى :تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مِجْلَز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك [2] ، كذلك الله لا شريك له .

---

(١) فى ت : « أى » . (٢) فى ت : « ذلك » .

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون للّه الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات اللّه ، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات . وجعلوا الملائكة بنات اللّه ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبدهُ شريكَه فى ماله ، يساويه فيه . ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرج الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، حدثنا حماد بن شعيب ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير (١) ، عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك: لبيك اللهم [لبيك] (٢) ، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك. فأنزل اللّه: ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾(٣) .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهاً من أنفسهم وجهلا : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى: فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [أى: فلا أحد يهديهم إذا كَتَب اللّه إضلالهم] (٤) ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة اللّه منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾.

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الذى شرعه اللّه لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك اللّه لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر اللّه الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف :١٧٢]، وفى الحديث : « إنى خلقت

---

(١) فى ت : « روى الطبرانى بإسناده » . (٢) زيادة من ت .
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٢٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٢٣) : « وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

عبادى حُنَفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر فى الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على] (١) الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية (٢) .

وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعى ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد(٣) فى قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى : لدين الله .

وقال البخارى: قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾: لدين الله ، خَلْقُ الأولين : [دين الأولين] (٤) ، والدين والفطرة: الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن (٥) : أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه ، كما تُنتَج البهيمة بهيمة جَمْعاء ، هل تُحِسون فيها من جدعاء » ؟ ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ .

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيْلى ، عن الزهرى ، به (٦). وأخرجاه ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ (٧) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فمنهم الأسودُ بن سَرِيع التميمى . قال (٨) الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن (٩) ، عن الأسود بن سَرِيع [التميمى] (١٠) قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه ، فأصبت ظهرا (١١) ، فقتل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » . فقال رجل: يا رسول الله،أماهم أبناء المشركين ؟فقال :« ألا إنما خياركم أبناء المشركين ».ثم قال: «لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية» . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف : « والنصرانية والمجوسية » . (٣) فى ت : « وسعيد بن جبير وغيرهم » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) فى ت : « ثم روى بسنده » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٨) فى ت : « فروى » . (٩) فى ت : « بإسناده » . (١٠) زيادة من ف .
(١١) فى ت ، ف : « ظفرا » .

ورواه النسائى فى كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هُشَيْم ، عن يونس ـ وهو ابن عبيد ـ عن الحسن البصرى ، به (١) (٢) .

ومنهم جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٣) عنه لسانه إما شاكراً وإما كفورا » (٤) .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (٥) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سُئل عن أولاد المشركين ، فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليَشْكُرِى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا بذلك (٦) .

وقد قال (٧) أحمد أيضا : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أنبأنا عمار بن أبى عمار، عن ابن عباس قال : أتى علىَّ زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثنى فلان عن(٨) فلان : أن رسول الله ﷺ سئل (٩) عنهم فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرنى . فأمسكت عن قولى (١٠) .

ومنهم عياض بن حِمار المجاشعى ، قال (١١) الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مُطَرِّف ، عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « إن ربى ،عز وجل، أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا ، كل مال نحلته عبادى حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله ،عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ،وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك،وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء،تقرؤه نائما ويقظان.

---

(١) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .

(٢) المسند (٣/٤٣٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٦) .

(٣) فى ف : « عرب » .

(٤) المسند (٣/٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢١٨) : « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقية رجاله ثقات » .

(٥) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .

(٦) المسند (١/٣٢٨) وصحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) فى ت ، ف : « ابن » .

(٩) فى أ : « عن رسول الله ﷺ أنه سئل » .

(١٠) المسند (٥/٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(١١) فى ت : « وقال » .

ثم إن اللّه أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذًا يَثْلَغُوا رأسى فيدعوه خبُزَةً . قال [١] : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزك ، وأنفق عليهم فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، الذين هم فيكم تَبَعاً ، لا يبتغون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن[٢] أهلك ومالك » . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش [٣] .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى : التمسك بالشريعة [٥] والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] .

وقوله : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ : قال ابن زيد ، وابن جُرَيْج: أى راجعين إليه ، ﴿وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : خافوه وراقبوه ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير :[حدثنا ابن حُمَيد] [٦] ،حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن يزيد [٧] بن أبى مريم قال : مر عمر ، رضى اللّه عنه ، بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة[٨]؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن [من] [٩] المنجيات : الإخلاص ، وهى الفطرة ،فطرة اللّه التى فَطرَ الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر : صدقت .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، حدثنا أيوب ، عن أبى قِلابَة : أن عمر ، رضى اللّه عنه ، قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه [١٠] .

وقوله :﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » أى: تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعَبَدَة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ،

---

(١) فى ت ، ف : « فقال » . (٢) فى ت : « على » . (٣) فى ت ، ف : « الفاحش » .
(٤) المسند (٤/ ١٦٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(٥) فى ت : « المتمسك بالشرعة » . (٦) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٧) فى أ : « زيد » . (٨) فى ت : « الآية » . (٩) زيادة من ت .
(١٠) تفسير الطبرى (٢١/ ٢٦) .

وهذه الأمة(١) أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة (٢) إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله (٣) ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ، عليه السلام (٤) ، عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « ما أنا عليه [اليوم] (٥) وأصحابى »(٦).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم،إذا فريق منهم ، [أى] (٧) فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله :﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ، هى لام العاقبة عند بعضهم،ولام التعليل عند آخرين،ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك .

ثم توعدهم بقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٨)﴾، قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس دَرْب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا [هو] (٩) الذى يقول للشىء : كن ، فيكون .

ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أى : حجة ،﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أى : ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن [لهم] (١٠) شىء من ذلك .

ثم قال : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو،إلا مَنْ عَصَمه الله ووفقه ؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بَطر وقال :﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قَنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال الله :﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[هود : ١١] ،أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان

---

(١) فى ت : « الآية » . (٢) فى أ : « ضالة » . (٣) فى ف : « رسوله » .
(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٥) زيادة من أ ، والمستدرك .
(٦) المستدرك (١/١٢٨ ، ١٢٩) ،وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف ص (٦٣) : « إسناده حسن » .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت : « يعلمون » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) زيادة من أ .

خيراً له ، وإن أصابته ضَرَّاء [١] صبر فكان خيراً له»[٢].

وقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ أى : من البر والصلة ، ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة [٣] .

ثم قال :﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله ـ بهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى ـ وهذا الصنيع مباح [٤] ، وإن كان لا ثواب فيه [٥] ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك ، واستدل بقوله :﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح [٦] ، يعنى : ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها [٧] وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾.

وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما [جاء] [٨] فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعَدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فَيُربِّيها لصاحبها كما يُربِّى أحدكم فَلُوّه أو فَصِيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد » [٩] .

---

(١) فى ت : « الضراء » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

(٣) فى ت ، ف : « الأخرى » .

(٤) فى ت : « فسره ابن عباس وغيره » .

(٥) فى ت : « به » .

(٦) فى أ : «لا يصلح » .

(٧) فى أ : « أفضلها » .

(٨) زيادة من أ .

(٩) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أى : هو الخالق الرازق [١] ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب ، كما قال [٢] الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبى شرحبيل ، عن حَبَّة وسواء ابنى خالد قالا : دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعنّاه ، فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تَهَزَّزَتْ رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » [٣] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ أى : لايقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعَزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ .

قال ابن عباس ، وعكرِمة ، والضحاك ، والسُّدِّى ، وغيرهم : المراد بالبر ههنا : الفَيَافى ، وبالبحر : الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة:البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف .

وقال زيد [٤] بن رُفَيْع : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾، يعنى :انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى [٥] دوابه . رواه ابن أبى حاتم .

وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، عن سفيان ، عن حُمَيد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد[٦] البحر : أخذ السفينة غصبا .

وقال عطاء الخراسانى : المراد بالبر:ما فيه من المدائن والقرى ،وبالبحر : جزائره .

---

(١) فى أ : « الرزاق » . (٢) فى ت : « كما روى » .
(٣) المسند (٣/٤٦٩) .
(٤) فى أ : « يزيد ». (٥) فى ت ، ف : « يعنى » . (٦) فى ت ، ف : « وفى » .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَح ملك أيلة ، وكتب له ببحره ، يعنى : ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس ﴾ أى : بان النقص فى(١) الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » (٢) . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ـ أو أكثرهم ، أو كثير منهم ـ عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق (٣) البركات من السماء والأرض ؛ ولهذا إذا نزل عيسى [ابن مريم] (٤)، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ـ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئَام من الناس ، ويستظلون بقَحْفها ، ويكفى لبن اللّقحة الجماعةَ من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ [ولهذا] (٥) ثبت فى الصحيح (٦) : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (٧) .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عَوْف ، عن أبى قحذم قال(٨) : وجد رجل فى زمان زياد ـ أو : ابن زياد ـ صرة فيها حَبّ ، يعنى من بر أمثال النوى ، عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل(٩) .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْل ﴾ أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِين ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

---

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٦٢) ،والنسائى فى السنن (٨/ ٧٥) من حديث أبى هريرة ، ولم يقع لى فى سنن أبى داود .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « حصول » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ت ، أ : « الصحيحين » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥١٢) .

(٨) فى ت : « وروى أنه » .

(٩) المسند (٢/ ٢٩٦) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أى :يتفرقون ،ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ؛ولهذا قال :﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ،﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يذكر تعالى نعَمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بمجىء الغيث (١) عقيبها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعايش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر،﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه (٢) ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذِّبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ،﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ،كقوله تعالى:﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ،عن شَهْر بن حَوْشَب (٤) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما

(١) فى ت ، ف : « بمجىء المطر والغيث » .
(٢) فى ت : « ﷺ » .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ت : « بإسناده » .

من امرئ مسلم يَرُدُّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التى (٢) ينزل منها الماء (٣) فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يَمُدّه فيكثّرهُ ويُنَمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧]،وكذلك قال ههنا: ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الورّاق ، وقتادة : يعنى قطعا .

وقال غيره : متراكما ، قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض .

وقوله : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فترى المطر ـ وهو القطر ـ يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قَنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ،جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾، فقال ابن جرير : هو

---

(١) ورواه أحمد فى المسند (٦/٤٤٨) من طريق إسماعيل ، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم (١٠٢) من طريق جرير كلاهما عن ليث ــ وهو ابن أبى سليم ــ به ولم يذكر الآية .

(٢) فى أ : « الذى » . (٣) فى ت : « المطر » .

تأكيد . وحكاه عن بعض أهل العربية.

وقال آخرون :[وإن كانوا] (١) من قبل أن ينزل عليهم المطر ،﴿ مِّن قَبْلِه ﴾ أى :الإنزال﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾.

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله ـ أيضا ـ قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانه فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال :﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المطر ، ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ،﴿ إنه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول :﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ ،يابسة على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم [إليهم] (٢) من النعم ، كما قال :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ـ ٦٧] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هُشَيْم (٣) ، عن يَعْلَى ابن عطاء ، عن أبيه (٤) ، عن عبد اللّه بن عمرو ، قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر [فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحْمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ،وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة فى مهابها : صبا ودبور ، وجنوب ،وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ،وأخرى تهلكه وتعطبه ،وأخرى تسيره وتصلبه ،وأخرى توهنه وتضعفه](٥).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو(٦) عبيد اللّه ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد اللّه ابن عَيّاش (٧) ، حدثنى عبد اللّه بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدَفى ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى الأرض الثانية ـ فلما أراد اللّه أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور . قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذاً تكفأ الأرض وما عليها ،

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى أ : « هاشم » .
(٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٥) زيادة من ت .
(٦) فى أ : « ابن » .
(٧) فى أ : « عباس ».

ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم » ، فهى التى قال الله فى كتابه : ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (١) [الذرايات : ٤٢]. هذا حديث غريب ، ورفعه منكر. والأظهر أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، رضى الله عنه .

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾.

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ (٢) كلامَك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون (٣) الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مَثَلُ الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قَلِيب بدر (٤) ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جَيَّفوا؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » (٥) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة .

---

(١) سيأتى تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٤٢ من سورة الذاريات .

(٢) فى ت : « ولا يبلغ » . (٣) فى ت : « يسمعون » .

(٤) فى ت ، أ : « فى روايته أن النبى ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا فى القليب ،قليب بدر » .

(٥) قال الإمام الزركشى رحمه الله فى كتابه « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » ص (١٢١) : « أخرج البخارى عن ابن عمر قال : وقف النبى ﷺ على قَلِيب بدر فقال : « هَلْ وَجَدْتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقا » ، ثم قال : « إنهم الآن يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قال النبى ﷺ : « إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق » . قال السهيلى فى الروض : « وعائشة لم تحضر، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ ، وقد قالوا له: يا رسول الله ، أتخاطب قوماً قد جيفوا أو أجيفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحال عالمين ،جاز أن يكونوا سامعين ، إما بآذان رؤوسهم ،إذا قلنا : إن الروح تعاد إلى الجسد أو إلى بعضه عند المسألة. وهو قول جمهور أهل السنة ، وإما بأذن القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه . قال : وقد روى أن عائشة احتجت بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ وهذه الآية كقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ أى : إن الله هو الذى يهدى ويوفق ويدخل الموعظة إلى آذان القلوب لا أنت ، وجعل الكفار أمواتاً وصمّا على جهة التشبيه بالأموات وبالصم ، فالله هو الذى يسمعهم على الحقيقة إذا شاء ، فلا تعلق لها فى الآية لوجهين : أحدهما : أنها إنما نزلت فى دعاء الكفار إلى الإيمان ، الثانى : أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم، وصدق الله ، فإنه لايسمعهم إذا شاء إلا هو » .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً [له] (١) ، عن ابن عباس مرفوعاً :« ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ،كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ،إلا رد اللّه عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام» (٢).

[وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا ،وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

وروى عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَرى قال : رأيت عاصماً الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا ـ واللّه ـ فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد اللّه المزنى ، فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، ثنا بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم ، وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : ثنا محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خِداَش ، ثنا جعفر بن سليمان ،عن أبى التَّيَّاح يقول : كان مُطَرِّف يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا: هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت: وما يقولون ؟ قال: يقولون :سلام عليكم ؛ حدثنى محمد بن الحسن ، ثنا يحيى بن أبى بكر،

(١) زيادة من أ .

(٢) الاستذكار لابن عبد البر من طريق بشر بن بكير ،عن الأوزاعى ،عن عطاء ،عن عبيد بن عمير ،عن ابن عباس ،مرفوعاً . ولفظه: « ما من أحد مرّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء اللّه ، ثم إنى أتيته يوماً ، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج ، وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه ،عليه سِحنَة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته . قال : يا بنى ، ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك ، قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بَسْطام ، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّفَاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت . فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى، فقلت لها : يا أمى ، كيف أنت ؟ قالت : أى بنى ، إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد اللّه لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة ، هذا ابنك ، قد أقبل ،فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال : آنس اللّه وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاؤونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد اللّه بن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : ثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى ، قال : بم أعظك ،أصلحك اللّه ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول اللّه ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو الأموى ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شِرَّة سَمِجَة ، فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أىَ بنى ،ما كان أشد فرحى بك

وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً، فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات ، قال : فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر ،وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور ، يا مصلح الصالحين ،وياهادى المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا :« سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ،وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ،وإن لم يسمع المسلم الرد ،والله أعلم][1].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾.

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يكسَى لحما ، ويُنفَخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفاً واهن القوى . ثم يشب قليلاً قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدَثا ، ثم مراهقاً ، ثم شابا . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل [2] ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللِّمَّة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى: يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، عن فضيل ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق [3] ، عن عطية العوفى، قال : قرأت على ابن عمر : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا [4] ﴾ ،فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا ﴾ ،ثم قال : قرأتُ على رسول الله ﷺ كما قرأت على ، فأخذ على كما أخذتُ عليك .

ورواه أبو داود والترمذى ـ وحَسَّنه ـ من حديث فضيل ، به[5] .ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، بنحوه [6] .

---

(١) زيادة من ت ، أ .
(٢) فى ت ، ف ، أ : « فيتكهل » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ».
(٤) فى أ : «ضعفا وشيبة » .
(٥) المسند (٢/٥٨) ،وسنن أبى داود برقم (٣٩٧٨) ،وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٦) .
(٦) سنن أبى داود برقم (٣٩٧٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم باللّه أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم . قال اللّه تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ** ﴾ أى: فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة اللّه فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ، ﴿ **إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ** ﴾ أى: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

قال اللّه تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ** ﴾ أى : يوم القيامة، ﴿ **لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ** ﴾ أى : [لا ينفعهم][1] اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ **وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ أى : ولاهم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ **وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ** ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال [اللّه][2] تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ﴾ أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن اللّه منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ **وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك اللّه به ، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدًى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا ، رضى اللّه عنه ، وهو فى الصلاة ـ صلاة

(١ ، ٢) زيادة من أ .

الغداة ـ فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شَرِيك ، عن عثمان بن أبى زُرْعَة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على وهو فى الصلاة : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾[١] .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظَبْيان ، عن أبى تحيا قال : صلى على [٢] رضى اللّه عنه ، صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فأجابه على [٣] ، وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ .

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر] [٤] :

قال الإمام أحمد :حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ،سمعت شبيب ـ أبا روح ـ يحدث عن رجل [٥] من أصحاب النبى ﷺ ، أن رسول اللّه ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها الرّوم فأوهم ، فقال :«إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» [٦] .

وهذا إسناد حسن ومتن حسن [٧] ، وفيه سر عجيب ،ونبأ غريب ، وهو أنه ، عليه السلام [٨] ، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة [٩] بصلاة الإمام .

[آخر تفسير سورة « الروم »] [١٠]

(١) تفسير الطبرى (٢١/٣٨) .
(٢ ، ٣) فى ف ، أ : « على بن أبى طالب » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن رجل » .
(٦) المسند (٣/ ٤٧١) .
(٧) فى ت : « إسناده حسن ومتنه حسن » .
(٨) فى أ : « ﷺ » .
(٩) فى هـ : « معدوقة » .
(١٠) زيادة من ت .

سورة الروم[1]

مكّيّة، إلّا قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ [الروم، ١٧/٣٠]،
وهي ستّون آيةً، وقيل: تسع وخمسون.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في أمثاله مِن الفواتح الكريمة.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أدنى أرض العرب منهم، إذ هي الأرض المعهودة عندهم، وهي أطراف الشام، أو في أدنى أرضهم مِن العرب، على أنّ "اللام" عوض عن المضاف[3] إليه. قال مجاهد: «هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس». / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «الأردُنّ وفلسطين». وقُرئ: "فِي أَدَانِي الْأَرْضِ".[4] [٣٠٥ظ]

﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد مغلوبيّتهم. وقُرئ بسكون "اللام"،[5] وهي لغة، كـ"الجلَبِ" و"الجلْبِ" ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي: سيَغلبون فارس.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ رُوي أنّ فارس غزَوا الروم، فوافَوهم بأذْرِعات وبُصرى -وقيل: بالجزيرة كما مرّ- فغَلَبوا عليهم، وبلغ الخبرُ مكّة، ففرح المشركون

١ س + ستّون آية.

٢ م س - وهي ستّون آية، وقيل: تسع وخمسون.

٣ س: المصاف.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

وشمِتوا بالمسلمين، وقالوا: «أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أمّيّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فلنظهرنّ عليكم»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «لا يُقِرّنّ الله أعينكم، فوالله ليَظهرَنّ الروم على فارس بعد بضع سنين»، فقال أُبيّ بن خَلف اللعين: «كذَبت، اجعل بيننا أجلًا أُنَاحِبْكَ[1] عليه»، فناحَبَه على عشر قلائِص[2] مِن كلّ منهما، وجَعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر به أبو بكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «البِضع ما بين الثلاث إلى التسعِ، فَزائِدْهُ في الخطر، ومادَّهُ في الأجل»، فجعلاها مائةَ قَلوص إلى تسع سنين، ومات أُبيّ مِن جَرح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين، وذلك يوم الحُديبية.[3]

وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ أبو بكر الخطَر مِن ذريّة أبيّ، فجاء به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «تصدَّقْ به».[4] وكان ذلك قبل تحريم القِمار.

وهذه الآيات مِن البيّنات الباهرة الشاهدة بصحّة النبوّة، وكونِ القرآن مِن عند الله عزّ وجلّ حيث أخبرتْ عن الغيب الذي لا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وقُرئ: "غَلَبَتْ"[5] على البناء للفاعل، و"سَيُغْلَبُونَ"[6] على البناء للمفعول، / والمعنى: أنّ الروم غَلَبَتْ على ريف الشام، وسيَغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة مِن نزولها، ففتحوا بعض بلادهم، فإضافة "الغَلَب" حينئذ إلى الفاعل. [٣٠٦و]

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غُلِبوا وحين يَغلِبون، كأنّه قيل: مِن قبلِ كونهم غالبين، وهو وقتُ كونهم مَغلوبين،

---

[1] ناحبه: راهنه. القاموس المحيط للفيروزابادي، «نحب».

[2] القَلُوص مِن النُّوق: الشابّة، وهي بمنزلة الجارية مِن النساء. وجمع القَلوصِ: قُلُص وقَلائص. الصحاح للجوهري، «قلص».

[3] جامع البيان للطبري، ١٨/٤٥١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٢.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٧.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عمر وابن عبّاس رضي الله عنهم ومعاوية بن قرّة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمرو ومعاوية بن قرّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

ومِن بعد كونهم مَغلوبين، وهو وقتُ كونهم غالبين، والمعنى: أنّ كلًّا مِن كونهم مَغلوبين أوّلًا وغالبين آخرًا ليس إلّا بأمر الله تعالى وقضائه، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]. وقُرئ: "مِن قَبْلِ وَمِن بَعْدِ"[١] بالجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنّه قيل: قَبلًا وبَعدًا، بمعنى: أوّلًا وآخِرًا.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يَغلِب الرومُ على فارس، ويحُلّ ما وعده الله تعالى مِن غَلَبتهم ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وتغليبِه مَن له كتاب على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كفّار مكّة، وكونِ ذلك مِن دلائلِ غلبة المؤمنين على الكفّار. وقيل: "نصر الله" إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين مِن غلبة الروم على فارس، وقيل: نصره تعالى أنّه ولّى بعض الظالمين بعضًا، وفرّق بين كلمهم حتّى تناقصوا وتَفانَوا، وفَلَّ كلٌّ منهما شوكةَ الآخَر، وفي ذلك قوّة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنّه وافق ذلك يوم بدرٍ.[٢] وفيه مِن نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى، والأوّل هو الأنسب لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يشاء أن ينصره مِن عباده على عدوّه ويُغلّبه عليه، فإنّه استئناف مقرّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.[٣]

/ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزّة والغلبة، فلا يُعجزه مَن يشاء أن ينصر [٣٠٦ظ] عليه، كائنًا مَن كان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، فينصر مَن يشاء أن ينصره، أيَّ فريق كان. والمراد بالرحمة هي الدنيويّة، أمّا على القراءة المشهورة فظاهر، لِما أنّ كِلا الفريقين لا يستحقّ الرحمة الأخرويّة. وأمّا على القراءة الأخيرة فلأنّ المسلمين وإن كانوا مستحقّين لها، لكنّ المراد ههنا نصرهم الذي هو مِن آثار الرحمة الدنيويّة. وتقديم وصف العزّة لتقدّمه في الاعتبار.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه؛ لأنّ ما قبله في معنى الوعد، كأنّه قيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٤٥٧/١٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٣.

٣ في الآية السابقة.

وَعَدَ الله وعدًا، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيّ وعدٍ كان ممّا يتعلّق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه سبحانه. وإظهار الاسم في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه. والجملة استئناف مقرّر لمعنى المصدر، وقد جُوّز أن تكون حالًا منه، فيكون كالمصدر الموصوف، كأنّه قيل: وَعَدَ الله وعدًا غيرَ مُخلَف، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما سبَق مِن شئونه تعالى.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ٧﴾

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يشاهدونه مِن زخارفها وملاذّها وسائرِ أحوالها الموافقة لشهواتهم، الملائمةِ لأهوائهم، المستدعيةِ لانهماكهم فيها، وعكوفِهم عليها، لا تمتّعُهم بزخارفها وتنعُّمهم بملاذّها كما قيل؛[1] فإنّهما ليسا ممّا علموه منها؛ بل مِن أفعالهم المترتّبة على علومهم. وتنكير ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتحقير والتخسيس دون الوَحدة كما تُوُهِّم، أي: يعلمون ظاهرًا حقيرًا خسيسًا مِن الدنيا.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا يُخطِرونها بالبال، ولا يدركون مِن الدنيا ما يؤدّي إلى معرفتها مِن أحوالها، ولا يتفكّرون فيها كما سيأتي. والجملة معطوفة على ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وإيرادُها اسميّة للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها. و﴿هُمْ﴾ الثانيةُ تكرير للأولى، أو مبتدأ و﴿غَٰفِلُونَ﴾ خبره، والجملة خبر للأولى. وهو على الوجهين منادٍ على تمكّن غفلتهم عن الآخرة المحقّقةِ لمقتضى الجملة المتقدّمة تقريرًا / لجهالتهم، [٣٠٧و]
وتشبيهًا لهم بالبهائم المقصورِ إدراكاتُها مِن الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التي هي مِن مبادي العلم بأمور الآخرة، وإشعارًا بأنّ العلم المذكور وعدمَ العلمِ رأسًا سِيّانِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إنكار واستقباح لقَصر نظرهم على ما ذُكر مِن ظاهر الحياة

---

[1] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٨/٣.

الدنيا مع الغفلة عن الآخرة. و"الواو" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام. وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۖ﴾ ظرف للتفكّر، وذكرُه مع ظهور استحالة كونه في غيرها لتحقيق أمره، وتصويرِ حال المتفكّرين.

وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾... إلخ متعلّق إمّا بالعلم الذي يؤدّي إليه التفكّر ويدلّ عليه، أو بالقول الذي يترتّب عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، أي: أَعَلِموا ظاهرَ الحياة الدنيا فقط؟ أو أَقَصَروا النظر عليه، ولم يُحدثوا التفكّر في قلوبهم فيعلموا أنّه تعالى ما خلقهما وما بينهما مِن المخلوقات التي هم مِن جملتها ملتبسةً بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا﴾ ملتبسةً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؟ أو فيقولوا هذا القولَ معترفين بمضمونه إثرَ ما علموه؟

والمراد بـ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ هو الثابت الذي يحِقّ أن يثبت لا محالةَ، لابتنائه على الحكمة البالغة، والغرضِ الصحيح، الذي هو استشهاد المكلّفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيّرة على وجود صانعها عزّ وجلّ، ووَحدتِه، وعلمِه، وقدرتِه، وحكمتِه، واختصاصِه بالمعبوديّة، وصحّةِ أخباره التي مِن جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبديّة، ومُجازاتُهم بحسب أعمالهم غِبَّما تبيّن المُحسن مِن المُسيء، وامتازت درجات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتّبة على أنظارهم فيما نُصِب في المصنوعات / مِن الآيات والدلائل والأمارات [٣٠٧ظ]
والمَخائل، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود، ٧/١١]، فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره عليه السلام بقوله: «أيّكم أحسن عقلًا، وأورَع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»،[1] وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود عليه السلام.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، أي: وبأجل معيّن قدّره الله تعالى لبقائها، لا بدّ لها مِن أن تنتهي إليه لا محالةَ، وهو وقت قيام الساعة.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٣٥/١٢ (هود، ٧/١١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٩/٥ (هود، ٧/١١).

٢ هود، ٧/١١.

هذا، وقد جُوِّز[١] أن يكون قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ صلة للتفكّر، على معنى: أَوَلم يتفكّروا في أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم، وهم أعلم بشئونها، وأخبرُ بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبّروا ما أودعها الله تعالى ظاهرًا وباطنًا مِن غرائب الحِكم الدالّة على التدبير دون الإهمال، وأنّه لا بدّ لها مِن انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذي دبّر أمرها، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلَها، حتّى يعلموا عند ذلك أنّ سائر الخلائق كذلك أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنّه لا بدّ لها مِن الانتهاء إلى ذلك الوقت.

وأنت خبير بأنّ أمر مَعاد الإنسان ومُجازاتِه بما عمِل مِن الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات، فجعلُه ذريعةً إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمَعزِل مِن الجزاء تعكيس للأمر، فتدبّر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله ببيان أنّ أكثرهم غير مقتصرين على ما ذُكر مِن الغفلة عن أحوال الآخرة، والإعراضِ عن التفكّر فيما يرشدهم إلى معرفتها مِن خلق السماوات والأرض وما بينهما مِن المصنوعات؛ بل هم منكِرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ توبيخ لهم بعدَم اتّعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالّة على عاقبتهم ومَآلهم. و"الهمزة" لتقرير المنفي، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم ولم يسيروا ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ عطفٌ على ﴿يَسِيرُواْ﴾، داخل في حكم التقرير والتوبيخ، والمعنى: أنّهم قد ساروا في أقطار الأرض، وشاهدوا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن الأمم المُهلَكة كعاد وثمود.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦٩.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾... إلخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلِها، يعني: أنّهم كانوا أقدرَ منهم على التمتّع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشدّ منهم قوّةً، ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة والحرث. وقيل: لاستنباط المياه / واستخراج المعادن وغير ذلك، ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: عَمَّرها أولئك بفنون [٢٠٨و] العمارات مِن الزراعة والغرس والبناء وغيرِها ممّا يُعدّ عِمارةً لها.

﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عِمارةً أكثرَ كمًّا وكيفًا وزمانًا مِن عِمارة هؤلاء إيّاها، كيف لا وهم أهل وادٍ غير ذي زرع لا تبسّط لهم في غيره؟ وفيه تهكّم بهم؛ حيث كانوا مغترّين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضِيق عَطَنِهم، إذ مدار أمرها على التبسّط في البلاد، والتسلّط على العباد، والتقلّب في أكناف الأرضِ بأصناف التصرّفات، وهم ضَعَفَةٌ مُلْجَأون إلى وادٍ لا نفع فيه، يخافون أن يتخطّفهم الناس.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو الآيات الواضحات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي: فكذّبوهم، فأهلكهم، فما كان الله تعالى ليهلكهم مِن غير جُرم يستدعيه مِن قِبَلِهم. والتعبير عن ذلك بالظلم مع أنّ إهلاكه تعالى إيّاهم بلا جُرم ليس مِن الظلم في شيء على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه في مَعرِض ما يستحيل صُدوره عنه سبحانه،[١] وقد مرّ في سورة الأنفال[٢] وسورة آل عمران.[٣]

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بأن اجترأوا على اقتراف ما يوجبه مِن المعاصي العظيمة.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: عملوا السيّئات. وُضِع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة، والإشعارِ بعِلّة الحكم، ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي:

---

١ س: تعالى.

٢ الأنفال، ٨/٥١.

٣ آل عمران، ٣/١٨٢.

العقوبة التي هي أسوأ العقوباتِ وأفظعُها، التي هي العقوبة بالنار، فإنّها تأنيث "الأَسْوأ"، كـ"الحُسنى" تأنيث "الأحسن"، أو مصدر كـ"البُشرى"، وُصِف به العقوبة مبالغةً، كأنّها نفس السوآ. وهي مرفوعة على أنّها اسم ﴿كَانَ﴾، وخبرها ﴿عَٰقِبَةَ﴾. وقُرئ على العكس،[1] فهو / أدخلُ في الجَزالة. [٣٠٨ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ علّة لِما أشيرَ إليه مِن تعذيبهم الدنيوي والأخروي، أي: لِأن كذّبوا، أو بأن كذّبوا بآيات الله المنزّلة على رسله عليهم السلام ومعجزاتِه الظاهرة على أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾، داخل معه في حكم العِلّيّة. وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدّده، هذا هو اللائق بجَزالة النظم الجليل، وقد قيل وقيل.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُنشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء. والالتفات للمبالغة في الترهيب. وقُرئ بـ"الياء".[2]

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٢﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ورَجْعِهم إليه ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون متحيّرين لا يَنبِسون، يقال: "ناظَرْته فأبْلَسَ" إذا سكَتَ وأَيِس مِن أن يَحتجّ. وقُرئ بفتح "اللام"[3] مِن "أَبْلَسَهُ" إذا أفحَمَه وأسكَتَه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣﴾

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يجيرونهم مِن عذاب الله تعالى كما

---

[1] قرأ بها نافع وابن جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.

[2] قرأ بها أبو عمرو وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

كانوا يزعمونه. وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع، أي: لم يكن لواحد منهم شفيع أصلًا، ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: بإلَهيّتهم وشِركتهم لله سبحانه، حيث وقَفوا على كُنْه أمرهم. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه. وقيل: كانوا في الدنيا كافرين بسببهم،[١] وليس بذاك؛ إذ ليس في الإخبار به فائدة يعتدّ بها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعيدَ لتهويله وتفظيع ما يقع فيه. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ تهويل له إثرَ تهويل، وفيه رمزٌ إلى أنّ التفرّق يقع في بعضٍ منه. وضمير ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ / لجميع الخلق المدلولِ عليهم بما تقدّم مِن بَدْئهم وإعادتِهم ورَجْعِهم، لا المجرمون خاصّةً. وليس المراد بتفرّقهم افتراق كلّ فرد منهم عن الآخر؛ بل تفرّقهم إلى فريقَي المؤمنين والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى، ٤٢/٧]، وذلك بعد تمام الحساب. [٣٠٩و]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ تفصيل وبيان لأحوال ذَينك الفريقين. و"الروضة" كلّ أرض ذات نبات وماء ورَونق ونَضارة، وتنكيرُها للتفخيم، والمراد بها الجنّة. و"الحُبور" السرور، يقال: حَبَره إذا سَرّه سرورًا تهلّل له وجهُه، وقيل: "الحَبْرة" كلّ نعمة حَسَنة، و"التحبير" التحسين.

واختلفت فيه الأقاويل، لاحتماله وجوهَ جميع المسارّ. فعَن ابن عبّاس ومجاهد: «يُكرَمون».[٢] وعن قتادة: «يُنعَّمون».[٣] وعن ابن كَيسان: «يُحلَّون».[٤]

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٠٣.

٢ جامع البيان للطبري، ١٨/٤٤٧١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٦.

٣ جامع البيان للطبري، ١٨/٤٤٧٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٦.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٤٧١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٦٠.

وعن أبي بكر بن عيّاش:[١] «التّيجان على رءوسهم».[٢] وعن وكيع:[٣] «السماع في الجنّة».[٤]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أنّه ذَكر الجنّة وما فيها مِن النعيم، وفي آخِر القوم أعرابي، فقال: «يا رسول الله، هل في الجنّة مِن سماع؟» قال عليه السلام: «يا أعرابي، إنّ في الجنّة لنهرًا حافّتاه الأبكار مِن كلّ بيضاءَ خَوصانيّة،[٥] يتغنَّينَ بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة». قال الراوي: «فسألتُ أبا الدرداء[٦] رضي الله عنه: بِم يَتغنَّينَ؟» قال: «بالتسبيح».[٧]

ورُوي: «إنّ في الجنّة لأشجارًا عليها أجراس مِن فضّة، فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعثَ الله تعالى ريحًا مِن تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتُحرِّك تلك الأجراس بأصواتٍ لو سمعها أهل الدنيا لَماتُوا طَرَبًا».[٨]

---

١ هو أبو بكر بن عيّاش بن سالم الأسدي، الكوفي، الحنّاط (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م)، المقرئ، الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، وبقيّة الأعلام، مولى واصل الأحدب. وفي اسمه أقوال: أشهرها شعبة، قرأ أبو بكر القرآن وجوّده ثلاث مرّات على عاصم بن أبي النَّجود. وعرضه أيضًا عن عطاء بن السائب، وأسلم المنقري. وحدّث عن عاصم، وأبي إسحاق السبيعي. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٠٧/٨؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٢٥/١.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

٣ هو وكيع بن الجرّاح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م)، الإمام، الحافظ، محدّث العراق، أحد الأعلام. وُلد بالكوفة، وأبوه ناظرٌ على بيت المال فيها. وتفقّه وحفظ الحديث، واشتهر. وكان مِن بحور العلم، وأئمّة الحفظ. أراد الرشيد أن يولّيه قضاء الكوفة، فامتنع وَرعًا. وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كلَّ ليلة. قال أحمد بن حنبل: «ما رأيت أحدًا أوعى للعلم ولا أحفظَ مِن وكيع». له كتب، منها: تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والزهد. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٤٤/٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ١١٧/٨.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣. وهو عن يحيى بن أبي كثير في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٨؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٦/٧.

٥ وفي هامش م: دقيقة الخَصْر.

٦ هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء (ت. ٣٢هـ/٦٥٢م)، الإمام، القدوة، قاضي دمشق، صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حكيم هذه الأمّة. وهو معدود فيمَن جمَع القرآن في حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتصدّر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٣٧/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٩٨/٥.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

٨ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩٧/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧١/٣.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

/ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصِّل ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ صُرِّح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة، للإيذان بكمال تميّزهم بذلك عن غيرهم، وانتظامِهم في سلك المشاهَدات، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد مَنزلتهم في الشرّ، أي: أولئك الموصوفون بما فُصّل مِن القبائح ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبدًا. [٣٠٩ظ]

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إثرَ ما بُيّن حالُ فريقَي المؤمنين العاملين للصالحات، والكافرين المكذِّبين بالآيات، ومآلُهما مِن الثواب والعذاب؛ أُمِروا بما ينجّي مِن الثاني ويُفضي إلى الأوّل مِن تنزيه الله عزّ وجلّ عن كلّ ما لا يليق بشأنه سبحانه، ومِن حمده تعالى على نِعَمه العِظام. وتقديم الأوّل على الثاني لِما أنّ التخلية متقدّمة على التحلية.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا علمتم ذلك فسبِّحوا الله تعالى، أي: نزِّهوه عمّا ذُكر سبحانه، أي: تسبيحَه اللائقَ به في هذه الأوقات، واحمَدوه، فإنّ الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبِه على المميّزين مِن أهل السماوات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه، / والإشعارِ بأنّ حقّهما أن يُجمَع بينهما، كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، وقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر، ٩٨/١٥]، وقولُه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائةَ مرّة حُطّت خطاياه [٣١٠و]

وإن كانت مِثل زبَد البحر».[١] وقولُه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح وحين يُمسي: "سبحان الله وبحمده" مائة مرّة لم يأتِ أحد يوم القيامة بأفضلَ ممّا جاء به، إلّا أحد قال مِثل ما قال أو زاد عليه».[٢] وقولُه عليه السلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"»،[٣] وغيرُ ذلكَ ممّا لا يحصى مِن الآيات والأحاديث.

وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أنّ ما يحدث فيها مِن آيات قدرته تعالى وأحكام رحمته ونعمته شواهدُ ناطقة بتنزّهه تعالى، واستحقاقِه الحمدَ، وموجِبةٌ لتسبيحه وتحميده حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقديمُه على ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ لمراعاة الفواصل. وتغيير الأسلوب لِما أنّه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشِيّ، كالمساء والصباح والظهيرة، ولعلّ السرَّ في ذلك أنّه ليس مِن الأوقات التي يختلف فيها أحوال الناس وتتغيَّر تغيّرًا ظاهرًا مصحِّحًا لوصفهم بالخروج عمّا قبلها والدخولِ فيها كالأوقات المذكورة، فإنّ كلًّا مِنها وقت يتغيّر فيه الأحوال تغيّرًا ظاهرًا، أمّا في المساء والصباح فظاهر، وأمّا في الظهيرة فلأنّها وقت يُعتاد فيه التجرّد عن الثياب للقيلولة كما مرّ في سورة النور.[٤]

وقيل: المراد بـ"التسبيح" و"الحمدِ": الصلاة، لاشتمالها عليهما. وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الآية جامعة للصلوات الخمس؛ ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاتا المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و﴿عَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر».[٥] ولذلك ذهب الحسَن إلى أنّها مدنيّة؛ إذ كان يقول: «إنّ الواجب بمكّة ركعتان، في أيّ وقت اتّفقتا، وإنّما فرضت الخمسُ بالمدينة».[٦]

---

١ صحيح البخاري، ٨/٨٦ (٦٤٠٥)؛ صحيح مسلم، ٤/٢٠٧١ (٢٦٩١).

٢ صحيح مسلم، ٤/٢٠٧١ (٢٦٩٢)؛ سنن الترمذي، ٥/٥١٣ (٣٤٦٩).

٣ صحيح البخاري، ٨/١٣٩ (٦٦٨٢)؛ صحيح مسلم، ٤/٢٠٧٢ (٢٦٩٤).

٤ النور، ٢٤/٣٦.

٥ جامع البيان للطبري، ١٨/٤٧٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٣٠.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٧٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٠٤.

والجمهور / على أنها فُرضت بمكّة، وهو الحقّ، لحديث المِعراج، وفي آخره: «هنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة».[١] [٣١٠ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن سرّه أن يُكالَ له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآيةَ».[٢]

وعنه عليه السلام: «مَن قال حين يُصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[٣] أدرك ما فاته في يومه، ومَن قالها حين يُمسي أدرك ما فاته في ليلته».[٤]

وقُرئ: "حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ"،[٥] أي: تُمسون فيه، وتُصبحون فيه.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان مِن النطفة، والطيرِ مِن البيضة، ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ النطفةَ والبيضةَ مِن الحيَوان، ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثلَ ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ مِن قبوركم. وقُرئ: "تَخْرُجُونَ" بفتح "التاء" وضمّ "الراء".[٦] وهذا نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.[٧]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الباهرةِ الدالّةِ على أنكم تُبعثون دلالةً أوضح ممّا سبَق،

---

١ مسند أحمد، ١٩/٤٨٧ (١٢٥٠٥). وهو في صحيح البخاري، ١/٧٨ (٣٤٩)؛ وصحيح مسلم، ١/١٤٨ (١٦٣)، بلفظ: «هي خمس، وهي خمسون، لا يُبدّل القول لديّ».

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٧٢.

٣ في الآية التالية.

٤ سنن أبي داود، ٧/٤١٠ (٥٠٧٦)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٨/٢٨٠ (٨٦٣٨).

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٧.

٧ الروم، ٣٠/١١.

فإنّ دلالة بَدءِ خلقهم على إعادتهم أظهر مِن دلالة إخراج الحيّ مِن الميّت، وإخراجِ الميّت مِن الحيّ، ومِن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها.

﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: في ضمن خلقِ آدم عليه السلام، لِما مرّ مرارًا مِن أنّ خَلقه عليه السلام مُنطوٍ على خَلق ذرّيّاته انطواءً إجماليًا. ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لم يشَمّ رائحة الحياة قطّ، ولا مناسبةَ بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: فاجأتم بعد ذلك وقتَ[1] كونِكم بشرًا تنتشرون في الأرض. وهذا مُجمَل ما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ الآيةَ [الحج، ٢٢/٥].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[٣١١و] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ الدالّةِ على ما ذُكر مِن البعث وما بعده مِن الجزاء / ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلِكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فإنّ خلقَ أصلِ أزواجكم حَوّاءَ مِن ضِلَع آدم عليه السلام متضمّن لخلقهنّ مِن أنفسكم على ما عرفتَه مِن التحقيق، أو مِن جنسكم، لا مِن جنسٍ آخَر، وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: لتألَفوها وتميلوا إليها وتطمئنّوا بها، فإنّ المجانَسة مِن دواعي التَّضامّ والتعارف، كما أنّ المخالفة مِن أسباب التفرّق والتنافر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي: بين الأزواج، إمّا على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حذف ظرفٍ معطوف على الظرف المذكور، أي: جعل بينكم وبينهنّ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥]. وقيل: أو بين أفراد الجنس، أي: بين الرجال والنساء،[2] ويأباه قوله تعالى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فإنّ المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعًا، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شَرَعَه لكم تَوادًّا وتراحمًا مِن غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ، ولا رابطةٌ مصحِّحةٌ للتعاطف مِن قرابة أو رحِمٍ.

---

[1] س - وقتَ.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٠٤.

قيل: "المودّة والرحمة" مِن قِبَل الله تعالى، والفِرْك[١] مِن الشيطان. وعن الحسن رحمه الله: «"المودّة" كناية عن الجماع، و"الرحمة" عن الولد»،[٢] كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم، ٢١/١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلقهم مِن تراب، وخلقِ أزواجهم مِن أنفسهم، وإلقاءِ المودّة والرحمة بينهم. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب المشار إليه للإشعار ببُعد منزلته.

﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً لا يُكتَنه كُنهُها، كثيرةً لا يُقادَرُ قدرُها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المَتِينة المبنيّة على الحِكم البالغة. والجملة تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أنّ ما ذُكر ليس بآية فذّة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾؛ بل هي مشتملة على آيات شتّى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالّة على ما ذكر مِن أمر البعث، وما يتلوه مِن الجزاء ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إمّا مِن حيث إنّ القادر على خلقهما بما فيهما مِن المخلوقات / بلا مادّة مستعدّة لها أظهرُ قدرةً على إعادة ما كان حيًّا قبل ذلك، [٣١١ظ]
وإمّا مِن حيث إنّ خلقَهما وما فيهما ليس إلّا لِمَعاش البشر ومَعادِه، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢٩/٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتِكم، بأن علّمَ كلّ صنف لغتَه، أو ألهمَه وضْعَها وأقدره عليها، أو أجناسَ نُطقِكم وأشكالَه، فإنّك لا تكاد تسمع مَنطقَين متساويَين في الكيفيّة مِن كلّ وجه.

---

١ الفِرك: بغض الرجل لامرأته، أو بغض امرأته له. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فرك».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٤/٤.

﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ ببياض الجلد وسواده وتوسّطه فيما بينهما، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحِلاها،[١] بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص، حتّى إنّ التوأمَين مع توافق موادّهما وأسبابهما والأمورِ المتلاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء مِن ذلك لا محالةَ، وإن كانا في غاية التشابه، وإنّما نُظِم هذا في سِلك الآيات الآفاقيّة مِن خلق السماوات والأرض مع كونه مِن الآيات الأنفسيّة الحقيقةِ بالانتظام في سِلك ما سبَق مِن خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذانِ باستقلاله، والاحترازِ عن توهّم كونه مِن تتمّات خَلْقهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في عددها ﴿لِّلْعَالِمِينَ﴾ أي: المتّصفِين بالعِلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت، ٤٣/٢٩]. وقُرئ بفتح اللام،[٢] وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدمِ خفائها على أحد مِن الخلق كافّةً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لاستراحةِ القوى النفسانيّة، وتقوِّي القوى الطبيعيّة.

﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ فيهما، فإنّ كلًّا مِن المَنام وابتغاء الفضل يقع في المَلَوَين،[٣] / وإن كان الأغلبُ وقوعَ الأوّل في الأوّل، والثاني في الثاني، أو [٣١٢و]
منامُكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة في ذلك، خلا أنّه فُصِل بين القرينَين الأوّلَين بالقرينَين الأخيرَين لأنّهما زَمانان، والزمان مع ما وقع فيه كشَيء واحد، معَ إعانة اللفّ على الاتّحاد.

---

[١] وفي هامش م: جمع "حِلية". «منه».

[٢] أي: "لِلْعَالَمِينَ". قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٤/٢.

[٣] المَلَوان: الليل والنهار. الصحاح للجوهري، «ملو».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: شأنُهم أن يسمعوا الكلامَ سماع تفهّم واستبصارٍ، حيث يتأمّلون في تضاعيف هذا البيان، ويستدلّون بذلك على شئونه تعالى.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٤﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ الفِعلُ إمّا مقدّر بـ"أن"، كما في قول مَن قال:

ألا أيّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا[١]

أي: أن أحضرَ.

أو منزَّل منزلةَ المصدر، وبه فُسِّر المَثَل المشهور: «تَسمعُ بالمُعيدي خير مِن أن تراه»،[٢] أو هو على حاله صفة لمحذوف، أي: آية يريكم بها البرق، كقول مَن قال:

وما الدهر إلّا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيشَ أكدَحُ[٣]

أي: فمنهما تارةً أموت فيها، وأخرى أبتغي فيها... إلخ.[٤]

أو ومِن آياته شيء أو سحاب يُريكم البرق ﴿خَوۡفٗا﴾ مِن الصاعقة، أو للمسافر ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيث، أو للمقيم، ونصبُهما على العلّة لفعلٍ يستلزمه المذكورُ، فإنّ إراءتهم البرقَ مستلزمة لرؤيتهم إيّاه، أو للمذكورِ نفسِه على تقدير مضاف، نحو: إراءَة[٥] خوفٍ وطمَعٍ، أو على تأويل "الخوف والطمع" بـ"الإخافة والإطماع"، كقولك: "فعلتُه رَغمًا للشيطان"، أو على الحال، نحو: "كلّمتُه شِفاهًا".

---

١ وفي هامش م: تمامه:
وأن أشهدَ اللذّات هل أنت مُخلدي
لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. وفيه: «أراد: أن أحضرَ، فلما أسقط "أن" ارتفع الفعل، وقد يجوز نصبه على إعمال "أن" مضمرة: يقول: يا مَن يلومني أن أحضر الحرب، وأن أنفق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات؛ هل في وسعك أن تخلدني فأكفّ عن ذلك وأتركه».

٢ يُضرب لمَن خَبَره خيرٌ مِن مَرآه. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١/١٢٩.

٣ لابن مقبل في ديوانه، ص ٣٨.

٤ ط س – إلخ.

٥ ط س: إرادة.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقُرِئَ بالتخفيف[١] ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُبْسِها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنّها مِن الظهور بحيث يكفي في إدراكها مجرّدُ العقل / عند استعماله في استنباط أسبابها وكيفيّة تكوّنها. [٣١٢ظ]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بإرادته تعالى لقيامهما، والتعبيرُ عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغِنَى عن المبادئ والأسباب. وليس المرادُ بإقامتهما إنشاءَهما؛ لأنّه قد بُيِّنَ حالُه بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،[٢] ولا إقامَتَهما بغير مقيم محسوس كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مِن تتمّاتِ إنشائهما، وإن لم يصرَّح به تعويلًا على ما ذُكر في غير موضع مِن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآيةَ [لقمان، ١٠/٣١]؛ بل قيامُهما واستمرارُهما على ما هما عليه إلى أجَلهما الذي نطَق به قوله تعالى فيما قبلُ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ[٤] إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.[٥]

وحيث كانت هذه الآية متأخّرة عن سائر الآيات المعدودة متّصلةً بالبعث في الوجود أُخِّرَتْ عنهنّ، وجُعلت متّصلة به في الذِّكر أيضًا، فقيل: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فإنّه كلام مَسوق للإخبار بوقوع البعث ووجودِه بعد انقضاء أجَل قيامهما، مترتّبٌ على تعداد آياته الدالّة عليه، غيرُ منتظِم في سِلكها كما قيل، كأنّه قيل: ومِن آياته قيام السماوات والأرض على هيئاتهما بأمره تعالى إلى أجلٍ مسمًّى قدّره الله تعالى لقيامهما، ثمّ إذا دعاكم، أي: بَعْدَ انقضاء الأجَل مِن الأرض وأنتم في قبوركم دعوةً واحدةً -بأن قال: أيّها الموتى، اخرجوا- فاجأتُم الخروجَ منها، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ١٠٨/٢٠].

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٢] الروم، ٢٢/٣٠.

[٣] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٥/٤.

[٤] م ط س - وما بينهما.

[٥] الروم، ٨/٣٠.

و﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلّق بـ﴿دَعَاكُمۡ﴾، إذ يكفي في ذلك كونُ المدعوّ فيها، يقال: "دَعوتُه مِن أسفل الوادي، فطلَع إليّ"، لا بـ﴿تَخۡرُجُونَ﴾؛ لأنّ ما بعد "إذا" لا يعمل فيما قَبلها.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ خاصّةً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الملائكة والثقَلين، خَلْقًا ومُلْكًا وتصرّفًا، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه، ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: منقادون لفعله، / لا يمتنعون عليه في شأن مِن شئونه تعالى. [٣١٣و]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد موتهم، وتكريرُه لزيادة التقرير والتمهيدِ لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالإضافة إلى قُدَرِكم والقياسِ على أصولكم، وإلّا فهما عليه سواء. وقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى "هَيِّن"، وتذكير الضمير مع رجوعه إلى "الإعادة"، لِما أنّها مئوّلة بـ"أنْ يُعِيد". وقيل: هو راجع إلى ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾،[١] وليس بذاك.

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّ "الإنشاء" بطريق التفضّل الذي يتخيّر فيه الفاعل بين الفعل والترك، و"الإعادةَ" مِن قَبيل الواجب الذي لا بدّ مِن فعله حتمًا، فكان أقربَ إلى الحصول مِن الإنشاء المتردّد بين الحصول وعدمه؛ فبمَعزِل مِن التحصيل، إذ ليس المراد بأَهْوَنِيّة الفعل أَقربيّتَه إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقُوّةِ اقتضائها لتعلّق قدرته به؛ بل أسهليّةُ تأتّيه وصدورِه عنه بعد تعلّق قدرته بوجوده، وكونِه واجبًا بالغير، ولا تفاوتَ في ذلك بين أن يكون ذلك التعلّق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار.

---

١ لعلّه يريد الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وعبارة البيضاوي: "قيل: الهاء لـ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾". انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٦/٤؛ ومعاني القرآن للزجّاج، ١٨٣/٤.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٧٧/٣.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى العجيبُ الشأنِ مِن القدرة العامّة والحكمة التامّة، وسائرِ صفات الكمال التي ليس لغيره ما يُدانيها فضلًا عمّا يُساويها، ومَن فسّره بقول: "لا إله إلّا الله" أراد به الوصفَ بالوحدانيّة.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بمضمون الجملة المتقدّمة على معنى أنّه تعالى قد وُصِف به، وعُرِف فيهما على ألْسِنة الخلائق وألْسِنة الدلائل. وقيل: متعلّق بـ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال منه، أو مِن ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، أو مِن ضميره في ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يَعجز عن بَدءِ ممكنٍ وإعادتِه، / ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنن الحكمة والمصلحة. [٣١٣ظ]

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يتبيّن به بطلان الشرك ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منتزَعًا مِن أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذُكِر مِن بطلان الشرك، لكونها بطريق الأولويّة.

وقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم﴾... إلخ تصوير للمَثَل، أي: هل لكم ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ مِن العبيد والإماء ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ مِن الأموال وما يجري مَجراها ممّا تتصرّفون فيها. فـ﴿مِّن﴾ الأولى ابتدائيّة، والثانية تبعيضيّة، والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد مِن الاستفهام.

وقوله تعالى:[١] ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تحقيق لمعنى الشركة، وبيانٌ لكونهم وشركائهم متساوين في التصرّف فيما ذُكِر مِن غير مزيّةٍ لهم عليها، على أنّ هناك محذوفًا معطوفًا على ﴿أَنتُمْ﴾، لا أنّه عامّ للفريقين بطريق التغليب، أي: هل تَرضون لأنفسكم -والحالُ أنّ عبيدكم أمثالُكم في البشريّة وأحكامِها-

---

[١] م - تعالى.

أن يُشارِكوكم فيما رزقناكم، وهو مستعار لكم، فأنتم وهم فيه سواءٌ شَرَعٌ[١] يتصرّفون فيه كتصرّفكم مِن غير فرق بينكم وبينهم.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبرٌ آخر لـ﴿أَنتُمْ﴾، أو حال مِن ضمير الفاعل في ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: تهابون أن تستبِدّوا بالتصرّف فيه بدون رأيهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: خيفةً كائنةً مثلَ خيفتكم مِن الأحرار المساهمين لكم فيما ذُكر. والمعنى نفي مضمون ما فُصِّل مِن الجملة الاستفهاميّة، أي: لا ترضون بأن يشارككم -فيما هو مُعَارٌ لكم- مماليككم، وهم أمثالكم في البشريّة غيرُ مخلوقين لكم؛ بل لله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبوديّة التي هي مِن خصائصها الذاتيّة مخلوقَه؛ بل مصنوعَ مخلوقِه، حيث تصنعونه بأيديكم ثمّ تعبدونه؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضحها، لا تفصيلًا أدنى منه، فإنّ التمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، وإبرازٌ لأوابد المدرَكات على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح والبيان. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبّر الأمور. وتخصيصُهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلّ لأنّهم المنتفعون بها.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ إعراض عن مخاطبتهم ومحاولةِ إرشادهم / إلى [٣١٤و]
الحقّ بضرب المَثَل وتفصيلِ الآيات واستعمالِ المقدّمات الحَقّة المعقولةِ، وبيانٌ لاستحالة تبعيّتهم للحقّ، كأنّه قيل: لم يعقلوا شيئًا مِن الآيات المفصّلة؛ بل اتّبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ. ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم

---

[١] "شَرَعٌ" بفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة وبعدَه عين مهملة، بمعنى سواء كما في الفصيح لثعلب، ص ٢٨٨. قال ابن درستويه في شرح الفصيح، ص ٢٥٢: «كأنّه جمع "شارع"، كخادم وخَدَم، أي: كلُّكم يَشرَع فيه شروعًا واحدًا». ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفردُ وغيره. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١١٩/٧.

بأنّهم في ذلك الاتّباع ظالمون، واضعون للشيء في غير موضعه، أو ظالمون لأنفسِهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين ببطلان ما أَتَوا، مُكبّين عليه، لا يَلويهم عنه صارف حسبما يصرّف العالِمَ إذا اتّبع الباطلَ علمُه ببطلانه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَ فيه الضلال لصرف اختياره إلى كسبه، أي: لا يقدر على هدايته أحدٌ. ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: لِمَن أضلّه الله تعالى، والجمعُ باعتبار المعنى. ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونهم مِن الضلال، ويحفظونهم مِن تَبِعاته وآفاتِه، على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد، على ما هو قاعدة مقابلةِ الجمع بالجمع.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ تمثيل لإقباله على الدين، واستقامتِه وثباتِه عليه، واهتمامِه بترتيب أسبابه، فإنّ مَن اهتمّ بشيء محسوس بالبصر عقَد عليه طَرْفَه، وسدّد إليه نظرَه، وقوّم له وجهَه مقبلًا به عليه، أي: فقوّم وجهَك له، وعَدِّلْهُ غيرَ ملتفت يمينًا وشمالًا. وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن المأمور، أو مِن ﴿الدِّينِ﴾.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ "الفِطرة": الخِلقة. وانتصابُها على الإغراء، أي: الزموا -أو عليكم- فطرةَ الله، فإنّ الخطاب للكلّ كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ﴾.[١] والإفراد في ﴿أَقِمْ﴾ لِما أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إمام الأمّة، فأمرُه عليه السلام مستتبع لأمرهم. والمراد بلزومها الجريانُ على موجَبها، وعدمُ الإخلال به باتّباع الهوى وتسويلِ الشياطين. وقيل: على المصدر، أي: فطرَ الله فطرةً.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ صفة لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، مؤكِّدة لوجوب
[٣١٤ظ] / الامتثال بالأمر، فإنّ خَلْقَ اللهِ الناسَ على فطرته -التي هي عبارة عن قَبولهم للحقّ وتمكّنِهم مِن إدراكه، أو عن ملّة الإسلام- مِن موجِبات لزومها والتمسّكِ بها قطعًا، فإنّهم لو خُلُّوا وما خُلِقوا عليه أدّى بهم إليها، وما اختاروا عليها دينًا آخر،

---

١ في الآية التالية.

ومَن غَوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجنّ، ومنه قوله عليه السلام حكايةً عن ربّ العزّة: «كلّ عبادي خلقتُ حنفاءَ فاجْتالَتْهم[١] الشياطين عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري»،[٢] وقولُه عليه السلام: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يُهوّدانه ويُنصّرانه».[٣]

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، أي: لا صحّةَ ولا استقامةَ لتبديله بالإخلال بموجَبه وعدمِ ترتيب مقتضاه عليه باتّباع الهوى وقَبولِ وسوسة الشيطان. وقيل: لا يقدر أحد على أن يغيّره، فلا بدّ حينئذ مِن حَمل "التبديل" على تبديل نفسِ الفطرة بإزالتها رأسًا، ووضعِ فطرة أُخرى مكانها غيرِ مصحِّحة لقَبول الحقّ والتمكّنِ مِن إدراكه، ضرورةَ أنّ "التبديل" بالمعنى الأوّل مقدور، بل واقع قطعًا، فالتعليل حينئذ مِن جهة أنّ سلامة الفطرة متحقّقة في كلّ أحد، فلا بدّ مِن لُزومها بترتيب مقتضاها عليها، وعدمِ الإخلال به بما ذُكر مِن اتّباع الهوى وخطواتِ الشيطان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى "الدين" المأمورِ بإقامة الوجه له، أو إلى "لزوم فِطرة الله" المستفادِ مِن الإغراء، أو إلى "الفِطرة" إن فُسِّرت بالملّة. والتذكير بتأويل المذكور، أو باعتبار الخبر. ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستوِي الذي لا عِوجَ فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، فيصدّون عنه صدودًا.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ حال مِن الضمير في الناصب المقدَّر لـ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾، أو في ﴿أَقِمۡ﴾؛ لعمومه للأمّة حسبما أُشيرَ إليه، وما بينهما اعتراض، أي: راجعين إليه، مِن "أنابَ" إذا رجع مرّةً بعد أخرى.

---

١ وفي هامش م: اجتالَهم: حوّلَهم عن قصدهم. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «جول».

٢ مسند أحمد، ٣٣/٢٩ (١٧٤٨٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٩٧/٤ (٢٨٦٥).

٣ صحيح البخاري، ١٠٠/٢ (١٣٨٥)؛ صحيح مسلم، ٢٠٤٧/٤ (٢٦٥٨).

[٣١٥و] / وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: مِن مخالفة أمره. عطفٌ على المقدّر المذكور. وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المبدِّلين لفِطرة الله تعالى تبديلًا.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] بإعادة الجارّ. وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم. وفائدة الإبدال التحذيرُ عن الانتماء إلى حزبٍ مِن أحزاب المشركين ببيان أنّ الكلّ على الضلال المبين. وقُرئ: "فَارَقُوا"،[2] أي: تركوا دينهم الذي أُمِروا به، ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا تشايع كلّ منها إمامَها الذي أضلّها.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مِن الدين المعوَجّ المؤسَّس على الرأي الزائغ والزعمِ الباطلِ ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنّه حقّ، وأنّى له ذلك؟ فالجملة اعتراض مقرِّر لمَضمون ما قبلَه مِن تفريق دينهم وكونِهم شِيَعًا. وقد جُوّز أن يكون ﴿فَرِحُونَ﴾ صفةً لـ﴿كُلُّ﴾ على أنّ الخبر هو الظرف المقدَّم، أعني: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾،[3] ولا يخفى بُعده.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدّةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين مِن دعاء غيره، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خَلاصًا مِن تلك الشدّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كانوا دعَوه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم الإشراكَ. وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لِما أنّ بعضهم ليسوا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان، ٣٢/٣١]، أي: مقيم على الطريق القصد، أو متوسّط في الكفر لانزجاره في الجملة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٦.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٤٧٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢٠٧.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥﴾

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ "اللام" فيه للعاقبة، وقيل: للأمر التهديدي، كقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ غيرَ أنّه التفِت فيه للمبالغة. وقُرئ: "وَلْيَتَمَتَّعُوا".[1]

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ تمتّعِكم. وقُرئ بـ"الياء"،[2] على أنّ ﴿تَمَتَّعُوا﴾ ماضٍ.

والالتفات إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ للإيذان بالإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتهم لغيرهم بطريق المُباثّة. ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجّةً واضحةً. / وقيل: ذا سلطان، أي: مَلِكًا معه برهان، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أو تكلُّمَ نطقٍ، ﴿بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم به تعالى، أو بالأمر الذي بسببه يشركون. [٣١٥ظ]

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً مِن صِحّة وسَعةٍ ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطَرًا وأشَرًا، لا حمدًا وشكرًا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدّة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشُؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجَئُوا القنوطَ مِن رحمته تعالى. وقُرئ بكسر "النون".[3]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم لم يشكروا، ولم يحتسِبوا في السرّاء والضرّاء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلّون بها على كمال القدرة والحكمة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٥.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مِن الصلة والصدقة وسائرِ المَبرّات ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ما يستحقّانه. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو لمَن بُسِط له، كما يُؤذِن به "الفاء".

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ ذاتَه، أو جهتَه، ويَقصدون[1] بمعروفهم إيّاه تعالى خالصًا، أو جهةَ التقرّب إليه، لا جهةً أخرى. ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ حيث حصّلوا بما بُسِط لهم النعيمَ المقيم.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾ زيادةً خاليةً عن العوض عند المعاملة. وقُرئ: "أَتَيْتُمْ" بالقَصر،[2] أي: غَشِيتموه، أو رَهِقتموه مِن إعطاء رِبًا ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالهم، ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يبارَك فيه. وقُرئ: "لِتُرْبُوا"،[3] أي: لِتَزيدوا، أو لِتَصيروا ذَوِي رِبًا.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ أي: تبتغون به وجهه تعالى خالصًا، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: ذَوو[4] الأضعاف مِن الثواب. ونظير "المُضعِف": "المُقْوِي" و"المُوسِرُ"، لِذي القوّة واليَسار، أو الذين ضَعّفوا/ ثوابَهم وأموالهم بالبركة. [٣١٦و]
وقُرئ بفتح "العين"،[5] وفي تغيير النظم الكريم والالتفاتِ مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾

---

١ ط س: أو يقصدون. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٤.
٤ م ط س: ذووا.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٣٩٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له تعالى لوازم الألوهيّة وخواصّها، ونفاها رأسًا عمّا اتّخذوه شركاء له تعالى مِن الأصنام وغيرها، مؤكِّدًا بالإنكار على ما دلّ عليه البرهان والعَيان ووقع عليه الوفاق، ثمّ استنتج منه تَنزّهَه عن الشركاء بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقد جُوّز أن يكون الموصول صفةً، والخبرُ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، والرابطُ قولُه تعالى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾؛ لأنّه بمعنى "مِن أفعاله".

و﴿مِن﴾ الأولى والثانية تُفيدان شُيوع الحُكم في جنس الشركاء والأفعال، والثالثةُ مزيدة لتعميم المنفيّ، وكلّ منها مستقلّة بالتأكيد. وقُرئ: "تُشرِكُونَ" بصيغة الخطاب.[1]

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْب، والمُوتانِ،[2] وكثرةِ الحَرْق والغرَق، وإخْفاقِ الغاصةِ،[3] ومَحقِ البركات، وكثرةِ المَضارّ، أو الضلالةِ والظلم. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ قُرى السواحل. وقُرئ: "وَالْبُحُورِ".[4] ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشُؤم معاصيهم، أو بكسبهم إيّاها.

وقيل: ظهَرَ الفساد في البَرّ بقتل قابيلَ أخاه هابيل، وفي البحر بأنّ جُلَنْدَى[5] كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصبًا.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[2] المُوتان -بالضمّ-: موتٌ يقع في الماشية. والمَوَتان -بالتحريك-: خلاف الحَيَوان. وقال الفرّاء: المَوَتان مِن الأرض: التي لم تُحيَ بعد. الصحاح للجوهري، «موت».

[3] الإخفاق: الخَيبة، والغاصة -بتخفيف الصاد المهملة، كـ"سادة"- جمع أو اسم جمع لـ"غائص"، وهو مَن ينزل لِقَعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه، فإنّه إذا لم يقع المطر لم يتكوّن اللؤلؤ في الصدَف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٧/١٢٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

[5] جُلَنْدَى بضمّ الجيم وفتح اللام، بعدها نون ساكنة، ودال مهملة، وهو مقصور، ويُمدّ، وهو المَلِك الذي ذُكر في قِصّة الخَضِر عليه السلام. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٧/١٢٤.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: بعض جزائه، فإنّ تمامه في الآخرة. و"اللام" للعِلّة، أو للعاقبة. وقُرئ: "لِنُذِيقَهُم" بـ"النون".[١] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّا كانوا عليه.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ۝٤٢﴾

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ ليشاهدوا آثارهم. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أنّ ما أصابهم لفُشوّ الشرك فيما بينهم، أو كان الشرك في أكثرهم / وما دونه مِن المعاصي في قليل منهم. [٣١٦ظ]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۝٤٣﴾

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: البليغِ الاستقامة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدِر أحَد على ردّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتِىَ﴾، أو بـ﴿مَرَدَّ﴾؛ لأنّه مصدر، والمعنى: لا يردّه الله تعالى لتعلّق إرادته القديمة بمَجيئه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله "يَتَصدَّعون"، أي: يتفرّقون؛ فريق في الجنّة، وفريق في السعير.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وَبالُ كفره، وهو النار المؤبَّدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يُسَوُّون منزلًا في الجنّة. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٥﴾

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ متعلّق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾.[٢] وقيل: بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾،[٣] أي: يتفرّقون بتفريق الله تعالى فريقين؛ ليجزيَ كلًّا منهما

---

[١] قرأ بها رَوح عن يعقوب وقُنبل عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

[٢] الروم، ٣٠/٤٣.

[٣] في الآية السابقة.

بحسب أعمالهم. وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصودَ بالذات أُبرِز ذلك في معرض الغاية، وعُبّر عنه بالفضل، لِما أنّ الإثابة بطريق التفضّل، لا الوجوبِ، وأشيرَ إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ عدم محبّته تعالى كناية عن بُغضه الموجِب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالةَ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ أي: الشمال والصَّبا والجَنوب، فإنّها رياح الرحمة، وأمّا الدَّبور فريح العذاب، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «اللّهمّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا».[1] وقُرئ: "الرِّيحَ" على إرادة الجنس.

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وهي المنافع التابعة لها. وقيل: الخِصْب التابع لنزول المطر المسبَّبِ عنها، أو الرَّوح الذي هو مع هبوبها. و"اللام" متعلّقة بـ﴿يُرْسِلَ﴾، والجملة معطوفة على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، كأنّه قيل: لِيبشّرَكم بها / ولِيذيقَكم، أو بمحذوف يُفهم مِن ذكر الإرسال، تقديرُه: [٣١٧و] ولِيذيقَكم وليكون كذا وكذا يُرسِلُها، لا لِأمرٍ آخر لا تعلّقَ له بمنافعكم.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بسَوقها ﴿بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيما ذُكر مِن الغايات الجليلة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاء كلّ رسول قومَه بما يخصّه مِن البيّنات كما جئتَ قومَك ببيّناتك. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ فصيحة، أي: فكذّبوهم فانتقمنا منهم. وإنّما وُضِع موضعَ ضميرهم الموصولُ للتنبيه على مكان المحذوف، والإشعارِ بكونه علّةً للانتقام.

---

[1] مسند أبي يعلى الموصلي، ٣٤١/٤ (٢٤٥٦)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢١٣/١١ (١١٥٣٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيدُ تشريف، وتكرمةٌ للمؤمنين، حيث جُعِلوا مستحقّين على الله تعالى أن ينصرهم، وإشعارٌ بأنّ الانتقام مِن الكفرة لأجلهم. وقد يوقف على ﴿حَقًّا﴾ على أنّه متعلّق بالانتقام.

ولعلّ توسيطَ الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحِق مِن أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوبِ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] بمقابلة النعَم المعدودة المَنوطة بإرسالها، كيلا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك الأمم مِن الانتقام.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أُجمِل فيما سبَق مِن أحوال الرياح، ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متّصلًا تارة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في جوّها ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائرًا وواقفًا، مُطبقًا وغيرَ مُطبق، مِن جانب دون جانب، إلى غير ذلك.

[٣١٧ظ] ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ تارةً أُخرى / أي: قِطَعًا. وقُرئ بسكون "السين"[2] على أنّه مخفَّف، جمع "كِسفة"، أو مصدرٌ وُصِف به، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتَين.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: بلادِهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فاجَئُوا الاستبشار بمجيء الخِصْب.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: وإنّ الشأن كانوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي: المطر ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قرأ بها أبو جعفر وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

والإيذانِ بطول عهدهم بالمطر، واستحكامِ يأسهم منه. وقيل: الضمير للمطر، أو السحابِ، أو الإرسالِ. وقيل: للكِسْف على القراءة بالسكون، وليس بواضح، وأقرب مِن ذلك أن يكون الضمير للاستبشار، و﴿مِن﴾ متعلّقةٌ بـ﴿يُنَزَّلَ﴾ لِيفيد سرعة تقلّب قلوبهم مِن اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانَيهما ببيان اتّصال اليأس بالتنزيل المتّصل بالاستبشار بشهادة "إذا" الفجائيّة ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ خبر ﴿كَانُوا۟﴾، و"اللام" فارقة، أي: آيسين.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المترتّبة على تنزيل المطر مِن النبات والأشجار وأنواع الثمار. و"الفاء" للدلالة على سرعة ترتّبها عليه. وقُرئ: "أَثَرِ"[١] بالتوحيد. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْىِ﴾ أي: الله تعالى ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ في حيّز النصب بنَزع الخافض. و﴿كَيْفَ﴾ معلّق لـ﴿ٱنظُرْ﴾، أي: فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها. وقيل: على الحاليّة بالتأويل، وأيًّا ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه على عِظَم قدرته تعالى، وسَعة رحمته، مع ما فيه مِن التمهيد لِما يعقُبه مِن أمر البعث. وقُرئ: "تُحْيِي"[٢] بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيمَ الشأنِ الذي ذُكر بعضُ شئونه ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَقادر على إحيائهم، فإنّه إحداث لمِثْل ما كان في موادّ أبدانهم مِن القوى الحيوانيّة، كما أنّ إحياء الأرض / إحداث لمِثل[٣] ما كان فيها مِن القوى النباتيّة، أو لَمُحييهم البتّة. [٣١٨و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي مِن جملتها إحياؤهم لِما أنّ نسبة قدرته إلى الكلّ سواء.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٥/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٦.

٣ س - لمثل.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ أي: الأثرَ المدلول عليه بالآثار، أو النباتَ المعبَّر عنه بالآثار، فإنّه اسم جنس يعمّ القليلَ والكثير، ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد خُضرته. وقد جُوّز أن يكون الضمير للسحاب؛ لأنّه إذا كان مُصفرًّا لم يُمطر،[١] ولا يخفى بُعده.

و"اللام" في ﴿وَلَئِنْ﴾ موطِّئة للقسَم دخلت على حرف الشرط، و"الفاء" في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فصيحة، و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَّظَلُّوا﴾ لام جواب القسَم السادِّ مسدَّ الجوابَين، أي: وباللهِ لئن أرسلنا ريحًا حارّةً أو باردةً فضربَتْ زرعهم بالصُّفار فرأَوه مُصفرًّا ليَظلُّنَّ ﴿مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ مِن غير تلعثُم.

وفيه مِن ذمّهم بعدم تثبّتهم وسرعةِ تزلزلهم بين طرفَي الإفراط والتفريط ما لا يخفى، حيث كان الواجب عليهم أن يتوكّلوا على الله تعالى في كلّ حال، ويلجَئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القَطر، ولا ييأسوا مِن رَوح الله تعالى، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته، ولا يفرّطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زَرعَهم آفةٌ، ولا يكفروا بنَعمائه، فعكسوا الأمرَ، وأبَوا ما يُجديهم، وأتَوا بما يُرديهم.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٢﴾

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لِما أنّهم مثلهم، لانسداد مشاعرهم عن الحقّ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ تقييد الحكم بما ذُكر لبيان كمال سوء حال الكفرة، والتنبيهِ على أنّهم جامعون لخَصلتَي السوء؛ نُبُوِّ أسماعهم عن الحقّ، وإعراضِهم عن الإصغاء إليه، ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك، فكيف وقد جمعوهما؟ فإنّ الأصمّ المُقبِل إلى المتكلِّم / ربّما يَفطَنُ مِن أوضاعه وحركاته [٣١٨ظ] بشيء مِن كلامه، وإن لم يسمعه أصلًا، وأمّا إذا كان مُعرضًا عنه فلا يكاد يَفهم منه شيئًا. وقُرئ بـ"الياء" المفتوحة ورفعِ ﴿الصُّمَّ﴾.[٢]

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٢١٠.

٢ أي: "وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ". قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٩.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٥٣﴾

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ سمُّوا عُميًا إمّا لفقدهم المقصودَ الحقيقي مِن الإبصار، أو لِعَمَى قلوبهم. وقُرئ: "تَهْدِي الْعُمْيَ".[١]

﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسمِع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنّ إيمانهم يدعوهم إلى التدبّر فيها وتلقّيها بالقبول، أو إلّا مَن يشارف الإيمانَ بها، ويُقبِل عليها إقبالًا لائقًا، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مُنقادون لِما تأمرهم به[٢] مِن الحقّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ابتدأكم ضعفاء، وجعلَ الضعف أساسَ أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٢٨/٤]، أي: خَلَقكم مِن أصل ضعيف، هو النطفة.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلم، أو تَعلّقَ بأبدانكم الروحُ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السِّنُّ. وقُرئ بضمّ "الضاد" في الكلّ،[٣] وهو أقوى، لقول ابن عمر رضي الله عنهما: «قرأتُها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأقرأني: "مِن ضُعْفٍ"».[٤] وهما لغتان، كـ"الفَقر" و"الفُقر". والتنكير مع التكرير لأنّ المتقدّم غير المتأخّر.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذكر مِن الضعف والقوّة والشيبة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ المبالغ في العِلم والقدرة، فإنّ الترديد فيما ذُكر مِن الأطوار المختلفة مِن أوضح دلائل العِلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾

---

١ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٣٩/٢.
٢ س - به.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٤٥/٢.
٤ سنن أبي داود، ١٠٥/٦ (٣٩٧٨)؛ سنن الترمذي، ١٨٩/٥ (٢٩٣٦).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ، سمّيت بها لأنّها تقوم في آخر ساعة مِن ساعات الدنيا، أو لأنّها تقع بغتةً، وصارت عَلَمًا لها، كـ"النجم" للثريّا، و"الكوكب" للزُّهرة.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ أي: في القبور، أو في الدنيا، والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ لُبثهم مُغيًا بيوم البعث كما سيأتي، وليس لُبثهم في الدنيا كذلك. وقيل: فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم. وفي الحديث: «ما بين فَناء الدنيا والبعث أربعون»،[1] وهو محتمِل للساعات والأيّام والأعوام. وقيل: لا يُعلم أهِي أربعون سنةً، أو أربعون ألفَ سنةٍ.

﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلّوا مدّةَ لبثهم نسيانًا أو كذِبًا أو تخمينًا، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ مِثل ذلك الصَّرف كانوا يُصرفون في الدنيا عن الحقّ والصدق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ في الدنيا مِن الملائكة والإنس: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ / فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه، أو قضائه، أو ما كتبه وعيّنه، أو في اللوح، أو القرآن، [٣١٩و] وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون، ١٠٠/٢٣]. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردّوا بذلك ما قالوه، وأيّدوه باليمين، كأنّهم مِن فَرْط حَيرتهم لم يدروا أنّ ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه، وكانوا يسمعون أنّه يكون بعد فناء الخلق كافّةً، ويقدّرون لذلك زمانًا مديدًا، وإن لم يعتقدوا تحقُّقه.

فرَدّ العالِمون مقالتَهم ونبّهوهم على أنّهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها، وبكّتوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢١٠/٤. وقال الوليّ العراقي: لم أقف عليه هكذا. وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. وفي الصحيحين [صحيح البخاري، ١٢٦/٦ (٤٨١٤)؛ صحيح مسلم، ٢٢٧٠/٤ (٢٩٥٥)] عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما بين النفختين أربعون»، قالوا: «يا أبا هريرة، أربعون سنة؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون شهرًا؟» قال: «أبَيت»، قالوا: «أربعون يومًا؟» قال: «أبَيت». الفتح السماوي للمناوي، ٩٠٩/٢.

الذي كنتم توعدون في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حقّ، فتستعجلون بها استهزاءً، و"الفاء" جواب شرطٍ محذوف، كما في قول مَن قال:

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنا ثمّ القُفول، فقد جِئنا خُراسانا[1]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عُذرُهم. وقُرِئ: "تَنفَعُ" بـ"التاء"[2] محافظةً على ظاهر اللفظ وإن توسّط بينهما فاصل. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم -أي: إزالةَ عَتْبهم- مِن التوبة والطاعة كما دُعُوا إليه في الدنيا، مِن قولهم: "استعتَبني فلان، فأعْتَبتُه"، أي: استرضاني فأرضَيته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وبالله لقد بيّنّا لهم كلّ حال، ووصفنا لهم كلّ صفة، كأنّها في غرابتها مَثَل، وقَصصنا عليهم كلّ قِصّة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقِصّتهم، وما يقولون وما يقال لهم ويُفعَل بهم مِن ردّ اعتذارِهم.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مِن آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لِفَرْط عُتوّهم وعِنادهم وقَساوة قلوبهم مُخاطِبين للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين:[3] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: مزوِّرون.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الطبعِ الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يَطلبون العِلم، ولا يتحرَّون الحقَّ؛ بل يُصِرّون على خرافاتٍ اعتقدوها، وتُرَّهات ابتدعوها، فإنّ الجهل المركّب يَمنع إدراك الحقّ، ويوجِب تكذيب المُحِقّ.

---

[1] للعبّاس بن الأحنف في ديوانه، ص ٢٧٩. قاله لمّا خرج مع الرشيد إلى خراسان.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٤٦/٢.

[3] ط س: وللمؤمنين.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تشاهد منهم مِن الأقوال الباطلة والأفعال السيّئة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ / وقد وعَدك بالنصرة وإظهارِ الدين، وإعلاءِ كلمة الحقّ، ولا بدّ مِن إنجازه والوفاءِ به لا محالةَ. [٣١٩ظ]

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يَحملنّك على الخِفّة والقَلَق ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بما تتلو عليهم مِن الآيات البيّنة بتكذيبهم إيّاها، وإيذائهم لك بأباطِيلهم التي مِن جملتها قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾،[١] فإنّهم شاكّون ضالّون، ولا يُستبدَع منهم أمثال ذلك. وقُرئ بـ"النون" المخفّفة.[٢] وقُرئ: "وَلَا يَسْتَحِقَّنَّكَ"[٣] مِن "الاستِحقاق"، أي: لا يَفتِننّك فيملِكوك ويكونوا أحقَّ بك مِن المؤمنين.

وأيًّا ما كان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهيًا للكفرة عن استخفافه[٤] عليه السلام واستحقاقه لكنّه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن التأثّر مِن استخفافهم، والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة، ٥/٨].

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الروم كان له مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ ملَك سبّح الله تعالى بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيّع في يومه وليلته».[٥]

---

١ الروم، ٣٠/٥٨.

٢ أي: "وَلَا يَسْتَخِفَنْكَ". قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨٨.

٤ س: استحفافه.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٩١؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤٢٧. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الروم

مكيةٌ كما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير ﵃، بل قال ابن عطيةَ وغيرُه: لا خلافَ في مكِّيتها[1]، ولم يستثنوا منها شيئاً.

وقال الحسن: هي مكيةٌ إلّا قولَه تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآيةَ [١٧]، وهو خلافُ مذهب الجمهور والتفسيرِ المَرْضيِّ كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه.

وآيها ستُّون، وعند بعضٍ تسعٌ وخمسون.

ووجهُ اتِّصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطيُّ: أنها خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وافتُتِحَتْ هذه بوعدِ مَن غُلِبَ من أهل الكتاب بالغلبة والنصر وفَرَحِ المؤمنين بذلك، وأنَّ الدولة لأهل الجهاد فيه، ولا يضرُّهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة، هذا مع تَوَاخيها لِمَا قبلها في الافتتاح بـ «ألم»[2].

ولا يخفى أنَّ قتال أهل الكتاب ليس من المجاهَدةِ في الله عزَّ وجلَّ، وبذلك تَضْعُفُ المناسَبةُ، ومَن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أنَّ ما افتتحت به هذه السورةُ متضمِّناً[3] نصرةَ المؤمنين بدَفْعِ شماتة أعدائهم المشركين وهم لم يزالوا مجاهدين في الله تعالى ولأجله ولوجهه عز وجل، ولا يضرُّ عدمُ جهادهم بالسيف عند النزول، وهذا في المناسبة أَوْجَهُ فيما أرى من الوجه الذي ذكره الجلال، فتأمَّلْ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٢٧.

(٢) تناسق الدرر ص٧٢-٧٣.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والوجه: متضمن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ في أمثاله من الفواتح الكريمة ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ هي قبيلةٌ عظيمةٌ من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث بن[١] نوح عليه السلام. وقيل: من ولد يافان بن يافث. وقيل: من ولد رعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وقال الجوهري: من ولد روم بن عيص المذكور[٢]. صارت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله ﷺ، فغلبتْها وقهرتْها فارس.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقْرَبِها. والمراد بالأرض أرضُ الروم، على أنَّ «أل» نائبةٌ منابَ الضمير المضاف إليه، والأقربيةُ بالنظر إلى أهل مكة لأن الكلام معهم. أو المراد بها أرضُ مكةَ ونواحيها لأنها الأرضُ المعهودةُ عندهم، والأقربيةُ بالنظر إلى الروم. أو المراد بالأرض أرضُ الروم لذِكْرِهم والأقربيةُ بالنظر إلى عدوِّهم - أعني فارس - لحديثِ المغلوبية.

وقد جاء من طرقٍ عديدةٍ أنَّ الحرب وقع بين أذرعات وبصرى. وقال ابن عباس والسدي: بالأردنّ وفلسطين. وقال مجاهد: بالجزيرة، يعني الجزيرةَ العمريةَ لا جزيرةَ العرب. وجُعِلَ كلُّ قولٍ موافقاً لوجهٍ من الأَوْجُه الثلاثة على الترتيب، وصحَّح ابنُ حجر القولَ الأول.

وقرأ الكلبي: «في أَداني الأرض»[٣].

﴿وَهُم﴾ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أي: غلب فارسَ إياهم، على أنه مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، أو إلى نائب فاعله إن كان مصدراً لمجهولٍ، ورجَّحه بعضهم بموافقته للنظم الجليل.

---

(١) قوله: ابن، ساقط من (م).

(٢) الصحاح (روم).

(٣) القراءات الشاذة ص١١٦.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابنُ عمر ﷺ ومعاويةُ بن قرَّةَ: «غَلْبِهم» بسكون اللام[١]. وعن أبي عمرو أنه قرأ: «غِلَابِهم» على وزن كتاب[٢]، والكلُّ مصادرُ غَلَبَ.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ وفي ذلك تأكيدٌ لِمَا يُفْهَمُ من السين، ولكونِ مغلوبِهم مَن كان غالِبَهم، وفي بناء الجملة على الضمير تقويةٌ للحكم، أي: سيغلبون فارسَ ألبتة.

وقوله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلِّق بـ «يغلبون»[٣] أيضاً.

والبِضْعُ ما بين الثلاث إلى العشرة، عن الأصمعي.

وفي «المُجْمَل»: ما بين الواحد إلى التسعة[٤].

وقيل: هو ما فوق الخمس ودون العشرة[٥].

وقال المبرِّد: ما بين العقدين في جميع الأعداد.

روي أنَّ فارس غزوا الروم، فوافَوْهم بأذرعات وبصرى فغلبوا عليهم، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكة، فشقَّ ذلك عليهم، وكان ﷺ يكره أن يظهر الأُمِّيون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكة وشَمِتوا، فلقُوا أصحاب النبيِّ ﷺ فقالوا: إنكم أهلُ كتاب والنصارى أهلُ كتاب، وقد ظهر إخوانُنا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم[٦]. فأنزل الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ الآيات، فخرج أبو بكر ﷺ إلى الكفار فقال: أَفَرِحْتُم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا ولا يُقِرَّنَّ الله تعالى عينكم، فواللهِ تعالى ليظهرنَّ الرومُ على فارس، أخبرنا بذلك نبيُّنا ﷺ. فقام

(١) القراءات الشاذة ١١٦، والبحر ٧/ ١٦١، والكلام منه.
(٢) البحر ٧/ ١٦٢.
(٣) في (م): بسيغلبون.
(٤) مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ١/ ١٢٧.
(٥) في (م): العشر.
(٦) بعدها في (م): الله.

إليه أبيّ بنُ خلف فقال: كذبتَ. فقال له أبو بكر ﷺ: أنت أكْذَبُ يا عدوَّ الله، تعال أُناحِبْكَ[(١)]، عشر قلائصَ منِّي وعشر قلائصَ منك، فإنْ ظهرتِ الرومُ على فارس غَرِمْتَ، وإن ظهرتْ فارسُ غَرِمْتُ، إلى ثلاث سنين. فناحَبَه ثم جاء أبو بكر إلى النبيِّ ﷺ فأخبره، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضْعُ ما بين الثلاث إلى التسع، فزايِدْه في الخَطَر[(٢)]، ومادَّه في الأَجَل» فخرج أبو بكر فلقي أبيًّا فقال: لعلك نَدِمْتَ؟ قال: لا، تعال أُزايِدْكَ في الخَطَر وأمادَّك في الأَجَل، فاجْعَلْها مئةَ قلوصٍ إلى تسع سنين. قال: قد فعلتُ. فلمَّا أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبيٌّ كفيلاً بالخطر إن غُلب، فكفل به ابنُه عبد الرحمن، فلمَّا أراد أبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً، ومات أبيٌّ من جُرْحٍ جَرَحَه النبيُّ ﷺ، وظهرت الرومُ على فارس لمَّا دخلت السنة السابعة[(٣)]. وجاء في بعض الروايات أنهم ظهروا عليهم يوم الحديبية[(٤)]. وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه أنه لمَّا كان يومُ بدرٍ ظهرت الرومُ على فارس[(٥)]. فأخذ أبو بكر ﷺ الخَطَر من وَرَثةِ أبيٍّ وجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «تصدَّق به»[(٦)].

وفي رواية أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هذا السحتُ، تصدَّق به»[(٧)].

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: أناحبك، أي: أراهنك. اهـ منه.

(٢) الخطر بالتحريك: الرهن، وما يخاطر عليه. النهاية (خطر).

(٣) ذكر هذا الخبر البغوي في تفسيره ٣/ ٤٧٥-٤٧٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢١٤، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٧/ ١١١، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٥٠ عن عكرمة دون قوله: فلما أراد أبو بكر الهجرة... إلخ. وقصة أبي بكر في المراهنة أخرجها الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وسياقها مخالف لسياق هذه القصة، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٨.

(٤) هو قول عكرمة والزهري وقتادة كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وورد ذلك أيضاً ضمن الخبر السالف عند البغوي والزمخشري والبيضاوي.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. والقول بأن نصر الروم على الفرس كان يوم بدر هو قول ابن عباس والثوري والسدي كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٦) الكشاف ٣/ ٢١٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١١١.

(٧) الدر المنثور ٥/ ١٥٠، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية بإسناده عن ابن أبي حاتم.

واستشكل بأنه إن كان ذلك قبل تحريم القمار كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقيُّ عن قتادة[١]، والترمذيُّ وصحَّحه عن نِيَار بن مُكْرَم السلميِّ[٢]، وهو الظاهرُ لأنَّ السورة مكيةٌ وتحريمُ الخمر والميسر من آخر القرآن نزولاً، فما وجهُ كونه سحتاً؟ وإن كان بعد التحريم فكيف يؤمَرُ بالتصدُّقِ بالحرام الغيرِ المختلطِ بغيره وصاحبُه معلومٌ، وفي مثل ذلك يجبُ ردُّ المالِ عليه؟.

فإن قيل: إنه مالُ حربيٍّ، والحادثةُ وقعت بمكة، وهي قبل الفتح دارُ حربٍ، والعقودُ الفاسدة تجوز فيها عند أبي حنيفة ومحمدٍ عليهما الرحمة، لم يظهر كونُه سحتاً.

وكأني بك تمنع صحة هذه الرواية، وإذا لم تَثْبُتْ صحتُها يبقى الأمرُ بالتصدُّق، وحينئذٍ يجوز أن يكون لمصلحةٍ رآها رسول الله ﷺ، وهو تصدُّقٌ بحلالٍ؛ أما إذا كان ذلك قبل تحريم القمار كما هو المعوَّلُ عليه فظاهرٌ، وأمَّا إن كان بعد التحريم فلأنَّ أبا حنيفة ومحمداً قالا بجواز العقود الفاسدة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجَّا على صحة ذلك بما وقع من أبي بكر في هذه القصة، وقد تضافرت الرواياتُ أنه ﷺ لم ينكر عليه المناحَبَةَ[٣]، وإنما أنكر عليه التأجيلَ بثلاثِ سنين، وأرشده إلى أن يُزايِدَهم.

وربما يقال على تقدير الصحة: إنَّ السُّحْتَ ليس بمعنى الحرام، بل بمعنى ما يكون سببًا للعار والنقص في المروءة حتى كأنه يسحتُها، أي: يستأصلُها، كما في قوله ﷺ: «كَسْبُ الحجَّام سُحْتٌ»[٤] فقد قال الراغب: إنَّ هذا لكونه ساحتاً

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥٤، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٣٣-٣٣٤، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي.
(٢) سنن الترمذي (٣١٩٤)، وفيه: الأسلمي، وهو الصواب.
(٣) ينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي (٣١٩٣)، وفيه أن المشركين قالوا لأبي بكر: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أَجَل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» أراه قال: العشر. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٤) أخرجه ابن حبان (٤٩٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للمروءة لا للدين[١]، فكأنه ﷺ رأى أنَّ تموُّلَ ذلك وإن كان حلالاً مخلٌّ بمروءة أبي بكرٍ رضي الله عنه، فأطلق عليه السحت، ولا يأبى ذلك إذنُه عليه الصلاة والسلام في المناحبة؛ لِمَا أنها لا تضرُّ بالمروءة أصلاً، وفيها من إظهار اليقين بصِدْقِ ما جاء به النبيُّ ﷺ ما فيها، وكان عليه الصلاة والسلام على ثقةٍ من صلاح الصدِّيق رضي الله عنه، وأنه إذا أمره بالتصدُّق بما يأخذه ونهاه عن تموُّله لم يخالفه.

وقيل: السحتُ هنا بمعنى ما لا شيء على مَن استهلكه، وهو أحدُ إطلاقاته كما في «النهاية»[٢]، والمرادُ: هذا الذي لا شيء عليكَ إذا استَهْلَكْته وتصرَّفتَ فيه حَسْبَما تشاء تَصدَّقْ به، كأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أَخبر الصدِّيق رضي الله عنه بأنه لا مانع له من التصرُّفِ فيه حَسْبَما يريد أَرْشَدَه إلى ما هو الأَوْلى والأَحْرى، فقال: «تصدَّق به». وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ السحت كما في «النهاية» يَرِدُ في الكلام بمعنى الحرام مرةً، وبمعنى المكروه أخرى، ويُستدلُّ على ذلك بالقرائن[٣]، فيجوز أن يكون في الخبر - إذا صحَّ فيه - بمعنى المكروه؛ إذ الأمرُ بالتصدُّق يمنع أن يكون بمعنى الحرام، فيتعيَّنُ كونُه بمعنى المكروه. وفيه نظر.

وأمَّا تفسيرُ السحت بالحرام، والتزامُ القول بجواز التصدُّق بالحرام لهذا الخبر، فمما لا يُلتفَتُ إليه أصلاً، فتأمل.

وكانت كلتا الغلبتين في سلطنة خسرو برويز، قال في «روضة الصفا»[٤] ما ترجمته: إنه لمَّا مضى من سلطنة خسرو أربعةَ عَشَرَ سنةً غدر الروميون بمَلِكِهم وقتلوه مع ابنه بناطوس، وهرب ابنُه الآخر إلى خسرو، فجهَّز معه ثلاثةَ رؤساء أُولي قَدْرٍ رفيعٍ مع عسكرٍ عظيم، فدخلوا بلاد الشام وفلسطين وبيتَ المقدس، وأسروا مَن فيها من الأساقفة وغيرِهم، وأرسلوا إلى خسرو الصليب الذي كان مدفوناً

(١) مفردات الراغب (سحت).
(٢) مادة (سحت).
(٣) النهاية (سحت).
(٤) روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، فارسي لمحمد بن خاوند شاه بن محمود، المتوفى سنة (٩٠٣هـ). كشف الخفاء ١/٩٢٦.

عندهم في تابوتٍ من ذهب، وكذلك استَوْلَوا على الإسكندرية وبلادِ النوبة، إلى أن وصلوا إلى نواحي القسطنطينية، وأكثروا الخراب، وجهدوا على إطاعة الروميين لابن قيصر فلم تحصل.

قيل: إنَّ الروميين جعلوا عليهم حاكماً شخصاً اسمه: هرقل، وكان سلطاناً عادلاً يخاف الله تعالى، فلمَّا رأى تخريبَ فارس قد شاع في بلاد الروم من النهب والقتل تضرَّع وبكى وسأل الله تعالى تخليصَ الروميين، فصادف دعاؤه هدف الإجابة، فرأى في ليالي متعدِّدةٍ في منامه أنه قد جيء إليه بخسرو في عنقه سلسلةٌ، وقيل له: عجِّل بمحاربة برويز لأنه يكون لك الظَّفرُ والنصرةُ، فجمع هرقلُ عسكره بسبب تلك الرؤيا وتوجَّه من قسطنطينية إلى نصيبين، فسمع خسرو، فجهَّز اثني عشر ألفاً مع أميرٍ من أمرائه، فقاتلهم[1] هرقلُ فكسرهم وقتل منهم تسعةَ آلاف مع رؤسائهم. وفي بعض الروايات أنهم ربطوا خيولهم بالمدائن.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سبب ظهور الروم على فارس أنَّ كسرى بعث إلى أميره شهريار، وهو الذي ولَّاه على محاربة الروم: أن اقتل أخاك فرخان لمقالةٍ قالها، وهو قوله: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى. فلم يقتله، فبعث إلى فارس: إنِّي قد عزلتُ شهريار وولَّيتُ أخاه فرخان، فاطَّلع فرخان على حقيقة الحال فردَّ الملك إلى أخيه، وكتب شهريار إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى، فغلبت الرومُ فارس، وجاء الخبر ففرح المسلمون[2]، وكان ذلك من الآيات البيِّنات الباهرة الشاهدةِ بصحة النبوَّةِ، وكونِ القرآن من عند الله عز وجل لِمَا في ذلك من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى العليم الخبير، وقد صحَّ أنه أسلم عند ذلك ناسٌ كثير[3].

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابنُ عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدريُّ والحسن ومعاويةُ بن قرة: «غَلَبتِ الروم» على البناء للفاعل و: «سيُغْلَبون» على

---

(١) في (م): فقابلهم.

(٢) أورده البغوي ٣/ ٤٧٦-٤٧٧ عن عكرمة، وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ١٦١ دون نسبة.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وقد سلف تخريجه قريباً.

البناء للمفعول[1]، والمعنى على ما قيل: إنَّ الروم غَلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعضَ بلادهم، وإضافة «غلب» عليه من إضافة المصدر إلى الفاعل.

ووفِّق بين القراءتين بأنَّ الآية نزلت مرتين: مرةً بمكة على قراءة الجمهور، ومرةً يومَ بدرٍ كما رواه الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي سعيد على هذه القراءة[2].

وقال بعض الأجلَّة: الصوابُ أن يبقى نزولُها على ظاهره، ويرادَ بغلب المسلمين إياهم ما كان في غزوة مؤتة، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمانٍ، وذلك قريبٌ من التاريخ الذي ذكروه لنزول الآية أولاً، ولا حاجةَ إلى تعدُّد النزول، فإنه يجوز تخالُفُ معنى القراءتين إذا لم يتناقضا، وكونُ فريقٍ غالباً ومغلوباً في زمانين غيرُ متدافع، فتأمَّل. انتهى.

ولا يخفى على مَن سَبَرَ السِّيرَ أنَّ هذا مما لا يكاد يتسنَّى؛ لأن الروم لم يغلبهم المسلمون في تلك الغزوة، بل انصرفوا عنهم بعد أن أُصيبوا بجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وعباد بن قيس في آخرين من الصحابة ﷺ أجمعين كالمغلوبين. بل ذَكَر ابنُ هشام أنهم لمَّا أَتَوا المدينةَ جعل الناس يَحثُون على الجيش الترابَ ويقولون: يا فُرَّار، فَرَرْتُم في سبيل الله تعالى. وكان رسول الله ﷺ يقول: «ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى»، ورَوَى أنَّ أمَّ سلمةَ قالت لامرأة سَلَمَة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالي لا أرى سلمةَ يحضُر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ فقالت: والله ما يستطيعُ أن يخرج، كلَّما خرج صاح به الناس: يا فرَّار، فررتُم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ولم يخرج. وذَكَر أبياتاً لقيس اليعمريِّ يعتذر فيها مما صنع يومئذ وصنع الناسُ، وقد تضمَّنت ـ كما قال ـ بيانَ أنَّ القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وأنَّ خالد بن الوليد انحاز بمن معه[3]. على أنَّ فيما ذُكر أنه الصواب بحثاً بعدُ، فلعل الأَوْلَى في التوفيق إذا صحَّت هذه القراءةُ ما ذكر أوَّلاً، فتأمل.

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٦١.

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٢)، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨٢-٣٨٣، والخبران أخرجهما البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٧٤-٣٧٥ عن عروة وعن أم سلمة.

وفي «البحر»: كان شيخُنا الأستاذ أبو جعفر بنُ الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استَخْرجَ من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ إلى ﴿سِنِينَ﴾ افتتاحَ المسلمين بيتَ المقدس معيَّناً زمانه ويومَه، وكان إذ ذاك بيتُ المقدس قد غَلَبتْ عليه النصارى، وأنَّ ابن برجان مات قبل الوقت الذي عيَّنه للفتح، وأنه بعد موته بزمانٍ افتتحه المسلمون في الوقت الذي عيَّنه أبو الحكم، وكان أبو جعفر يعتقد في أبي الحكم هذا أنه كان يتطلَّع على أشياء من المغيبات يستخرجُها من كتاب الله تعالى(١). انتهى.

واستخراجُ بعض العارفين كمحيي الدين قدِّس سرُّه والعراقيِّ وغيرهم المغيَّبات من القرآن العظيم أمرٌ شهيرٌ، وهو مبنيٌّ على قواعدَ حسابيةٍ وأعمالٍ حَرْفيةٍ لم يَرِدْ شيءٌ منها عن سَلَف الأمة، ولا حَجْرَ على فضل الله عز وجل، وكتابُ الله تعالى فوقَ ما يخطر للبشر، وقد سُئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: هل أسرَّ إليكم رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن غيركم؟ فقال: لا، إلَّا أنْ يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه(٢).

هذا ونسألُ الله سبحانه أن يوفِّقنا لفَهْمِ أسرار كتابه بحرمةِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الحالة ومن بعدها، وهو حاصلُ ما قيل، أي: من قبل كونهم غالبين وهو وقتُ كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقتُ كونهم غالبين. وتقديمُ الخبر للتخصيص، والمعنى: إنَّ كلًّا من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخِراً ليس إلا بأمر الله تعالى شأنُه وقضائه عز وجل ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقرأ أبو السمال والجحدريُّ عن العقيليِّ: «مِن قبلٍ ومِن بعدٍ» بالكسر والتنوين فيهما(٣)، فليس هناك مضافٌ إليه مقدَّرٌ أصلاً على المشهور، كأنه قيل: لله الأمرُ قبلاً وبَعْداً، أي: في زمانٍ متقدِّمٍ وفي زمانٍ متأخِّرٍ، وحذف بعضهم الموصوف(٤).

(١) البحر ٣/ ١٦٢، وقد سلفت هذه القصة والكلام عليها ١/ ١١٠-١١١.
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٣٠٤٧) و(٦٩٠٣).
(٣) البحر ٧/ ١٦٢.
(٤) أي: من متقدمٍ ومن متأخر. إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٦٤.

وذكر السكاكيُّ[١] أن المضاف إليه مقدَّرٌ في مثل ذلك أيضاً والتنوينُ عوضٌ عنه.

وجوَّز الفرَّاء الكسر من غير تنوين[٢]. وقال الزجَّاج: إنه خطأٌ؛ لأنه إمَّا أن لا يقدَّر فيه الإضافةُ فينوَّنَ، أو يقدَّر فيُبْنَى على الضم، وأمَّا تقديرُ لفظه قياساً على قوله:

بـيـن ذراعَـيْ وجـبـهـةِ الأسـدِ

فقياسٌ مع الفارق؛ لذِكْرِه فيه بعدُ، وما نحن فيه ليس كذلك[٣].

وقال النحاس[٤]: للفرَّاء في كتابه في القرآن أشياءُ كثيرةُ الغلط، منها أنه زعم أنه يجوز: «من قبلِ ومن بعدِ» بالكسر بلا تنوين، وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان، أي: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ.

وذهب إلى قول الفرَّاء ابنُ هشام في بعض كتبه[٥]. وحكى الكسائي عن بعض بني أسد: «لله الأمرُ من قبلٍ ومن بعدُ» على أنَّ الأول مخفوضٌ منوَّنٌ والثاني مضمومٌ بلا تنوين[٦].

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: ويومَ إذ يغلبُ الرومُ فارساً ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغَيْظِ مَن شَمِتَ بهم[٧] من كفار مكة، وكونِ ذلك مما يُتفاءل به لغلبة المؤمنين على الكفار.

وقيل: نصرُ الله تعالى صِدْقُ المؤمنين فيما أَخبروا به المشركين من غَلَبَةِ الروم على فارس.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ١٦٢، والكلام منه.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٠، وحاشية الشهاب ٧/ ١١٢.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٦-١٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٢، والبيت للفرزدق كما في الكتاب ١/ ١٨٠، والمقتضب ٤/ ٢٢٩، والخزانة ٢/ ٣١٩-٣٢٠، ودون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢، وللزجاج ٤/ ١٧٧، وصدره:
يـا مَـن رأى عـارضـاً أُسـرُّ بـه
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢-٢٦٤.
(٥) حاشية الشهاب ٧/ ١١٢.
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٠، والبحر ٧/ ١٦٢.
(٧) في الأصل و(م): شمتهم، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٥٠.

وقيل: نصرُه عزَّ وجلَّ أنه ولَّى بعضَ الظالمين بعضاً، وفرَّق بين كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا، وقلَّل كلٌّ منهما شوكةَ الآخر.

وعن أبي سعيد الخدريِّ أنه وافق ذلك يومَ بدر، وفيه من نصر الله تعالى العزيز للمؤمنين وفَرَحِهم بذلك مالا يخفى.

والأولُ أنسبُ لقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يشاء أن ينصره من عباده على عدوِّه ويغلِّبه عليه، فإنه استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون قوله تعالى: (لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ).

والظاهر أنَّ «يوم» متعلِّقٌ بـ «يفرح» وكذا «بنَصْرِ»، وجوِّز تعلُّقُ «يوم» به، وكذا جوِّز تعلُّق «بنصر» بـ «المؤمنين». وقيل: «يومئذ» عطفٌ على «قبلُ» أو «بعد»، كأنه حَصَر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المبالغُ في العزَّة والغلبة، فلا يُعْجِزُه مَن يشاء أن يَنصر عليه كائناً مَن كان ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ المبالغُ في الرحمة، فينصرُ مَن يشاء أن ينصره أيَّ فريقٍ كان.

والمراد بالرحمة هنا هي الدنيويةُ، أمَّا على القراءة المشهورة فظاهرٌ لأنَّ كِلَا الفريقين لا يستحقُّ الرحمة الأخروية، وأمَّا على القراءة الأخيرة فلأنَّ المسلمين وإن كانوا مستحقِّين لها، لكن المراد ها هنا نصرُهم الذي هو من آثار الرحمة الدنيوية. وتقديمُ وَصْفِ «العزيز» لتقدُّمه في الاعتبار.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة المتقدِّمة من قوله تعالى: (سَيَغْلِبُونَ) وقولِه سبحانه: (يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ) ويقال له: المؤكِّد لنفسه؛ لأن ذلك في معنى الوعد، وعاملُه محذوفٌ وجوباً، كأنه قيل: وَعَدَ الله تعالى ذلك وَعْداً.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيَّ وَعْدٍ كان مما يتعلَّق بالدنيا والآخرة؛ لِمَا في خُلْفِه من النقص المستحيلِ عليه عز وجل. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار للتعليل الحكميِّ وتفخيمِه، والجملةُ استئنافٌ مقرِّرٌ لمعنى المصدر، وجوِّز أن تكون حالاً منه، فيكون كالمصدر الموصوف، كأنه سبحانه يقول: وَعَدَ اللهُ تعالى وَعْداً غيرَ مخلفٍ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ أنه تعالى لا يُخلِفُ وَعْدَه؛ لجهلهم بشؤونه عز وجل، وعدمِ تفكُّرِهم فيما يجب له جلَّ شأنُه وما يستحيلُ عليه سبحانه، أو: لا يعلمون ما سبق من شؤونه جل وعلا. وقيل: لا يعلمون شيئاً، أو ليسوا من أُولي العلم حتى يعلموا ذلك.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يحسُّون به من زخارفها وملاذِّها، وسائرِ أحوالها الموافقةِ لشهواتهم الملائمةِ لأهوائهم، المستدعيةِ لانهماكهم فيها وعُكوفِهم عليها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعلمون منافعها ومضارَّها، ومتى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يجمعون وكيف يبنون، أي: ونحوَ ذلك ممَّا لا يكون لهم منه أثر في الآخرة. ورُوي نحوُه عن قتادة وعكرمة.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية: بلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلبُ الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يُحسِنُ يصلِّي[1].

وقال الكرمانيُّ: كلُّ ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهرُ، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

وقيل: هو هنا التمتُّع بزخارفها والتنعُّم بملاذِّها. وتعقِّب بأنهما ليسا مما عَلِموه منها، بل من أفعالهم المرتَّبة على علمهم.

وعن ابن جبير أنَّ الظاهر هو ما علموه من قِبَلِ الكهنة مما تَسْتَرِقُه الشياطين. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ المراد بالظاهر مقابل الباطن، وتنوينُه للتحقير والتخسيس، أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً.

وقيل: هو بمعنى الزائل الذاهب، كما في قول الهذليِّ:

وعيَّرها الواشون أنِّي أحبُّها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[2]

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٥٢.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٢٠. قوله: ظاهر عنك، قال شارح الديوان: أي: لا يعلق بك، أي: يظهر عنك وينبو.

أي: يعلمون أمراً زائلاً لا بقاءَ له ولا عاقبةَ من الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي الغايةُ القصوى والمطلبُ الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ لا تخطُر ببالهم، فكيف يتفكَّرون فيها وفيما يؤدي إلى معرفتها من الدنيا وأحوالها؟

والجملةُ معطوفة على «يعلمون»، وإيرادُها اسميةً للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامِها، و«هم» الثانيةُ تكريرٌ للأولى، وتأكيدٌ لفظيٌّ لها دافعٌ للتجوُّز وعدم الشمول، والفصلُ بمعمول الخبر وإن كان خلافَ الظاهر لكنْ حسَّنه وقوعُ الفصل في التلفُّظ والاعتناءُ بالآخرة، أو هو مبتدأ و«غافلون» خبرُه والجملةُ خبرُ «هم» الأولى.

وجملةُ «يعلمون» إلخ بدلٌ من جملة «لا يعلمون» على ما ذهب إليه صاحب «الكشاف»(١)؛ فإنَّ الجاهل الذي لا يعلم أنَّ الله تعالى لا يُخلِفُ وعده، أو لا يعلمُ شؤونَه تعالى السابقةَ ولا يتفكَّر في ذلك، هو الذي قصر نظره على ظاهر الحياة الدنيا، والمصحِّحُ للبدلية اتِّحادُ ما صَدَقا عليه، والنكتةُ المرجِّحةُ له جَعْلُ عِلْمِهم والجهل سواءً بحسب الظاهر.

وجملة «وهم عن الآخرة» إلخ منادٍ على تمكُّنِ غَفْلَتِهم عن الآخرة المحقَّقةِ لمقتَضى الجملة السابقة؛ تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالبهائم المقصورِ إدراكُها على ظواهر الدنيا الخسيسةِ دون أحوالها التي هي من مبادي العلم بأمور الآخرة.

واختار العلَّامة الطيبيُّ أنَّ جملة «يعلمون» إلخ استئنافيةٌ لبيان موجب جَهْلِهم بأنَّ وعد الله تعالى حقٌّ، وأنَّ للهِ سبحانه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وأنه جلَّ شأنهُ ينصر المؤمنين على الكافرين(٢)، ولعله الأظهر.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إنكارٌ واستقباحٌ لقَصْرِ نظرِهم على ما ذُكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة، والواوُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام. وقولُه سبحانه: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّر، وذِكْرُه مع أنَّ التفكُّر لا يكونُ إلا في النفس لتحقيق أمره، وزيادةِ تصوير حالِ المتفكِّرين كما في: اعتَقِدْه في قَلْبِك، وأَبْصِرْه بعينك.

---

(١) ٣/ ٢١٥.

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ إمَّا بالعلم الذي يؤدِّي إليه التفكُّر ويدلُّ عليه، أو بالقول الذي يترتَّبُ عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: أَعَلِموا ظاهرَ الحياة الدنيا فقط، أو: أَقَصَروا النظر على ذلك ولم يُحْدِثُوا التفكُّر في قلوبهم فيعلَموا أنه تعالى ما خَلَق السماوات والأرضَ وما بينهما من المخلوقات التي هم من جملتها ملتبسةً بشيءٍ من الأشياء إلَّا ملتبسةً بالحقِّ، أو يقولوا هذا القولَ معترفين بمضمونه إثر ما عَلِموه.

والمرادُ بالحقِّ هو الثابتُ الذي يحقُّ ان يثبُتَ لا محالةَ، لابتنائه على الحِكَم البالغة التي من جملتها استشهادُ المكلَّفين بذواتها وصفاتها وأحوالها على وجود صانعها، ووحدتِه وعِلْمِه وقدرته، واختصاصِه بالمعبودية، وصحةِ أخباره التي من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية، ومجازاتُهم بحسب أعمالهم غبَّ ما[1] يتبيَّنُ المحسنُ من المسيء، ويمتازُ درجاتُ أفراد كلٍّ من الفريقين حَسبَ امتيازِ طبقات علومهم واعتقادهم المترتِّبةِ على أنظارهم فيما نُصِبَ في المصنوعات من الآيات والدلائل والأمارات والمخايل، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فإنَّ العمل غيرُ مختصٍّ بعمل الجوارح، ولذلك فسَّره عليه الصلاة والسلام بقوله: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأَوْرَعُ عن مَحارِمِ اللهِ تعالى، وأسرعُ في طاعة الله عز وجل»[2].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على «الحق»، أي: وبأَجَلٍ معيَّنٍ قدَّره الله تعالى لبقائها لا بدَّ لها من أن تنتهي إليه لا محالةَ، وهو وقتُ قيام الساعة وتبدُّلِ الأرض غيرَ الأرض والسماوات.

---

(١) في (م): عما، بدل: غب ما، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٥١، والكلام منه.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣١) من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده داود بن المحبر، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٦: وداود ساقط. وأخرجه ابن مردويه بإسناد آخر عن ابن عمر، وإسناده أسقط من الأول كما قال ابن حجر.

هذا وجوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ متعلِّقاً بـ «يتفكَّروا» ومفعولاً له بالواسطة، على معنى: أولم يتفكروا في ذواتهم وأنفسهم التي هي أقربُ المخلوقات إليهم، وهم أعلمُ بشؤونها وأَخْبَرُ بأحوالها منهم بأحوال ما عَدَاها، فيتدبَّروا ما أَوْدَعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحِكَم الدالَّةِ على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بدَّ لها من انتهاءٍ إلى وقتٍ يجازيها الحكيمُ الذي دبَّر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلَها، حتى يعلموا عند ذلك أنَّ سائر الخلائق كذلك أمرُها جارٍ على الحكمة والتدبير، وأنه لا بدَّ لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت.

وتعقِّب بأنَّ أمر مَعَادِ الإنسان ومُجازاته بما عَمِلَ من الإساءة والإحسان هو المقصودُ بالذات والمحتاجُ إلى الإثبات، فجَعْلُه ذريعةً إلى إثباتِ مَعَادِ ما عَدَاه مع كونه بمعزلٍ من الإجزاء تعكيسٌ للأمر، فتدبَّر.

وجوَّز أبو حيان أن يكون «ما خلق» إلخ مفعول «يتفكَّروا» معلَّقاً عنه بالنفي[1]. وأنت تعلم أن التعليق في مثله ممنوعٌ أو قليل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله ببيانِ أنَّ أكثرهم غيرُ مقتصرين على ما ذكر من الغفلة من أحوال الآخرة، والإعراضِ عن التفكُّر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما من المصنوعات، بل هم منكرون جاحدون لقاءَ حسابه تعالى وجزائه عز وجل بالبعث، وهم القائلون بأبدية الدنيا كالفلاسفة على المشهور.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ توبيخٌ لهم بعدم اتِّعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالَّةِ على عاقبتهم ومآلهم، والهمزةُ للإنكار التوبيخيِّ أو الإبطاليِّ، وحيث دخلت على النفي - وإنكارُ النفي إثباتٌ - قيل: إنها لتقرير المنفيِّ، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أَقَعدوا في أماكنهم ولم يسيروا في الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ عطفٌ على «يسيروا» داخلٌ في حُكْمِه، والمعنى أنهم قد ساروا في أقطار الأرض وشاهدوا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم المهلَكَةِ كعادٍ وثمود.

---

(١) البحر ٧/ ١٦٣.

وقولُه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ إلخ بيانٌ لمبدأ أحوالهم ومآلها، يعني أنهم كانوا أقدرَ منهم على التمتُّع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشدَّ منهم قوةً.

﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: قَلَبوها للحرث والزراعة كما قال الفرَّاء[1]. وقيل: لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك.

وقرأ أبو جعفر: «وآثاروا» بِمَدَّةٍ بعد الهمزة[2]. وقال ابن مجاهد: ليس بشيءٍ[3]. وخرَّج ذلك أبو الفتح[4] على الإشباع كقوله:

ومِــن ذمِّ الــزمــان بــمــنــتــزاح[5]

وذَكَر أنَّ هذا من ضرورة الشعر ولا يجيءُ في القرآن.

وقرأ أبو حيوة: «وأَثَروا» من الأثَرة، وهو الاستبدادُ بالشيء[6]. و: «آثَروا الأرض»[7] أي: أبْقَوا فيها آثاراً.

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: وعَمَرها أولئك الذين كانوا قبلهم بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها. وقيل: أي: أقاموا بها، يقال: عَمرْتُ بمكانِ كذا وعمرتُه، أي: أقمتُ به.

﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: عمارةً أكثر من عمارة هؤلاء إياها، والظاهرُ أنَّ الأكثرية باعتبار الكمِّ، وعمَّمه بعضُهم فقال: أكثر كمًّا وكيفاً وزماناً. وإذا أريدَ العمارةُ بمعنى الإقامة فالمعنى: أقاموا بها إقامةً أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها.

وفي ذكر أفعل تهكُّم بهم؛ إذ لا مناسبةَ بين كفار مكة وأولئك الأممِ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٢٢، وفيه: «أثاروا الأرض»: حرثوها.

(٢) المحتسب ٢/ ١٦٣، والبحر ٧/ ١٦٤، والكلام منه.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٠، والبحر ٧/ ١٦٤.

(٤) في المحتسب ٢/ ١٦٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ١٦٤.

(٥) وصدره: وأنت من الغوائل حين ترمي، والبيت لإبراهيم بن هرمة، وهو في ديوانه ص٩٢، والمحتسب ٢/ ١٦٣، والبحر ٧/ ١٦٤، ومنتزاح، أي: بعيد.

(٦) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٦٤.

(٧) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ١٦٤ دون نسبة.

المهلَكةِ، فإنهم كانوا معروفين بالنهاية في القوة وكثرةِ العمارة، وأهلُ مكةَ ضعفاءُ مُلْجَؤون إلى وادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ يخافون أن يتخطَّفهم الناس. ونحوُ هذا يقال إذا فسِّرت العمارةُ بالإقامة؛ فإنَّ أولئك كانوا مشهورين بطول الأعمار جدًّا، وأعمارُ أهل مكة قليلةٌ بحيث لا مناسبةَ يعتدُّ بها بينها وبين أعمار[1] أولئك المهلكين.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزات، أو الآياتِ الواضحات ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي: فكذَّبوهم فأهلكهم، فما كان الله تعالى شأنُه ليُهْلِكَهم من غير جرمٍ يستدعيه مِن قِبَلِهم، وفي التعبير عن ذلك بالظلم إظهارٌ لكمال نزاهته تعالى عنه، وإلا فقد قال أهل السنَّة: إنَّ إهلاكه تعالى من غير جرمٍ ليس من الظلم في شيء؛ لأنه عز وجل مالكٌ والمالكُ يفعلُ بملكه ما يشاء، والنزاع في المسألة شهيرٌ.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ حيث ارتكبوا باختيارهم من المعاصي ما أَوْجَبَ بمقتضَى الحكمة ذلك، وتقديمُ «أنفسهم» على «يظلمون» للفاصلة، وجوِّز أن يكون للحَصْرِ بالنسبة إلى الرسل الذين يَدْعونهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: عملوا السيئات، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة، والإشعارِ بعلَّة الحكم. و«ثم» للتراخي الحقيقيِّ، أو للاستبعاد والتفاوُتِ في الرتبة.

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: العقوبةَ السُّوأى، وهي العقوبة بالنار، فإنها تأنيثُ الأسوأ، كالحُسْنَى تأنيثُ الأحسن، أو مصدرٌ كالبشرى وَصَفَ به العقوبةَ مبالغةً كأنها نفسُ السوء. وهي مرفوعةٌ على أنها اسمُ «كان»، وخبرُها «عاقبة».

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «عاقبةُ» بالرفع على أنه اسم «كان»، و«السوأى» بالنصب على الخبرية[2]. وقرأ الأعمش والحسن: «السُّوَّى» بإبدال الهمزة واواً وإدغامِ الواو فيها. وقرأ ابن مسعود: «السوء» بالتذكير[3].

---

(١) في(م): أعمال، وهو تصحيف.
(٢) التيسير ص١٧٤، والنشر ٢/ ٣٤٤.
(٣) القراءتان في البحر ٧/ ١٦٤.

﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ علةٌ للحكم المذكور، أي: لأنْ ـ أو بأنْ ـ كذَّبوا، وهو في الحقيقة مبينٌ لِمَا أشعر به وضعُ الموصول موضعَ الضمير؛ لأنه مجملٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ عطفٌ على «كذَّبوا» داخلٌ معه في حُكْم العلِّية، وإيرادُ الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدُّده.

وجوِّز أن يكون «السوأى» مفعولاً مطلقاً لـ «أساؤوا» من غير لفظه، أو مفعولاً به له؛ لأنَّ «أساؤوا» بمعنى اقترفوا واكتسبوا، والسوأى بمعنى الخطيئة؛ لأنه صفةٌ أو مصدرٌ مؤوَّلٌ بها، وكونُه صفةَ مصدرِ «أساؤوا» من لفظه، أي: الإساءة السوأى، بعيدٌ لفظاً مستدركٌ معنى، و«أن كذَّبوا» اسم «كان»، وكونُ التكذيب عاقبتَهم مع أنهم لم يَخْلُوا عنه إما باعتبارِ استمراره، أو باعتبارِ أنه عبارةٌ عن الطبع.

وجوِّز أيضاً أن يكون «أن كذَّبوا» بدلاً من «السُّوأى» الواقعِ اسماً لـ «كان»، أو عطفَ بيانٍ لها، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي أن كذَّبوا، وأن تكون «أن» تفسيريةً بمعنى أي، والمفسَّر إما «أساؤوا» أو «السوأى»، فإنَّ الإساءة تكونُ قوليةً كما تكون فعليةً، فإذن ما قبلها مضمَّنٌ معنى القولِ دون حروفه، ويظهرُ ذلك التضمُّنُ بالتفسير، وإذا جاز ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص:٦] فهذا أجوَزُ، فليس هذا الوجهُ متكلَّفاً خلافاً لأبي حيان[١].

وجوِّز في قراءة الحِرْميين وأبي عمرو أن تكون «السوأى» صلةَ الفعل و«أنْ كذَّبوا» تابعاً له، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أو على تقديرِ حرف التعليل، وخبر «كان» محذوفاً تقديره: وخيمةً، ونحوه. وتعقَّب ذلك في «البحر» فقال: هو فهمٌ أعجميٌّ؛ لأنَّ الكلام مستقلٌّ في غاية الحسن بلا حذفٍ، وقد تكلَّف له محذوفٌ لا يدلُّ عليه دليلٌ، وأصحابنا لا يجيزون حذفَ خبر «كان»[٢].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: ينشئهم، وقرأ عبد الله وطلحة: «يُبْدِئُ» بضم الياء وكَسْرِ الدال[٣]، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّرْ فما بالعهد من قِدَم.

---

(١) البحر ٧/ ١٦٤.
(٢) البحر ٧/ ١٦٤-١٦٥.
(٣) البحر ٧/ ١٦٥.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ للجزاء، وتقديمُ المعمول للتخصيص، وكان الظاهرُ: يُرجَعون، بياء الغيبة، إلا أنه عَدَلَ عنه إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد، ومواجهتهم بالتهديد، وإيهامِ أنَّ ذلك مخصوصٌ بهم، فهو التفاتٌ للمبالغة في الوعيد والترهيب.

وقرأ أبو عمرو وروح: «يرجعون» بياء الغيبة كما هو الظاهر[1].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي وقتُ إعادة الخلق ومرجعُهم إليه عز وجل ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون وتنقطعُ حجّتهم، قال الراغب: الإبلاسُ: الحزنُ المعترِضُ من شدة اليأس، ومنه اشتُقَّ إبليس فيما قيل، ولمَّا كان المبلِسُ كثيراً ما يلزمُ السكوتَ وينسى ما يعنيه[2] قيل: أبلس فلانٌ، إذا سكت وانقطعت حجَّته، وأبلَستِ الناقةُ فهي مبلاسٌ: إذا لم تَرْغُ من شدَّة الضَّبَعة[3].

وقال ابنُ ثابت: يقال: أبلس الرجلُ، إذا يئس من كلِّ خير. وفي الحديث: «وأنا مبشِّرُهم إذا أبلسوا»[4].

والمراد بالمجرمين على ما أفاده الطيبيُّ[5] أولئك الذين أساؤوا السوأى، لكنه وضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع، والإشعارِ بعلَّة الحكم.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلميُّ: «يُبْلَسُ» بفتح اللام، وخرِّج على أنَّ

---

(١) قراءة أبي عمرو بضم الياء وفتح الجيم، وكذلك قرأ شعبة عن عاصم، وقراءة روح بفتح الياء وكسر الجيم، وقرأ رويس مثله ولكن بالتاء، وقرأ الباقون: «تُرجَعون». التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٢٠٨ و٣٤٤.

(٢) في (م): يعينه.

(٣) مفردات الراغب (بلس). وجاء في هامش الأصل و(م): قوله: الضبعة، هي شدةُ شهوةِ الناقةِ الفحلَ. اهـ منه. وقوله: لم ترغ، أي: لم تصوِّت، والرغاء: صوتُ ذاتِ الخفِّ. حاشية الشهاب ٧/ ١١٥.

(٤) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، وأبو يعلى في معجمه (١٦٠)، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٤٥، عن أنس ﷺ، ولفظه عند الترمذي: «إذا أيسوا». قال الترمذي: حديث حسن غريب. اهـ. قلنا: في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٥) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

الفعل من أَبْلَسه إذا أسكته[١]. وظاهرُه أنه يكون متعدِّياً، وقد أنكره أبو البقاء والسمين وغيرُهما، حتى تكلَّفوا وقالوا: أصلُه يُبْلَسُ إبلاس المجرمين، على إقامة المصدر مقام الفاعل، ثم حَذْفِه وإقامةِ المضاف إليه مقامه[٢].

وتعقَّبه الخفاجيُّ عليه الرحمةُ فقال: لا يخفَى عدمُ صحته؛ لأنَّ إبلاس المجرمين مصدرٌ مضافٌ لفاعله، وفاعلُه هو فاعلُ الفعل بعينه، فكيف يكون نائب الفاعل؟ فتأمل[٣]. وأنت تعلم أنه متى صحت القراءةُ لا تُسمَع دعوى عدمِ سماع استعمالِ أبلس متعدِّياً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ممن أشركوهم بالله سبحانه في العبادة، ولذا أُضيفوا إليهم. وقيل: إن الإضافة لإشراكهم إياهم بالله تعالى في أموالهم، والمراد بهم الأوثان، وقال مقاتل: الملائكة عليهم السلام. وقيل: الشياطين. وقيل: رؤساؤهم. ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يُجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمون.

وجيء بالمضارع منفيًّا بـ «لَمْ» التي تقلبه ماضياً للتحقُّق، وصيغةُ الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع، أي: لم يكن لواحدٍ منهم شفيعٌ أصلاً.

وقرأ خارجةُ عن نافع، وابنُ سنانٍ عن أبي جعفر، والأنطاكيُّ عن شيبة: «ولم تكن» بالتاء الفوقية[٤].

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: بإلهيتهم وشركتهم، كما يشير إليه العدولُ عن: وكانوا بهم. ﴿كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ حيث يئسوا منهم ووقفوا على كُنْهِ أمرهم. و«كانوا» للدلالة على الاستمرار، لا للمحافظةِ على رؤوس الفواصل كما توهِّم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٦، والبحر ٧/ ١٦٥، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٦.

(٢) الإملاء ٤/ ١٧٤، والدر المصون ٩/ ٣٥، ونقله المصنف عنهما بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ١١٥.

(٤) البحر ٧/ ١٦٥، وهي خلاف المشهور عن نافع وأبي جعفر.

وقيل: إنها للمضيِّ كما هو الظاهر، والباء في «بشركائهم» سببية، أي: وكانوا في الدنيا كافرين بالله تعالى بسببهم، ولم يَرْتَضِه بعضُ الأجلة؛ إذ ليس في الإخبار بذلك فائدةٌ يُعتدُّ بها، ولأنَّ المتبادر أنَّ «يوم تقومُ الساعة» ظرفٌ للإبلاس وما عُطف عليه، ولذا قيل: إنَّ المناسب عليه جَعْلُ الواو حاليةً ليكون المعنى أنهم لم يشفعوا لهم مع أنهم سببُ كفرهم في الدنيا، وهو أحسنُ من جَعْلِه معطوفاً على مجموع الجملة مع الظرف، مع أنه عليه ينبغي القَطْعُ للاحتياط، إلا أن يقال: إنه ترك تعويلاً على القرينة العقلية، وهو خلافُ الظاهر.

وكتب (شُفَعَـٰٓؤُاْ) في المصحف بواو بعدها ألف، وهو خلافُ القياس، والقياسُ تركُ الواو أو تأخيرُها عن الألف، لكن الأول أحسن كما ذكر في الرسم، وكذا خولفَ القياسُ في كتابة (ٱلسُّوٓأَىٰٓ) حيث كُتبت بالألف قبل الياء، والقياسُ كما في «الكشف» الحذفُ؛ لأنَّ الهمز يُكتب على نحوِ ما يُسهَّل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أعيد لتهويله وتفظيعِ ما يقع فيه، وهو ظرفٌ للفعل بعده، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على ما ذكره الطبرسيُّ بدلٌ منه[1].

وفي «البحر»: التنوينُ في «يومئذٍ» تنوينُ عوضٍ من الجملة المحذوفة، أي: ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس المجرمون ﴿يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾[2]، وظاهره أنَّ «يومئذ» ظرفٌ لـ «تقوم»، ولا يخفى ما في جَعْلِ الجملة المعوَّضِ عنها التنوينُ حينئذٍ ما ذَكَره من النظر.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) تهويلٌ ليوم قيام الساعة إثرَ تهويلٍ، وفيه رمزٌ إلى أنَّ التفرُّقَ يقع في بعضٍ منه[3]. وفي وجه الرمز إلى ذلك بما ذكر خفاءٌ.

وضمير «يتفرقون» للمسلمين والكافرين الدالُّ عليهما ما قبلُ من عموم الخلق وما بعدُ من التفصيل، وذهب إلى ذلك الزمخشريُّ[4] وجماعةٌ.

(١) مجمع البيان ٢١/١٤.
(٢) البحر ٧/١٦٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/٢١٦.

وقال في «الإرشاد»: هو لجميع الخلق المدلولِ عليهم بما تقدَّم من مبدئهم ومرجعهم وإعادتهم، لا المجرمون خاصةً[١].

وقال أبو حيان: يظهر أنه عائدٌ على الخَلْقِ قبله، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٢].

والمراد بتفرُّقهم اختلافُهم في المحالِّ والأحوال كما يؤذِنُ به التفصيل، وليس ذلك باعتبار كلِّ فردٍ بل باعتبارِ كلِّ فريق، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في ذلك: هؤلاء في علِّيين وهؤلاء في أسفل سافلين[٣]. والتفصيل يؤذِنُ بذلك أيضاً، وهذا التفرُّقُ بعد تمام الحساب.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ الروضةُ: الأرضُ ذاتُ النبات والماء، وفي المثل: أحسنُ من بيضةٍ في روضة[٤]، يريدون بيضةَ النعامة، وباعتبارِ الماء قيل: أَراضَ الوادي واسْتَراضَ، أي: كثُر ماؤه، وأَراضَهم: أَرْوَاهم بعضَ الريِّ، من أراضَ الحوضَ: إذا صبَّ فيه من الماءِ ما يواري أرضه. ويقال: شربوا حتى أَرَاضُوا، أي: شربوا عَلَلاً بعد نَهَلٍ[٥].

وقيل: معنى أراضوا: صبُّوا اللَّبَنَ على اللَّبَن.

وظاهر تفسير الكثير للروضة اعتبارُ النبات والماء فيها، وأظنُّ أنَّ ابن قتيبة صرَّح بأنه لا يقال لأرضٍ ذاتِ نباتٍ بلا ماءٍ: روضة.

وقيل: هي البستان الحسن. وقيل: موضع الخضرة. وقال الخفاجيُّ: الروضة: البستان، وتخصيصُها بذات الأنهار بناءً على العرف[٦]. وأيًّا ما كان فتنوينُها هنا للتفخيم، والمرادُ بها الجنة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٣.
(٢) البحر ٧/ ١٦٥.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٨٩.
(٤) جمهرة الأمثال ١/ ٣٩٩، والمستقصى ١/ ١٦٧، ومجمع الأمثال ١/ ٢٢٩، وفيه: العرب تستحسن نقاء البيضة في نضارة خضرة الروضة.
(٥) النَّهَل: أول الشرب، والعَلَل: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً. القاموس (علل) و(نهل).
(٦) حاشية الشهاب ٧/ ١١٦.

والحَبْر: السرور؛ يقال: حَبَرَه يَحبُره بالضم، حَبْراً وحَبْرةً وحُبوراً: إذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهُه وظهر فيه أثره. وفي المثل: امتلأت بيوتُهم حَبْرةً فهم ينتظرون العَبْرةَ[1].

وحكى الكسائيُّ: حَبَرتُه: أكرمتُه ونعَّمته.

وقيل: الحَبْرةُ كلُّ نعمةٍ حسنةٍ، والتحبير: التحسين، ويقال: فلانٌ حسنُ الحَبْر والسَّبرِ بالفتح: إذا كان جميلاً حَسَنَ الهيئة.

واختلفت الأقوال في تفسيره هنا؛ فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وابنُ أبي حاتم عن الضحاك أنهما قالا: «يُحبرون» يُكْرَمون.

وأخرج جماعة عن مجاهد: «يحبرون»: ينعَّمون. وقال أبو بكر بن عياش: يتوَّجون على رؤوسهم. وقال ابن كيسان: يحلَّون. وقال الأوزاعيُّ ووكيعٌ ويحيى بنُ أبي كثير: يسمعون الأغاني.

وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال: قيل: يا رسول الله، ما الحبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «اللذة والسماع»[2].

وذكر بعضهم أنَّ الظاهر: يُسَرُّون، ولم يذكر ما يُسَرُّون به إيذاناً بكثرة المسارِّ، وما جاء في الخبر فمن باب الاقتصار على البعض، ولعل السائل كان يحبُّ السماعَ فذكره ﷺ له لذلك. والتعبير بالمضارع للإيذان بتجدُّد السرور لهم، ففي كلِّ ساعةٍ يأتيهم ما يسرُّون به من متجدِّدات الملاذِّ وأنواعِها المختلفة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي من جملتها الآياتُ الناطقة بما فصَّل ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: وكذَّبوا بالبعث، وصرَّح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء به.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبارِ اتِّصافه بما في حيِّزِ الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاءِ الآخرة؛ للإيذان بكمال تميُّزهم بذلك

---

(١) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن٢/ ١٢٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٥٣.

عن غيرهم، وانتظامِهم في سلك المشاهَدات، وما فيه من معنى البُعْدِ مع قُرْبِ العَهْدِ بالمُشار إليه للإشعار ببُعْدِ منزلتهم في الشرِّ، أي: فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبداً.

والظاهرُ أنَّ الفسقة من أهل الإيمان غيرُ داخلينَ في أحد الفريقين، أمَّا عدمُ دخولهم في الذين كفروا وكذَّبوا بالآيات والبعثِ فظاهرٌ، وأمَّا عدمُ دخولهم في الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإما لأنَّ ذلك لا يقال في العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للمفسِّقات على ما قيل، وإما لأنَّ المؤمن الفاسق يصدُقُ على المؤمن الذي لم يعمل شيئاً من الصالحات أصلاً، فهم غيرُ داخلين في ذلك باعتبار جميع الأفراد، وحُكْمُهم معلومٌ من آياتٍ أُخَرَ فلا تغفل.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إثر ما بيَّن حالَ فريقي المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذِّبين بالآيات، ومآلهما من الثواب والعقاب، أرشد سبحانه إلى ما ينجي من الثاني ويُفْضي إلى الأول، من تنزيهِ الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ مالا يليقُ بشأنه جلَّ شأنُه، ومن حَمْدِه تعالى والثناءِ عليه ووَصْفِه بما هو أهلُه من الصفات الجميلة والشؤون الجليلة. وتقديمُ الأولِ على الثاني لِمَا أنَّ التخلية متقدِّمةٌ على التحلية، مع أنه أول ما يُدْعَى إليه الذين كفروا المذكورون قبلُ بلا فصل.

والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. وظاهرُ كلامهم أنَّ «سبحان» هنا منصوبٌ بفعلِ أمرٍ محذوفٍ، فكأنه قيل: إذا علمتُم ذلك أو إذا صحَّ واتَّضح حالُ الفريقين ومآلُهما فسبِّحوا سبحان الله.. إلخ، أي: نزِّهوه تعالى تنزيهَه اللائقَ به عزَّ وجل في هذه الأوقات.

قال في «الكشف»: وفيه إشكالٌ؛ لأنَّ «سبحان الله» لزم طريقةً واحدةً لا ينصبه فعلُ الأمر لأنه إنشاءٌ من نوعٍ آخَرَ. والجوابُ أنَّ ذلك توضيحٌ للمعنى، وأنَّ وقوعه جواب الشرط على منوال: إنْ فَعلْتَ كذا فنِعْمَ ما فعلتَ، فإنه إنشاءٌ أيضاً لكنه ناب منابَ الخبر وأبلغ، كذلك هو لإنشاء تنزيهه تعالى في الأوقات هرباً من وبيل عقابه وطلباً لجزيل ثوابه، والشرطُ والجوابُ مقولٌ على ألسنة العباد. انتهى.

وفي «حواشي» شيخ زاده[١]: أنَّ الأمر بل الجملة الإنشائية مطلقاً لا يصحُّ تعليقُها بالشرط؛ لأن الإنشاء إيقاعُ المعنى بلفظٍ يقارِنُه، ولو جاز تعليقُه للزم تأخُّره عن زمان التلفُّظ، وأنه غيرُ جائزٍ، وإنما المعلَّق بالشرط هو الإخبارُ عن إنشاء التمنِّي والترجِّي، وإنشاء المدح والذمّ والاستفهام ونحوها، فإذا قلت: إن فعلتَ كذا غَفَر الله تعالى لك، أو: فنِعْم ما فعلتَ، كان المعنى: فقد فعلتَ ما تستحقُّ بسببه أن يغفر الله تعالى لك، أو أن تُمدحَ بسببه، إلَّا أنَّ الجملة الإنشائية أُقيمت مقامه للمبالغة للدلالة على الاستحقاق، فمعنى الآية: إذا كان الأمر كما تَقَرَّر فأنتم تسبِّحون الله تعالى في الأوقات المذكورة، وهو في معنى الأمر بالتسبيح فيها. انتهى.

ولعله أظهرُ مما في «الكشف»، بل لا يظهر ما ذكر فيه من دَعْوَى أنَّ الشرط والجواب مقولٌ على ألسنة العباد. ويُوْهِمُ كلامُ بعضهم أنَّ الكلام بتقدير القول، حيث قال: كأنه قيل: إذا صحَّ واتَّضح عاقبةُ المطيعين والعاصين فقولوا: نسبِّح سبحان.. إلخ، والمعنى: فسبِّحوه تسبيحاً في الأوقات. ولا يخفى ما فيه.

وكأنِّي بك تمنعُ لزومَ «سبحان» طريقةً واحدةً، وهي التي ذكرت أولاً، وتجوِّز[٢] نصبَ فعلِ الأمر لها إذا اقتضاه المقامُ وأَشْعَر به الكلام، ولكن كأنك تميلُ إلى اعتبار كون الجملة خبريةً لفظاً إنشائيةً معنًى، بأن يُرادَ بها الأمرُ لتُوافِقَ جملة «له الحمد» فإنها وإن كانت خبريةً إلا أنَّ الإخبار بثبوتِ الحمد له تعالى ووجوبِه على المميِّزين من أهل السماوات والأرض كما يُشْعِرُ به إتباعُ ذلك ذِكْرَ الوعد والوعيد، وتفريعه عليه بالفاء، في معنى الأمر به على أبلغ وجهٍ على ما صرَّح به بعض الأجلَّة، فكأنه حينئذ قد قيل: فسبِّحوا الله تعالى تسبيحه اللائقَ به ـ سبحانه ـ في هذه الأوقات واحمدوه.

وظاهر كلام الأكثرين أن جملة «له الحمد» إلخ معطوفةٌ على الجملة التي قبلها، وأنَّ «عشيًّا» معطوفٌ على «حين تمسون»، بل هم صرَّحوا بهذا، وعلى ما ذكر يكون

---

(١) محمد بن مصلح الدين القوجوي، محيي الدين الحنفي، توفي سنة (٩٥١هـ). له حاشيتان على تفسير البيضاوي، وشرح مفتاح العلوم للسكاكي، وشرح الوقاية في مسائل الهداية، وغيرها. هدية العارفين ٢/ ٢٣٨.

(٢) في(م): ويجوز.

جملة «له الحمد» فاصلةً بين المعطوف والمعطوف عليه، وما أَشْبَهَ الآية حينئذٍ بآية الوضوء على ما ذهب إليه أهل السنَّةِ.

وفي «الكشاف»: أنَّ «عشيًّا» متصلٌ بقوله تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ إلخ اعتراضٌ بينهما، ومعناه أنَّ على المميِّزين كلِّهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه(١).

وإلى كون الجملة معترضةً ذهب أبو البقاء أيضاً، وجَعَلَ قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حالاً من «الحمد»(٢). وفي جواز مجيء الحال منه على احتمال كونه مبتدأ ـ وهو الظاهر ـ خلافٌ، ولعل مَن لا يجوِّز ذلك يجعل الجارَّ متعلِّقاً بالثبوت الذي تقتضيه النسبة.

والمراد بالتسبيح والحمد ظاهرُهما على ما ذهب إليه جمعٌ من الأجلَّة.

وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة، وأخرج عبد الرزاق والفريابيُّ وابنُ جَريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه عن أبي رزين قال: جاء نافع بنُ الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجدُ الصلواتِ الخمسَ في القرآن؟ فقال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، وقرأ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾(٣) [النور: ٥٨].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عنه قال: جمعتْ هذه الآيةُ مواقيتَ الصلاة: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر(٤).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٢) الإملاء ٤/ ١٧٤.

(٣) مصنف عبد الرزاق (١٧٧٢)، وتفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤، والأوسط لابن المنذر ٢/ ٣٢١، والمعجم الكبير (١٠٥٩٦)، وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٤، والأوسط ٢/ ٣٢٢، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤.

وذهب الحسن إلى ذلك حتى إنه ذهب إلى أنَّ الآية مدنيَّةٌ لِمَا أنه يرى فرضيةَ الخمس بالمدينة، وأنه كان الواجبُ بمكة ركعتين في أيِّ وقتٍ اتفقت الصلاة فيه، والصحيحُ أنها فُرِضَتْ بمكة، ويدلُّ عليه حديثُ المعراج دلالةً بيِّنةً.

واختار الإمام الرازيُّ[1] حَمْلَ التسبيح على التنزيه، فقال: إنه أقوى، والمصيرُ إليه أَوْلَى؛ لأنه يتضمَّنُ الصلاة، وذلك لأنَّ التنزيه المأمورَ به يتناول التنزيهَ بالقلب وهو الاعتقادُ الجازم، وباللسان مع ذلك وهو الذكرُ الحسن، وبالأركان معهما جميعاً وهو العملُ الصالح، والأولُ هو الأصل، والثاني ثمرةُ الأول، والثالثُ ثمرةُ الثاني، وذلك لأنَّ الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال ظهر صدقُه في مقاله من أحوال أفعاله[2]، واللسانُ ترجمان الجنان، والأركانُ برهانُ اللسان، لكن الصلاة أفضلُ أعمال الأركان، وهي مشتملةٌ على الذكر باللسان والقَصْدِ بالجَنَان، فهو تنزيهٌ في التحقيق، فإذا قال سبحانه: نزِّهوني، وهذا نوعٌ من أنواع التنزيه، والأمرُ المطلق لا يختصُّ بنوعٍ دون نوعٍ، فيجب حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ، فيكون هذا أمراً بالصلاة.

ثم إنَّ قولنا يناسبه[3] ما تقدَّم، وذلك لأنَّ الله تعالى لمَّا بيَّن أنَّ المقام الأعلى والجزاءَ الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات، حيث قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال سبحانه: إذا علمتُم أنَّ ذلك المقامَ لمن آمَنَ وعمل الصالحات، والإيمانُ تنزيهٌ بالجنان وتوحيدٌ باللسان، والعملُ الصالح استعمالُ الأركان، فالكلُّ تنزيهاتٌ وتحميداتٌ، فسبحان الله، أي: فأْتوا بذلك الذي هو الموصِلُ إلى الحبور في الرياض، والحضورِ على الحياض. اهـ.

وأنا بالإمام أقتدي في دعوى أولويةِ الحمل على الظاهر، وأختارُ أيضاً أن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ اعتراضٌ مؤكِّدٌ بين المعطوف والمعطوف عليه مطلقاً، ومعناه على ما سمعتَ عن «الكشاف» أنَّ على المميِّزين كلِّهم أن يحمدوه، فإنْ حُمِلَ التسبيحُ على الصلاة فهو كلامٌ يؤكِّد الوجوب؛ لأنَّ الحمد يُتجوَّزُ به عن الصلاة

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١٠٤.

(٢) في تفسير الرازي: من أحواله وأفعاله.

(٣) في تفسير الرازي: يناسب.

كالتسبيح، ووجهُ التأكيد دلالتُه على أنه أمرٌ عمَّ المكلَّفين من أهل السماوات والأرض، وإنْ حُمِلَ على الظاهر فوجْهُه أنَّ ذلك جارٍ مجرى الاستدراك للأمر بالتسبيح، ولمَّا كانا[١] من وادٍ واحدٍ كان كلٌّ منهما مؤكِّداً للآخر، فدلَّ على دوام وجوب الحمد في الأوقات، ووجوبِ التسبيح على أهل السماوات والأرض، وأمَّا الدلالةُ على الوجوب فمِن إتْباعِ «سبحان الله» إلخ ذكرَ الوعد والوعيد بالفاء، فإنه يُفْهِمُ تعيُّنَ ذلك طريقاً للخلاص عن الدَّرَكات، والوصولِ إلى الدرجات، وما يتعيَّنُ طريقاً لذلك كان واجباً، كذا في «الكشف».

وذكر الإمام[٢] أنَّ في هذا الاعتراض لطيفةً، وهو أنَّ الله تعالى لمَّا أمر العباد بالتسبيح، كأنه قال جل وعلا: بيِّن لهم[٣] أنَّ تسبيحهم الله تعالى لنَفْعِهم لا لنفعٍ يعود إلى الله عز وجل، فعليهم أن يَحْمَدوا الله تعالى إذا سبَّحوه جل شأنُه، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وجوَّز بعضُهم كون «عشيًّا» معطوفاً على قوله تعالى: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ). ورُدَّ بأنه لا يُعْطَفُ ظرفُ الزمان على المكان ولا عكسُه. وقيل: يحتمل أن يكون معطوفاً على مقدَّرٍ، أي: وله الحمد في السماوات والأرض دائماً وعشيًّا، على أنه تخصيصٌ بعد تعميم، والجملةُ إما[٤] اعتراضيةٌ أو حاليةٌ. وهو كما ترى.

وتخصيصُ الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها، وقدِّم الإمساءُ على الإصباح لتقدُّم الليلِ والظلمة، وقدِّم العشيُّ على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح.

وفي «البحر»: قوبل بالعشي الإمساءُ وبالإظهار الإصباحُ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُعْقَبُ بما قابله، فالعشيُّ يَعْقبُه الإمساء، والإصباحُ يَعقبه الإظهار[٥].

---

(١) في (م): كان.
(٢) في تفسيره ٢٥/١٠٧.
(٣) في تفسير الرازي: كأنه بيَّن لهم.
(٤) قوله: إما، ليس في (م).
(٥) البحر ٧/١٦٦.

وقال العلَّامة أبو السعود: إنَّ تقديم «عشيًّا» على «حين تُظْهِرون» لمراعاة الفواصل[١]. وليس بذاك.

وذكر الإمام أنه قدَّم الإمساءُ على الإصباح ها هنا وأخَّر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:٤٢]؛ لأن أول الكلام ها هنا ذكرُ الحشر والإعادةِ وكذا آخِرُه، والإمساءُ آخِرٌ، فذُكر الآخِرُ أولاً لتُذْكَر الآخرة[٢].

وتغيير الأسلوب في «عشيًّا» لِمَا أنه لا يجيءُ منه الفعلُ بمعنى الدخول في العشيِّ، كالمساء والصباح والظهيرة، ولعل السرَّ في ذلك على ما قيل: أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوالُ الناس وتتغيَّر تغيُّراً ظاهراً مصحِّحاً لوَصْفِهم بالخروج عمَّا قبلها والدخولِ فيها كالأوقات المذكورة؛ فإنَّ كلًّا منها وقتٌ يتغيَّر فيه الأحوال تغيُّراً ظاهراً؛ أما في المساء والصباح فظاهرٌ، وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرُّد عن الثياب للقيلولة كما مرَّت إليه الإشارة في سورة النور.

هذا وفضلُ التسبيح والتحميدِ أظهرُ من أن يستدلَّ عليه، وذكروا في فضل ما تضمَّنته الآيةُ عدَّةَ أخبارٍ، فأخرج الإمام أحمدُ وابنُ جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن السنيِّ في «عمل اليوم والليلة»، والطبرانيُّ وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدعوات» عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُخبِرُكم لِمَ سمَّى الله تعالى إبراهيمَ خليلَه الذي وفَّى؛ لأنه يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾»[٣].

وأخرج أبو داود والطبرانيُّ وابنُ السنيِّ وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠٧.
(٣) مسند أحمد (١٥٦٢٤)، وتفسير الطبري ٢/ ٥٠٧، والمعجم الكبير ٢٠/ (٤٢٧)، وعمل اليوم والليلة (٧٨)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مرويه والبيهقي السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤، وهو من طريق ابن لهيعة، عن زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه به. وإسناده ضعيف لضعف زبان بن فائد، وسهلِ بن معاذ في رواية زبان عنه، وابن لهيعة سيِّئ الحفظ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١١٧: رواه الطبراني، وفيه ضعفاءُ وثِّقوا.

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ إلى قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أَدْرَكَ ما فاتَه في يومه، ومَن قالها حين يُمسي أَدْرَكَ ما فاته من ليلته»[١].

إلى غير ذلك من الأخبار، ولعل فيه تأييداً لكون «فسبحان» إلخ مقولاً على ألسنة العباد، فتأمَّل.

وقرأ عكرمة: «حيناً تمسون وحيناً تصبحون» بتنوين «حين»، فالجملة صفةٌ حُذِفَ منها العائدُ، والتقديرُ: تُمسون فيه وتُصبحون فيه[٢]. وعلى قراءة الجمهور الجملةُ مضافٌ إليها ولا تقدير للضمير أصلاً.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الإنسانَ من النطفة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ النطفةَ من الإنسان، وهو التفسيرُ المأثور عن ابن عباس وابن مسعود، ولعل مرادهما التمثيل. وعن مجاهد: يُخرج المؤمنَ من الكافر، ويُخرج الكافرَ من المؤمن. وقيل: أي: يُعْقِبُ الحياة بالموت، وبالعكس.

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها، فالإحياءُ والموتُ مجازان.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإخراج البديع الشأن ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ من قبوركم. وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش: «تَخْرُجون» بفتح التاء وضمِّ الراء[٣]، وهذا على ما قيل نوعُ تفصيلٍ لقوله تعالى: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ١١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الباهرةِ الدالَّةِ على أنكم تُبعثون دلالةً أوضحَ من دلالة ما سبق، فإنَّ دلالة بدءِ خَلْقِهم على إعادتهم أظهرُ من دلالة إخراج الحيِّ من الميت وإخراج الميت من الحيِّ، ومن دلالةِ إحياء الأرضِ بعد موتها عليها ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: في ضِمْنِ خَلْقِ آدم عليه السلام؛ لِمَا مرَّ مراراً من أنَّ خَلْقَه عليه السلام مُنْطوٍ على خَلْقِ

---

(١) سنن أبي داود (٥٠٧٦)، والمعجم الكبير (١٢٩٩١)، وعمل اليوم والليلة (٥٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٤. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: إسناده ضعيف، وقال البخاري: لا يصح.

(٢) البحر ٧/ ١٦٦، وينظر القراءات الشاذة ص١١٦.

(٣) البحر٧/ ١٦٦. وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان. التيسير ص١٧٥، والنشر٢/ ٢٦٧-٢٦٨.

ذرِّياته انطواءً إجماليًّا ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ لم يَشُمَّ رائحة الحياة قطُّ، ولا مناسبةَ بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم. وقيل: خَلَقَهم من ترابٍ لأنه تعالى خَلَق مادَّتهم منه، فهو مجازٌ أو على تقدير مضافٍ.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ أي: في الأرض تتصرَّفون في أغراضكم وأسفاركم، و«إذا» فجائية، و«ثم» على ما ذهب إليه أبو حيان للتراخي الحقيقيِّ لِمَا بين الخلق والانتشار من المدة[1].

وقال العلَّامة الطيبيُّ[2]: إنها للتراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ المفاجأة تأبى الحقيقيَّ. ورُدَّ بأنه لا مانع من أن يفاجئ أحداً أمرٌ بعد مضيِّ مدةٍ من أمرٍ آخَرَ، أو أحدهما حقيقيٌّ والآخَرُ عُرْفي. وتعقِّب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوقُ، فإنه كالجمع بين الضبِّ والنون، فما ذكره الطيبيُّ أنسبُ بالنظم القرآنيِّ.

والظاهر أنَّ الجملة معطوفةٌ على المبتدأ قبلها وهي بتأويل[3] مفردٍ، كأنه قيل: ومن آياته خَلْقُكم من ترابٍ ثم مفاجأتُكم وقتَ كونكم بشراً منتشرين، كذا قيل. وفي وقوع الجملة مبتدأً بمثل هذا التأويل نظرٌ، إلَّا أنْ يقال: إنه يُغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع.

ويُتخيَّل من كلام بعضهم[4] أنَّ العطف على «خلقكم» بحسب المعنى، حيث قال: أي: ثم فاجأتُم وقتَ كونكم بشراً منتشرين. ويُفْهَم من كلام صاحب «الكشف» في نظير الآية، أعني قولَه تعالى الآتي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥﴾ أنه أقيمت الجملةُ مقامَ المفرد من حيث المعنى؛ لأنها تفيدُ فائدته، والكلامُ على أسلوب: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] لأنه في معنى: وأَمْنُ داخِله، وأما من حيث الصورةُ فهي جملةٌ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم﴾ وفائدةُ

---

(١) النهر الماد من البحر على هامش البحر ٧/ ١٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٧.

(٢) في حاشيته على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب.

(٣) في الأصل: في تأويل.

(٤) هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢١٨.

هذا الأسلوب الإشعارُ بأنَّ ذلك آيةٌ خارجةٌ من جنس الآيات، مستقلَّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها، فتأمَّلْ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّةِ على البعث أيضاً ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأَجْلِكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فإنَّ خَلْقَ أَصْلِ أزواجِكم حواءَ من ضلع آدم عليه السلام متضمِّنٌ لخَلْقهنَّ من أنفسكم على ما عرفتَ من التحقيق، فـ «من» تبعيضيةٌ، والأنفسُ بمعناها الحقيقيِّ.

ويجوزُ أن تكون «من» ابتدائيةً والأنفسُ مجازٌ عن الجنس، أي: خَلَق لكم من جِنْسِكم لا من جنسٍ آخر؛ قيل: وهو الأوفقُ بقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: لتميلوا إليها؛ يقال: سكن إليه: إذا مال، فإنَّ المجانَسةَ من دواعي النظام والتعارُفِ، كما أنَّ المخالفة من أسباب التفرُّق والتنافُر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي: بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب، أو على حَذْفِ ظرفٍ معطوفٍ على الظرف المذكور، أي: جعل بينكم وبينهنَّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقيل: بين أفراد الجنس، أو بين الرجال والنساء. وتعقِّب بأنه يأباه قولُه تعالى: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فإنَّ المراد بهما ما كان منهما بعصمةِ الزواج قطعاً، أي: جعل بينكم بالزواج الذي شَرَعَه لكم توادًّا وترحُّماً من غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ، ولا مرابطةٌ مصحِّحةٌ للتعاطفُ من قرابةٍ أو رحِمٍ.

قيل: المودةُ والرحمة من الله تعالى، والفِرْكُ ـ وهو بغضُ أحد الزوجين الآخَرَ ـ من الشيطان.

وقال الحسن ومجاهدٌ وعكرمةُ: المودَّةُ كنايةٌ عن النكاح، والرحمةُ كنايةٌ عن الولد. وكونُ المودَّة بمعنى المحبة كنايةً عن النكاح ـ أي: الجماع ـ للزومها له ظاهرٌ، وأما كونُ الرحمة كنايةً عن الولد للزومها له فلا يخلو عن بعدٍ.

وقيل: مودةً للشابَّة ورحمةً للعجوز. وقيل: مودةً للكبير ورحمةً للصغير. وقيل: هما اشتباكُ الرَّحِمِ. والكلُّ كما ترى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من خَلْقِهم من ترابٍ وخَلْقِ أزواجهم من أنفسهم وإلقاءِ المودَّةِ والرحمةِ، فهو إشارةٌ إلى جميع ما تقدَّم. وقيل: إلى ما قبله، وليس بذاك. وما فيه من معنى البُعْدِ مع قُرْبِ المشارِ إليه للإشعار ببُعْدِ منزلته. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً لا يُكْتَنَه كُنْهُها، كثيرةً لا يقادَرُ قَدْرُها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنيَّة على الحكم.

والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مع التنبيه على أنَّ ما ذكر ليس بآيةٍ فذَّةٍ بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتَّى، وأنها تحتاج إلى تفكُّرٍ كما تؤذِنُ بذلك الفاصلة.

وذكر الطيبيُّ أنه لمَّا كان القصدُ مِن خَلْقِ الأزواج والسكونِ إليها وإلقاءِ المحبة بين الزوجين ليس مجرَّدَ قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم، بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكِّرين الذين يؤدِّيهم الفكرُ إلى المعرفة والعبادةِ التي ما خُلقتِ السماواتُ والأرض إلَّا لها، ناسَبَ كونَ المتفكِّرين فاصلةً هنا.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: لغاتكم بأنْ عَلَّمَ سبحانه كلَّ صنفٍ لغته، أو أَلْهمَه جلَّ وعلا وَضْعَها وأَقْدَره عليها، فصار بعضٌ يتكلَّم بالعربية، وبعضٌ بالفارسية، وبعضٌ بالرومية، إلى غير ذلك مما اللهُ تعالى أعلمُ بكميَّته.

وعن وهب: أنَّ الألسنة اثنان وسبعون لساناً، في ولد حام سبعةَ عشر، وفي ولد سام تسعةَ عشر، وفي ولد يافث ستةٌ وثلاثون.

وجوِّز أن يراد بالألسنة أجناسُ النطق وأشكالُه، فقد اختلف ذلك اختلافاً كثيراً، فلا تكاد تسمع مَنْطِقَينِ متساويين في الكيفية من كلِّ وجهٍ، ولعل هذا أولى مما تقدم.

والإمامُ[1] حكى الوجهَ الأول وقدَّم عليه ما هو ظاهرٌ في أنَّ المراد بالألسنة الأصواتُ والنغم، ونصَّ على أنه أصحُّ من المحكيِّ.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياض الجلد وسواده وتوسُّط فيما بينهما، أو تصوير الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحُلاها بحيث وقع التمايز بين الأشخاص، حتى إنَّ التوأمين مع

(١) هو الرازي في تفسيره ٢٥/١١١.

توافُقِ موادِّهما وأسبابهما والأمورِ الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيءٍ من ذلك لا محالةَ وإن كانا في غاية التشابه، فالألوان بمعنى الضروب والأنواع، كما يقال: ألوان الحديث، وألوان الطعام، وهذا التفسيرُ أعمّ من الأول.

وإنما نظم اختلاف الألسنة والألوانِ في سلك الآيات الآفاقية من خَلْقِ السماوات والأرض، مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقةِ بالانتظام في سلك ما سبق مِن خَلْقِ أنفسهم وأزواجهم، للإيذان باستقلاله والاحترازِ عن توهُّم كونه من متمِّمات خَلْقِهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من خَلْقِ السماوات والأرض واختلافِ الألسنة والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: المتَّصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقرأ الكثير: «العالَمين» بفتح اللام(١)، وفيه دلالةٌ على وضوح الآيات وعدمِ خفائها على أحدٍ من الخلق كافةً.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم﴾ أي: نومكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لاستراحة القوى النفسانية، وتَقَوي القوى الطبيعيةِ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ أي: طلبكم ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: بالليل والنهار، وحذف ذلك لدلالة ما قبلُ عليه، ونظيرُه قولُه:

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسَهم ... ومقتلُهم عند الوغى كان أَعْذَرا(٢)

فإنه أراد: يقتلون نفوسهم عند السِّلم، وحُذف لدلالة الوغى في الشطر الثاني عليه، والنومُ بالليل والابتغاءُ من الفضل ـ أي: الكسبُ ـ بالنهار أمران معتادان، وأما النومُ بالنهار فكنوم القيلولة، وأما الكسبُ بالليل فكما يقع من بعض المكتسبين وأهلِ الحرف من السعي والعملِ ليلاً، لا سيما في أطول الليالي وعدمِ وفاء نهارهم بأغراضهم، ومن ذلك حراسةُ الحوانيت بالأجرة، وكذا قطعُ البراري في الأسفار ليلاً للتجارة ونحوِها.

---

(١) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٤، وقرأ حفص وحده بكسر اللام.

(٢) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه بشرح ابن السكيت ص٨٢، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص١٩٤، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ١٧٧. ورواية الديوان: يخنقون، بدل: يقتلون، وتحت الوغى، بدل: عند الوغى. ووقع في الأصل و(م): أغدرا، وهو تصحيف.

وقال الزمخشريُّ[1]: وهذا من باب اللفّ، وترتيبه: ومن آياته منامُكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فَصَل بين القرينين الأوَّلين - أعني «منامُكم» و«ابتغاؤكم» - بالقرينين الآخَرين أعني الليلَ والنهار؛ لأنهما ظرفان، والظرفُ والواقعُ فيه كشيءٍ واحد، مع إعانة اللفّ على الاتحاد، وهو الوجهُ الظاهر لتكرُّره في القرآن، وأسدُّ المعاني ما دلَّ عليه القرآن. انتهى.

والظاهرُ أنه أراد باللفّ الاصطلاحيَّ، ولا يأبى ذلك توسيط الليل والنهار؛ لأنهما في نية التأخير، وإنما وسِّطا للاهتمام بشأنهما؛ لأنهما من الآيات في الحقيقة لا المنام والابتغاء على ما حقَّقه في «الكشف»، مع تضمُّن توسيطهما مجاورةَ كلٍّ لِمَا وقع فيه، فالجارُّ والمجرورُ قيل: حالٌ مقدَّمةٌ من تأخير، أي: كائنينَ بالليل والنهار، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: وذلك بالليل والنهار، والجملةُ في النظم الكريم معترِضةٌ. وعلى كِلَا القولين لا يَرِدُ على الزمخشريِّ لزومُ كون النهار معمولاً للابتغاء مع تقدُّمه عليه وعَطْفِه على معمولِ «منامكم».

وفي اقتران الفضل بالابتغاء إشارةٌ إلى أنَّ العبد ينبغي أن لا يَرى الرزق من نفسه وبحذقه، بل يرى كلَّ ذلك من فضل ربِّه جل وعلا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: شأنُهم أن يسمعوا الكلامَ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ، وفيه إشارةٌ إلى ظهور الأمر بحيث يكفي فيه مجرَّدُ السماع لمن له فهمٌ وبصيرةٌ، ولا يحتاج إلى مشاهدةٍ وإن كان مشاهداً.

وقال الطيبيُّ: جيء بالفاصلة هكذا لأنَّ أكثر الناس مُنْسَدِحون بالليل كالأموات، ومتردِّدون بالنهار كالبهائم، لا يدرون فيم هم ولمَ ذلك، لكن مَن ألقى السمع وهو شهيدٌ يتنبَّه لوعظ الله تعالى ويُصغي إليه؛ لأنَّ مرَّ الليالي وكرَّ النهار يناديان بلسان الحال: الرحيلَ الرحيلَ من دار الغرور إلى دار القرار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

---

(١) في الكشاف ٣/٢١٨.

وذكر الإمام[١] أنَّ من الأشياء ما يحتاج في معرفته إلى مُوقِفٍ يُوْقِفُ عليه، ومرشدٍ يُرشِدِ إليه، فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد، ولمَّا كان المنام والابتغاءُ قد يقع لكثيرٍ أنهما من أفعال العباد، فيحتاج معرفةُ أنهما من آياته تعالى إلى مرشدٍ يُعينُ الفِكْرَ قيل: «لقوم يسمعون»، فكأنه قيل: لقومٍ يسمعون ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد. انتهى. ولعل الاحتياج إلى مُرْشدٍ يعين الفكر في أنَّ الليل والنهار من الآيات بناءً على ما سمعتَ في بيان نكتةِ التوسيطِ أظهرُ، فتأمل.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ ذهب أبو عليٍّ إلى أنه بتقدير «أنْ» المصدريةِ، والأصل: أنْ يُرِيَكم، فحذف «أن» وارْتَفَع الفعلُ، وهو الشائعُ بعد الحذف في مثل ذلك، وشذَّ بقاؤه منصوباً بعده، وقد روي بالوجهين قولُ طرفة:

أَلَا أيُّهذا الزاجري أحْضُر الوغى وأنْ أشهَدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخْلدي[٢]

وجوِّز كونُه مما نزِّل فيه الفعلُ منزلةَ المصدر، فلا تقدَّر «أنْ» بل الفعلُ مستعملٌ في جزءِ معناه وهو الحدثُ مقطوعٌ فيه النظرُ عن الزمان، فيكون اسماً في صورة الفعل، فـ «يريكم» بمعنى الرؤية، وحُمِلَ على ذلك في المشهور قولُهم: تسمعُ بالمعيدي خيرٌ من أنْ تراه. وجوِّز فيه[٣] أن يكون مما حُذِفَ فيه «أنْ» وأيِّد بأنه رُوي فيه: تسمعَ بالنصب أيضاً، ولم يَرْتَضِه بعضُ الأجلَّة؛ لأنَّ المعنى ليس على الاستقبال، وأمَّا «أنْ تراه» فالاستقبالُ فيه بالنسبة إلى السماع فلا ينافيه. ومثلُه قوله:

فقالوا ما تشاءُ فقلتُ ألْهو إلى الإصباح آثِرَ ذي أثيرِ[٤]

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١١٣.

(٢) البيت في ديوانه ص٣٢، وسلف ٢/ ٢٧٧ و٧/ ٢٤٤ و١٠/ ١٤٥. قال الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٨: ألا للتنبيه، وأيّ منادى حُذف منه حرف النداء، وهذا صفةٌ لأي، والزاجري بدل منه، و«أل» فيه موصولة ولذا ساغ فيه الإضافة لياء المتكلم، وهل للاستفهام الإنكاري، ومخلدي مضاف إلى ضمير المتكلم، وعَطْفُ قوله: وأن أشهد، دليل على الحذف مما قبله، يقول لمن منعه حضور المحاربات والانهماك في اللذات: هل أنت ضامن لي الخلود في الدنيا حتى لا ألج المهالك ولا أستعجل الشهوات.

(٣) يعني في المثل. حاشية الشهاب ٧/ ١١٨.

(٤) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٥٧. والمعنى: فقلت: أن ألهو إلى الصبح آثر كلِّ شيءٍ يؤثر فعله، ويقال: أفعله آثر ذي أثير، أي: أولَ كلِّ شيءٍ. مجمع الأمثال ٢/ ٧٦.

ورجِّح الحملُ على التنزيل منزلةَ اللازم دلالةً على أنه كالحال اهتماماً بشأن المراد؛ لقوله: آثِر ذي أثير، والتعليل بأنَّ «ما تشاء» سؤالٌ عما يشاؤه في الحال و«أنْ» للاستقبال ليس بالوجه؛ لأنَّ المشيئة تتعلَّق بالمستقبل أبداً.

وقال الجامع الأصفهانيُّ: تقديرُ الآية: ومن آياته آيةٌ يريكم البرق، على أنَّ «يريكم» صفةٌ وحُذف الموصوف وأقيمت الصفةُ مقامه كما في قوله:

وما الدهرُ إلَّا تارتان فمنهما   أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ[1]

أي: فمنهما تارةٌ أموتُ، قيل: فلا بدَّ من راجعٍ فقدِّر: فيها أو بها، ونصَّ على الثاني الرماني كما في «البحر»[2]، وكلاهما لايسدُّ ـ كما في «الكشف» ـ عليه المعنى.

وقيل: التقدير: ومن آياته البرقُ، ثم استؤنف: «يريكم البرق».

وقيل: «من آياته» حالٌ من «البرق» أي: يريكم البرقَ حالَ كونه من آياته.

وجوَّز أبو حيان تعلُّقه بـ «يريكم»، و«من» لابتداء الغاية[3]، وفيه مخالفةٌ لنظرائه.

وفي «الكشف»: لعل الأَوْجَهَ أن يكون من آياته خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: من آياته ما يُذكر أو ما يُتلَى عليكم، ثم قيل: «يريكم البرق» بياناً لذلك، ثم قال: وهذا أقلُّ تكلُّفاً من الكلِّ.

وأنت تعلم أنَّ الأَوْجَهَ ما تُوافِقُ الآيةُ به نظائرَها.

﴿خَوْفًا﴾ أي: من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في المطر، قاله الضحاك. وقال قتادة: خوفاً للمسافر لأنه علامةُ المطر، وهو يضرُّه لعُدْمِ ما يُكنُّه ولا نَفْعَ له فيه، وطمعاً للمقيم.

وقيل: خوفاً أن يكون خُلَّباً[4]، وطمعاً أن يكون ماطراً.

وقال ابن سلام: خوفاً من البرد أن يُهلك الزرع، وطمعاً في المطر.

---

(١) البيت لتميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤، وسلف ٦/ ٦١.
(٢) ٧/ ١٦٧.
(٣) البحر ٧/ ١٦٧.
(٤) البرق الخلَّب: المُطمِعُ المُخلِف. القاموس (خلب).

ونَصْبُهما على العلة عند الزجّاج[١]، وهو على مذهبِ من لا يشترطُ في نَصْبِ المفعول له اتحادَ المصدر والفعلِ المعلَّلِ في الفاعل ظاهرٌ، وأما على مذهب الأكثرين المشترِطينَ لذلك فقيل في توجيهه: إنَّ ذلك على تقدير مضافٍ، أي: إرادةَ خوفٍ وطمع، أو على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع، إمَّا بأن يُجعل أصلُهما ذلك على حذف الزوائد، أو بأنْ يُجعلا مجازين عن سببيهما.

وقيل: إنَّ ذلك لأنَّ إراءتهم تستلزمُ رؤيتهم، فالمفعولون فاعلون في المعنى، فكأنه قيل: لجعلكم[٢] رائين خوفاً وطمعاً.

واعتُرض بأنَّ الخوف والطمع ليسا غرضين للرؤية ولا داعيين لها بل يتبعانها، فكيف يكونان علةً على فرض الاكتفاء بمثل ذلك عند المشترطين. ووجِّه بأنه ليس المراد بالرؤية مجرَّدَ وقوع البصر، بل الرؤيةَ القَصْديةَ بالتوجُّه والالتفات، فهو مثلُ: قعدتُ عن الحرب جبناً.

ولم يرتضِ ذلك أبو حيان أيضاً، ثم قال: لو قيل على مذهب المشترطينَ: إنَّ التقدير: يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً، فحذف العامل للدلالة عليه، لكان إعراباً سائغاً[٣].

وقيل: لعل الأظهر نَصْبُهما على العلَّة للإراءة؛ لوجود المقارنة والاتحادِ في الفاعل، فإنَّ الله تعالى هو خالقُ الخوف والطمع، وكونُ معنى قول النحاة: لابدَّ أن يكون المفعولُ له فِعْلَ الفاعل، أنه لا بدَّ من كونه متَّصفاً به كالإكرام في قولك: جئتك إكراماً لك، إنْ سلِّم فلا حَجْرَ من الانتصاب على التشبيه في المقارنة والاتحاد المذكور.

وتعقِّب بأنَّ كون المعنى ما ذُكر مما لا شبهةَ فيه، وقد ذكره صاحب «الانتصاف»[٤] وغيرُه، فإنَّ الفاعل اللغويَّ غيرُ الفاعل الحقيقيِّ، فالتوقُّفُ فيه وادِّعاءُ أنه لا حَجْر من الانتصاب على التشبيه مما لا وجه له.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٨٢.
(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ١٦٧، وفي الكشاف والانتصاف ٣/ ٢١٩: يجعلكم.
(٣) البحر ٧/ ١٦٧-١٦٨.
(٤) ٣/ ٢١٩، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١١٨.

وأنا أميلُ إلى عدم اشتراط الاتحاد في الفاعل؛ لكثرة النصب مع عدم الاتحاد كما يَشهدُ بذلك التتبُّعُ والرجوعُ إلى «شرح الكافية» للرضي، والتأويلُ مع الكثرة ممَّا لا موجبَ له.

وجوِّز أن يكون النصب هنا على المصدر، أي: تخافون خوفاً وتطمعون طمعاً، على أن تكون الجملة حالاً. وأولى منه أن يكونا نصباً على الحال، أي: خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقرأ غيرُ واحدٍ بالتخفيف[1] ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾ أي: بسبب الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأنْ يُخرِج سبحانه النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يبسها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يَستعملون عقولَهم في استنباط أسبابها وكيفيةِ تكوُّنها؛ ليظهر لهم كمالُ قدرة الصانع جلَّ شأنُه وحكمته سبحانه.

وقال الطيبيُّ: لمّا كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء الناس وإخراج الموتى، وكان التمثيلُ لإدْناء المتوهَّم إلى[2] المعقول، وإراءةِ المتخيَّل في صورة المحقَّق، ناسَبَ أن تكون الفاصلةُ: «لقوم يعقلون»[3].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقوله تعالى: قُوما، أو: بإرادته عز وجل، والتعبيرُ عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغِنَى عن المبادي والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاءَهما؛ لأنه قد بيَّن حاله بقوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)، ولا إقامتَهما بغير مقيمٍ محسوسٍ كما قيل، فإنَّ ذلك من تتمَّات إنشائهما وإن لم يصرّح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية [لقمان: ١٠]، بل قيامهما وبقاؤهما على ما هما عليه إلى أَجَلهما الذي أُشير إليه بقوله تعالى فيما قبل: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

ولمَّا كان البقاء مستقبلاً باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآية أُظْهِرتْ هنا كلمة «أنْ» التي هي عَلَمٌ في الاستقبال.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/٢١٨.

(٢) قوله: إلى، ساقط من (م).

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

والإمام ذهب إلى أنَّ القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول، ثم قال على ما لخَّصه بعضهم: ذُكرت «أنْ» ها هنا دون قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ لأنَّ القيام لمَّا كان غيرَ متغيِّرٍ أخرج الفعل بـ «أنْ» العَلَمِ في الاستقبال، وجُعل مصدراً ليدلَّ على الثبوت، وإراءةُ البرق لمَّا كانت من الأمور المتجدِّدة جيء بلفظ المستقبل ولم يذكر معه ما يدلُّ على المصدر(١). اهـ.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ «إذا» الأولى شرطيةٌ، والثانيةُ فجائيةٌ نائبةٌ منابَ الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب. والجملةُ الشرطية قيل: معطوفةٌ على «أن تقوم» على تأويل مفردٍ، كأنه قيل: ومن آياته قيامُ السماء والأرض بأمره ثم خروجُكم من قبوركم بسرعةٍ إذا دعاكم.

وصاحب «الكشف» يقول: إنها أُقيمت مقام المفرد من حيث المعنى، وأمَّا من حيث الصورةُ فهي جملةٌ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ وذلك على أسلوب ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧] وفائدتُه ما سمعتَه قريباً. وظاهرُ كلام بعض الأفاضل أنَّ العطف عليه ظاهرٌ في عدم قَصْدِ عدِّ ما ذكر آية.

واختار أبو السعود عليه الرحمةُ كونَ العطف مِن عَطْفِ الجمل، وأنَّ المذكور ليس من الآيات، قال: حيث كانت آيةُ قيام السماء والأرض بأمره تعالى متأخِّرةً عن سائر الآيات المعدودة، متَّصلةً بالبعث في الوجود، أُخِّرتْ عنهنَّ وجُعلت متصلةً به في الذكر أيضاً، فقيل: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الآيةَ، والكلامُ مسوقٌ للإخبار بوقوع البعث ووجودِه بعد انقضاءِ أجلِ قيامهما، مترتِّبٌ على تعدُّدِ آياته تعالى الدالَّةِ عليه، غيرُ منتظمٍ في سلكها كما قيل، كأنه قيل: ومن آياته قيامُ السماء والأرض على هيأتهما بأمره عز وجل إلى أجلٍ مسمًّى قدَّره الله تعالى لقيامهما، ثم إذا دعاكم ـ أي: بعد انقضاء الأجل في الأرض وأنتم في قبوركم ـ دعوةً واحدةً بأن قال سبحانه: أيها الموتى اخرجوا، فَجَأْتُم الخروجَ منها(٢).

ولعل ما أشار إليه صاحب «الكشف» أدقُّ وأبعدُ مغزًى، فتأمل.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١١٤-١١٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٧/ ٥٨.

و«من الأرض» متعلِّقٌ بـ «دعا»، و«من» لابتداء الغاية، ويكفي في ذلك ـ إذا كان الداعي هو الله تعالى نفسه لا المَلَك بأمره سبحانه ـ كونُ المدعوِّ فيها، يقال: دعوتُه من أسفل الوادي فطلع إليَّ، لا بـ «دعوة» فإنه إذا جاء نَهْرُ الله جل وعلا بَطَلَ نهرُ معقل[١]. نعم جوَّز كونُ ذلك صفةً لها، وأنْ يكونَ حالاً من الضمير المنصوب. ولا بـ «تخرجون» لأنَّ ما بعد «إذا» لا يعمل فيما قبلها.

وقال ابن عطية: إنَّ «من» عندي لانتهاء الغاية[٢]. وأثبت ذلك سيبويه[٣]. وقال أبو حيان: إنه قولٌ مردودٌ عند أصحابنا[٤].

وظواهرُ الأخبار أنَّ الموتى يُدْعَون حقيقةً للخروج من القبور، وقيل: المراد تشبيهُ ترتُّبِ حصول الخروج على تعلُّقِ إرادته بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّم عملٍ بسرعةٍ ترتُّبِ إجابة الداعي المطاع على دعائه، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ أو تخييليةٌ ومكنية بتشبيه الموتى بقومٍ يريدون الذهاب إلى محلِّ ملكٍ عظيمٍ متهيئين لذلك، وإثباتُ الدعوة لهم قرينتها، أو هي تصريحيةٌ تبعيةٌ في قوله تعالى: ﴿دَعَاكُمْ﴾ إلى آخرها.

و«ثم» إمَّا للتراخي الزمانيِّ، أو للتراخي الرتبيِّ والمرادُ عظمُ ما في المعطوف من إحياء الموتى في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه، فلا ينافي قولَه تعالى الآتي: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وكونُه أعظمَ من قيام السماء والأرض؛ لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرارُ السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات، وهو المقصودُ من خَلْقِ الأرض والسماوات، فاندفع ما قاله ابن المنير من أنَّ مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا[٥]، مع أنَّ كونَ المعطوف في مثله أرفعَ درجةً أكثريٌّ

---

(١) هذا مثل، ومثْلُه: إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى، ونهر معقل بالبصرة ونهر عيسى ببغداد، وعليهما أكثر الضياع الفاخرة، وإنما يريدون بنهر الله: البحر والمطر والسيل، فإنها تغلب سائر المياه والأنهار وتطم عليها. ثمار القلوب للثعالبي ص٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٤.

(٣) ينظر الكتاب ٤/ ٢٢٥.

(٤) البحر ٧/ ١٦٨.

(٥) الانتصاف ٣/ ٢١٩، وذكر فيه أن «ثم» على بابها في تراخي الزمان، وإن سلِّم أنها لتراخي المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي

لا كلِّيٌّ كما صرَّح به الطيبيُّ[(١)]، فلا مانع من اعتبار التراخي الرُّتْبي لو لم يكن المعطوفُ أرفعَ درجة. ويجوزُ حملُ التراخي على مطلق البعد الشامل للزمانيِّ والرتبي.

وقرأ السبعة ما عدا حمزة والكسائيَّ: «تُخْرَجون» بضم التاء وفتح الراء[(٢)].

وهذه الآيةُ ذُكر أنها ممَّا تقرأ على المصاب؛ أخرج ابن أبي حاتم عن الأزهر بن عبد الله الحَرَازيِّ قال: يقرأ على المصاب إذا أُخذ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[(٣)].

وذكر الإمام وأبو حيان في وجه ترتيب الآيات وتذييلِ كلٍّ منهما بما ذيِّل كلاماً طويلاً[(٤)]، إن احْتَجْتَه فارْجِعْ إليه.

﴿وَلَهُۥ﴾ عز وجل خاصةً كلُّ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثَّقَلين خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً ليس لغيره سبحانه شركةٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾ لا لغيره جل وعلا ﴿قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون لفعله، لا يمتنعون عليه ـ جلَّ شأنُه ـ في شأنٍ من الشؤون وإن لم يَنْقَدْ بعضُهم لأمره سبحانه، فالمرادُ طاعةُ الإرادة لا طاعةُ الأمر بالعبادة، وهذا حاصلُ ما روي عن ابن عباس. وقال الحسن: «قانتون»: قائمون بالشهادة على وحدانيته تعالى، كما قال الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنه واحدُ[(٥)]

وقال ابن جبير: «قانتون» مُخْلِصون. وقيل: مقرُّون بالعبودية. وعليهما ليس العمومُ على ظاهره ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت؛ والتكريرُ لزيادة

= الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب. ونقل المصنف كلامه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١١٩.

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١١٩.

(٢) التيسير ص١٧٥. وقرأ بفتح التاء وضم الراء مثل حمزةَ والكسائيِّ خلفٌ وابنُ ذكوان كما في النشر ٢/ ٢٦٧.

(٣) الدر المنثور ٥/ ١٥٤-١٥٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٥/ ١١٤-١١٥، والبحر ٧/ ١٦٨.

(٥) سلف ١/ ٢٧١.

التقرير لشدَّة إنكارهم البعثَ، والتمهيدِ لِمَا بعده من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الضميرُ المرفوع للإعادة، وتذكيرُه لرعاية الخبر، أو لأنها مؤوَّلةٌ بـ «أنْ» والفعلِ وهو في حكم المصدر المذكَّر، أو لتأويلها بالبعث ونحوِه. وكونُه راجعاً إلى مصدرٍ مفهوم من «يعيد»، وهو لم يُذْكَر بلفظ الإعادة، لا يفيدُ ـ على ما قيل ـ لأنه اشتهر به، فكأنه إذا فُهم منه يلاحَظُ فيه خصوصُ لَفْظِه. والضمير المجرورُ لله تعالى شأنه.

و«أهون» للتفضيل، أي: والإعادة أسهلُ على الله تعالى من المبدأ، والأسهليةُ على طريقة التمثيل بالنسبة لِمَا يفعلُه البشر مما يقدرون عليه، فإنَّ إعادة شيءٍ من مادته الأولى أهونُ عليهم من إيجاده ابتداءً، والمراد التقريبُ لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلا فكلُّ الممكنات بالنسبة إلى قدرته عز وجل سواءٌ، فكأنه قيل: وهو أهونُ عليه بالإضافة إلى قُدَرِكم[1] والقياسِ على أصولكم.

وذكر الزمخشريُّ وجهاً آخر للتفضيل، وهو أنَّ الإنشاء من قَبيل التفضُّل الذي يتخيَّر فيه الفاعلُ بين أن يفعله وأن لا يفعله، والإعادةُ من قبيل الواجب الذي لابدَّ من فِعْلِه لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب، والأفعالُ إمَّا محالٌ والمحالُ ممتنعٌ أصلاً خارجٌ عن المقدور، وإما ما يَصْرِفُ الحكيمَ عن فِعْلِه صارفٌ وهو القبيحُ، وهو رديفُ المحال لأنَّ الصارف يمنع وجودَ الفعل كما تمنعه الإحالة، وإمَّا تفضُّلٌ والتفضُّل حالةٌ بَيْنَ بَيْنَ، للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله، وإما واجبٌ لابدَّ من فِعْلِه ولا سبيلَ إلى الإخلال به، فكان الواجبُ أبعد الأفعال من الامتناع وأقربَها من الحصول، فلمَّا كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعدَ الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعدَها منه كانت أَدْخلَها في التأتِّي والتسهُّلِ، فكانت أهونَ منها، وإذا كانت كذلك كانت أهونَ من الإنشاء[2]. اهـ.

قال في «التقريب»: وفيه نظرٌ؛ لأنه مبنيٌّ على الوجوب العقليِّ، ولأنَّ الوجوب إذا كان بالذات نافَى القدرة كالامتناع، وإلَّا كان ممكناً فتساوى الفعلان لاشتراكهما في مصحِّح المقدورية وهو الإمكان.

---

(١) جمع قدرة. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٢١.

وتعقَّبه في «الكشف» بقوله: أقول: إنه غيرُ واجبٍ بالذات، ولا يلزمُ منه المساواةُ مع التفضُّل في سهولة التأتِّي، وأما المساواةُ في مصحِّح المقدورية فلا مدخل لها فيما نحن فيه، والحاصلُ منه أنه لو سلِّم منه أنَّ الداعيَ إلى فِعْله أقوى فلا شكَّ أنه أقرب إلى الوجود مما لا يكون الداعي كذلك. نعم إذا خلص الداعي إلى القسمين صارا سواءً، وليس البحثُ على ذلك التقدير. اهـ.

والحقُّ ما قاله أبو السعود[1] من أنه ليس المراد بأهونية الفعل أقربيتَه إلى الوجود باعتبارِ كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده، وقوةِ اقتضائها لتعلُّق قدرته به، بل أسهليةَ تأتِّيه وصدورِه عنه عند[2] تعلُّق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير، ولا تفاوتَ في ذلك بين أن يكون ذلك التعلُّق بطريقة الإيجاب أو بطريقِ الاختيار.

وروى الزجَّاج عن أبي عبيدة وكثيرٍ من أهل اللغة أنَّ «أهون» هاهنا بمعنى هيِّن[3]. وروي ذلك عن ابن عباس والربيع، وكذا هو في مصحف عبد الله[4]، وهذا كما يقال: اللهُ تعالى أكبرُ، أي: كبيرٌ، و: أنت أَوْحَدُ الناس، أي: واحدهم، و: إنِّي لأَوْجَلُ، أي: وَجِلٌ.

وفي «الكشف»: التحقيقُ أنه من باب الزيادة المطلقة، وإنما قيل: بمعنى الهين؛ لأنه يؤدِّي مؤدَّاه.

وقيل: أفعل على ظاهره، وضميرُ «عليه» عائدٌ على «الخلق»، على معنى أنَّ الإعادة أيسرُ على المخلوق؛ لأنَّ البداءة فيها تدريجٌ من طورٍ إلى طورٍ إلى أن يصير إنساناً، والإعادةُ لا تحتاج إلى التدريجات في الأطوار، إنما يدعوه اللهُ تعالى فيخرج. وإمَّا على معنى أنَّ الإعادة أسهلُ على المخلوق، أي: أنْ يُعيدوا شيئاً ويفعلوه ثانياً بعدَ ما زاولوا فعلَه وعرفوه أولاً أسهلُ من أن يفعلوه أولاً قبل المزاولة، وإذا كان هذا حالُ المخلوق فما بالك بالخالق. ولا يخفى أنَّ الظاهر رجوعُ الضمير إليه تعالى.

---

(١) في تفسيره ٧/ ٥٨.

(٢) في تفسير أبي السعود: بعد.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٣، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٢١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥، والبحر ٧/ ١٦٩.

ثم إنَّ الجارَّ والمجرور صلةُ «أهون»، وقدِّمت الصلةُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم:٩] وأخِّرت هنا لأنه قَصَدَ هنالك الاختصاصَ وهو محزُّه، فقيل: هو عليَّ هيِّنٌ وإن كان صعباً عندكم أن يولد بين هِمٍّ[1] وعاقر، وأمَّا هاهنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمرُ مبنيٌّ على ما يعقلون من أنَّ الإعادة أسهلُ من الابتداء، فلو قدِّمت الصلة لتغيَّر المعنى.

ولمَّا أخبر سبحانه بانَّ الإعادة أهونُ عليه على طريق التمثيل عقَّب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾ تعالى شأنهُ خاصةً ﴿الْمَثَلُ﴾ أي: الوصف العجيبُ الشأنِ، كالقدرة العامة، والحكمةِ التامة، وسائرِ صفات الكمال ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليس لغيره ما يدانيه فضلاً عمَّا يساويه، فكأنه قيل: هذا لتفهيم العقول القاصرة، إذ صفاتُه تعالى عجيبةٌ، وقدرتُه جلَّ شأنُه عامةٌ، وحكمتُه سبحانه تامةٌ، فكلُّ شيء بَدْءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً على حدٍّ سواءٍ، ولا مِثْلَ له تعالى ولا ندّ.

وعن قتادة ومجاهدٍ أنَّ «المثل الأعلى»: لا إله إلا الله. ولعلهما أرادا بذلك الوحدانيةَ في ذاته تعالى وصفاتِه سبحانه، والكلامُ عليه مرتبطٌ بما قبله أيضاً، كأنه قيل: ما ذكر لتفهيم العقول القاصرة لأنه تعالى لا يشاركه أحدٌ في ذاته تعالى وصفاته عزَّ وجل.

وقيل: مرتبطٌ بما بعده من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

وقال الزَّجاج[2]: المثلُ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه الله تعالى مثلاً فيما يسهلُ ويصعبُ عندكم، وينقاسُ على أصولكم، فاللامُ في «المَثَل» للعهد، وهو محمولٌ على ظاهره غيرُ مستعارٍ للوصف العجيب الشأن.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ متعلِّقٌ بمضمون الجملة المتقدِّمة، على معنى أنه سبحانه قد وُصِفَ بذلك وعُرِفَ به فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل.

وقيل: بـ «الأعلى». وقيل: بمحذوفٍ هو حالٌ منه، أو من «المثل» أو من ضميره في «الأعلى».

---

(١) الهِمُّ والهِمَّة بكسرهما: الشيخ الفاني. القاموس (همم)

(٢) في معاني القرآن ٤/ ١٨٤.

وقيل: متعلِّقٌ بما تعلَّق به «له»، أي: له في السماوات والأرض المثلُ الأعلى، والمراد أنَّ دلالة خَلْقِهما على عظيم القدرة أتمُّ من دلالة الإنشاء، فهو أدلُّ على جواز الإعادة، ولهذا جُعل أعلى من الإنشاء، فتأمل.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجز عن بدءِ ممكنٍ وإعادته ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الذي يُجري الأفعال على سَنَنِ الحكمة والمصلحة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ يتبيَّن به بطلانُ الشرك ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منتزعاً من أحوالها التي هي أقربُ الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذكر من بطلان الشرك؛ لكونها بطريق الأولوية. و«من» لابتداء الغاية.

وقوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم﴾ إلى آخره تصويرٌ للمَثَل، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى النفي، و«لكم» خبرٌ مقدَّمٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ في موضع الحال من «شركاء» بعدُ لأنه نعتُ نكرةٍ تقدَّم عليها، والعاملُ فيها كما في «البحر» هو العاملُ في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً، و«من» للتبعيض، و«ما» واقعةٌ على النوع، وقولُه تعالى: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ مبتدأ، و«من» مزيدةٌ لتأكيد النفي المستفادِ من الاستفهام، وقولُه تعالى: ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ «شركاء»، أي: هل شركاءُ فيما رزقناكم من الأموال وما يجري مجراها ممَّا تتصرَّفون فيه كائنون من النوع الذي ملكته أيمانُكم من نوع العبيد والإماء كائنون لكم[1].

وجوّز أن يكون «لكم» متعلِّقاً بـ «شركاء»، ويكون «فيما رزقناكم» في موضع الخبر، كما تقول: لزيدٍ في المدينة مبغض، فـ «لزيد» متعلقٌ بـ «مبغض» الذي هو مبتدأ، و«في المدينة» الخبر، أي: هل شركاءُ لكم كائنون ممَّا ملكته أيمانكم كائنون فيما رزقناكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملةٌ في موضع الجواب للاستفهام الإنكاريِّ، و«فيه» متعلِّقٌ بـ «سواء»، وفي الكلام محذوفٌ معطوفٌ على «أنتم»، أي: فأنتم وهم ـ أي: المماليك ـ مستوون فيه لا فرق بينكم وبينهم في التصرُّف فيه.

---

(١) البحر ٧/ ١٧٠-١٧١.

وقيل: لا حَذْفَ، و«أنتم» شاملٌ للمماليك بطريق التغليب.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبرٌ آخَرُ لـ «أنتم». وقال أبو البقاء: حالٌ من ضمير «أنتم» الفاعلِ في «سواء»(١).

وقوله تعالى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في موضع الصفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تخافونهم أنْ تستبدُّوا بالتصرُّف فيه بدون رأيهم خيفةً كائنةً مثلَ خيفتكم مَن هو من نوعكم، يعني الأحرارَ المساهمين لكم.

والمقصودُ نفي مضمون ما فصِّل من الجملة الاستفهامية، أي: لا تَرضَون بأن يشارككم فيما رزقناكم من الأموال ونحوِها مماليكُكُم وهم أمثالُكم في البشرية غيرُ مخلوقينَ لكم بل للهِ تعالى، فكيف تُشْرِكون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقَه سبحانه، بل مصنوعَ مخلوقه جلَّ وعلا حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أنفسُكم» بالرفع(٢) على أنَّ المصدر مضافٌ للمفعول و«أنفسُكم» فاعلُه؛ قال أبو حيان: وهو وجهٌ حسنٌ، ولا قبحَ في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل(٣).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التفصيلِ الواضح ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبيِّنها ونوضِّحها، لا تفصيلاً أدنى منه، فإنَّ التمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، وإبرازٌ لأوابد المدرَكاتِ على هيئة المأنوس، فيكون في غاية الإيضاح والبيان.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبُّر الأمثال. وقيل: في تدبُّر(٤) الأمور مطلقاً، ويدخلُ في ذلك الأمثالُ دخولاً أوَّليًا، وخصَّهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكلِّ لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٧٥.
(٢) البحر ٧/ ١٧١، والدر المصون ٩/ ٤٣، وتحرَّف: عبلة، في مطبوع البحر إلى: عبيدة.
(٣) البحر ٧/ ١٧١.
(٤) في (م): تدبير، في الموضعين، وهو تصحيف.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ أنه لما كان ضربُ الأمثال لإدناء المتوهَّم إلى المعقول، وإراءةِ المتخيَّل في صورة المحقَّق، ناسب أن تكون الفاصلةُ: «القوم يعقلون»[(١)]. وهذه النكتةُ هنا أظهرُ منها فيما تقدَّم[(٢)]، فتذكره.

وقرأ عباس عن أبي عمرو: «يفصِّل» بياء الغيبة[(٣)] رَعْياً لـ «ضَرَبَ»؛ إذ هو مسندٌ لِمَا يعود للغائب. وقراءةُ الجمهور بالنون للحَمْلِ على «رزقناكم».

وذكر بعض العلماء أنَّ في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقينَ لافتقار بعضهم إلى بعض، كأنه قيل: الممتنعُ المستقبَحُ شركةُ العبيد لساداتهم، أمَّا شركةُ السادات بعضهم لبعض فلا تمتنعُ ولا تُستقبح.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ إعراضٌ عن مخاطبتهم ومحاولةِ إرشادهم إلى الحقِّ بضَرْبِ المثل وتفصيلِ الآيات واستعمالِ المقدِّمات الحقَّةِ المعقولةِ، وبيانٌ لاستحالة تبعيتهم للحقِّ، كأنه قيل: لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصَّلة بل اتَّبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الزائغةَ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم في ذلك الاتِّباع ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه، أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: جاهلين ببطلان ما أتوا، منكبِّين عليه لا يصرفُهم عنه صارفٌ حَسْبَما يَصْرِفُ العالمَ إذا اتَّبع الباطلَ عِلْمُه ببطلانه.

﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي: خَلَقَ فيه الضلال وجَعَلَه كاسباً له باختياره ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: لمن أضلَّه الله تعالى، والجمعُ باعتبار المعنى ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ يخلِّصونهم من الضلال، ويحفظونهم من تَبِعاته وآفاته، على معنى: ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ على ما هو المشهور في مقابلة الجمع بالجمع.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.
(٢) عند تفسير الآية (٢٤) من هذه السورة.
(٣) البحر ٧/ ١٧١، وعباس هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣. والقراءة في القراءات الشاذة ص١١٦ عن ابن عباس.

و«من» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والكلام مسوقٌ لتسلية رسوله ﷺ، وتوطئةٌ لأمْرِه عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال العلَّامة الطيبيُّ: إنه تعالى عقيبَ ما عدَّد الآيات البيِّنات، والشواهدَ الدالَّة على الوحدانية ونفي الشرك وإثباتِ القول بالمعاد، وضَرَبَ سبحانه المَثَلَ، وقال سبحانه: (كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أراد جلَّ شأنه أن يُسلِّي حبيبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ويوطِّنه على اليأس من إيمانهم، فأَضْرَبَ تعالى عن ذلك وقال سبحانه: (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم) وجَعَلَ السبب في ذلك أنه عزَّ وجل ما أراد هدايتهم، وأنه مختومٌ على قلوبهم، ولذلك رتَّب عليه قولَه تعالى: (فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ) على التقريع والإنكار، ثم ذيَّل سبحانه الكلَّ بقوله تعالى: (وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ) يعني: إذا أراد الله تعالى منهم ذلك فلا مخلِّصَ لهم منه، ولا أحدَ ينقذهم لا أنت ولا غيرُك، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات، فاهتمَّ بخاصَّةِ نفسِك ومَن تَبِعكَ، وأقم وجهك.. إلخ[1]. اهـ، ومنه يُعلم حالُ الفاء في قوله تعالى: «فمَن»، وكذا في قوله سبحانه: «فأقِمْ».

وقدَّر النيسابوريُّ للثانية: إذا تبيَّن الحقُّ وظهرت الوحدانية فأقم.. إلخ[2].

ولعل ما أشار إليه الطيبيُّ أَوْلَى، ثم إنه يلوح من كلامه احتمالُ أن يكون الموصولُ قائماً مقام ضمير «الذين ظلموا» فتدبَّر.

و«أقم» مِن أقام العود، ويقال: قوَّم العود أيضاً، إذا عدَّله، والمراد الأمرُ بالإقبال على دين الإسلام والاستقامةِ والثبات عليه، والاهتمام بترتيب أسبابه على أنَّ الكلام تمثيلٌ لذلك، فإنَّ مَن اهتمَّ بشيءٍ محسوسٍ بالبصر عقد إليه طَرْفَه، وسدَّد إليه نظره، وأقبل عليه بوجهه[3] غيرَ متلفتٍ عنه، فكأنه قيل: فعدِّل وجهَكَ للدِّين وأَقْبِلْ عليه إقبالاً كاملاً غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالاً.

وقال بعض الأجِلَّة: إنَّ إقامة الوجه للشيء كنايةٌ عن كمال الاهتمام به. ولعله

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري ٢١/٣٣.

(٣) في (م): بوجه.

أراد بالكناية المجازَ المتفرِّعَ على الكناية؛ فإنه لا يُشترط فيه إمكانُ إرادةِ المعنى الحقيقيِّ.

ونُصب «حنيفاً» على الحال من الضمير في «أقم»، أو من «الدِّين»، وجوَّز أبو حيان كونَه حالاً من الوجه(١).

وأصل الحَنَفِ: الميلُ من الضلال إلى الاستقامة، وضدُّه الجَنَفُ بالجيم.

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ نصبٌ على الإغراء، أي: الْزَموا فطرةَ الله تعالى، ومَن أجاز إضمارَ أسماء الأفعال جوَّز أن يقدَّر هنا «عليكم» اسم فعل.

وقال مكِّي: هو نصبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: اتَّبع فطرةَ الله، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ لأنَّ معناه: اتَّبع الدِّين(٢). واختاره الطيبيُّ وقال: إنه أقربُ في تأليف النظم؛ لأنه موافقٌ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾، ولترتُّب قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ عليه بالفاء(٣).

وجوِّز أن يكون نصباً بإضمارِ أعني، وأن يكون مفعولاً مطلقاً لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه ما بعدُ، أي: فَطَرَكم فطرةَ الله. ولا يصحُّ عَملُ «فَطَرَ» المذكورِ بعدُ فيه؛ لأنه من صفته. وأن يكون منصوباً بما دلَّ عليه الجملة السابقة على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه. وأن يكون بدلاً من «حنيفاً».

والمتبادرُ إلى الذهن النصبُ على الإغراء، وإضمارُ الفعل على خطاب الجماعة مع أنَّ المتقدِّم «فأقم» هو ما اختاره الزمخشريُّ(٤)؛ ليطابق قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وجَعَلَه حالاً من ضمير الجماعة المسندِ إليه الفعلُ، وجَعَلَ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ معطوفاً على ذلك الفعل.

وقال الطيبيُّ بعد ما اختار تقديرَ: اتَّبِعْ، ورجَّحه بما سمعتَ: وأمَّا قولُه تعالى:

---

(١) البحر ٧/ ١٧١.

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/ ٥٦١.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٢، وقدَّر فيه الفعل: الزموا فطرة الله، أو: عليكم فطرة الله.

(مُنِيبِينَ) فهو حالٌ من الضمير في «أقم»، وإنما جُمع لأنه مردودٌ[1] على المعنى؛ لأنَّ الخطاب للنبيِّ ﷺ وهو خطابٌ لأمته، فكأنه قيل: أقيموا وجوهكم منيبين. وقال الفرَّاء: أي: أقم وجهك ومَن اتَّبعك، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢] فلذلك قال سبحانه: (مُنِيبِينَ). وفي «المرشد» أنَّ «منيبين» متعلِّقٌ بمضمرٍ، أي: كونوا منيبين؛ لقوله تعالى بعدُ: (وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[2]. اهـ.

ولا يخفى على المنصِفِ حُسْنُ كلام الزمخشريِّ، وما ذكر من أنَّ خطابه ﷺ خطابُ الأمة يؤكِّد الدلالة على ذلك المضمر، لا أنه يجوز أن يكون «منيبين» حالاً من الضمير في «أقم». وظاهرُ كلام الفرَّاء يقتضي كونَ الحال من مذكورٍ ومحذوفٍ، وهو قليلٌ في الكلام، وإضمارُ «كونوا» مع إضمار فعلٍ ناصب لـ «فطرة الله» موجبٌ لكثرة الإضمار، وإضمارُه دون إضمارٍ فيما قبلُ موجبٌ لارتكاب خلافِ المتبادر هناك.

والفطرةُ على ما قال ابن الأثير للحالة، كالجِلْسة والرِّكبة، من الفَطْرِ بمعنى الابتداء والاختراع[3]. وفسَّرها الكثير هنا بقابلية الحقِّ والتهيُّؤ لإدراكه، وقالوا: معنى لزومِها الجريانُ على موجبها وعدمُ الإخلال به باتِّباع الهوى وتسويلِ شياطين الإنس والجنِّ، ووَصْفُها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لتأكيد وجوب امتثال الأمر.

وعن عكرمةَ تفسيرُها بدين الإسلام، وفي الخبر ما يدلُّ عليه؛ أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفَّار قال: سألتُ قتادةَ عن قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ فقال: حدَّثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فطرةُ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها دينُ الله تعالى»[4].

---

(١) في (م): مردد، وهو تصحيف.
(٢) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٢٥.
(٣) النهاية (فطر).
(٤) الدر المنثور ٥/ ١٥٥.

والمرادُ بفَطْرِهم على دين الإسلام: خَلْقُهم قابلينَ له غيرَ نابينَ عنه ولا منكرين له؛ لكونه مجاوباً للعقل مُساوِقاً للنظر الصحيح، حتى لو تُركوا لَمَا اختاروا عليه ديناً آخر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ يولَدُ إلَّا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانِه أو ينصِّرانِه أو يمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاءَ؟»(١).

والمراد بـ «الناس» على التفسيرين جميعهم، وزعم بعضهم أنَّ المراد بهم على التفسير الثاني المؤمنون، وليس بشيءٍ.

واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طُبع على الكفر. وأجيب بأنَّ معنى ذلك أنه قدِّر أنه لو عاش يصير كافراً بإضلال غيره له، أو بآفةٍ من الآفات البشرية، وهذا ـ على ما قيل ـ هو المرادُ من قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقيُّ شقيٌّ في بطن أمه»(٢) وذلك لا ينافي الفَطْرَ على دين الإسلام بمعنَى خَلْقِه متهيِّأً له مستعدًّا لقبوله، فتأمَّلْ فالمقامُ محتاج بعدُ إلى تحقيق.

وقيل: فطرة الله: العهدُ المأخوذُ على بني آدم، ومعنى فَطْرِهم على ذلك ـ على ما قيل ـ خَلْقُهم مركوزاً فيهم معرفتُه تعالى كما أُشير إليه بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، فالمرادُ بخَلْقِ الله فطرتُه المذكورةُ أوَّلاً، ففيه إقامةُ المظهَرِ مقامَ المضمَرِ من غير لَفْظِه السابق، والمعنى: لا صحةَ ولا استقامةَ لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها، وعَدَمِ ترتيب مقتضاها عليها باتِّباع الهوى وقبولِ وسوسة الشياطين.

وقيل: المعنى: لا يقدرُ أحدٌ على أن يغيِّر خَلْقَ الله سبحانه وفطرتَه عز وجل، فلا بدَّ مِن حَمْلِ التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً، ووَضْعِ فطرةٍ أخرى

(١) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨)، وهو عند أحمد (٧٧١٢).
(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن ماجه (٤٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «ألا إنما الشقي مَن شَقِي...»، وسلف ١٢/ ١٢٤.

مكانَها غيرِ مصحِّحةٍ لقبول الحقِّ والتمكُّنِ من إدراكه ضرورةً، فإنَّ التبديل بالمعنى الأولِ مقدورٌ بل واقعٌ قطعاً، فالتعليلُ حينئذٍ من جهةِ أنَّ سلامة الفطرة متحقِّقةٌ في كلِّ أحدٍ، فلا بدَّ من لزومها بترتيب مقتضاها عليها، وعدمِ الإخلال به بما ذكر من اتِّباع الهوى ووسوسةِ الشياطين.

وقال الإمام[1]: يحتمل أن يقال: إنَّ الله تعالى خَلَقَ خَلْقَه للعبادة، وهم كلُّهم عبيدُه، «لا تبديلَ لخلق الله» أي: ليس كونُهم عبيداً مثلَ كونِ المملوك عبداً للإنسان، فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق، بل لا خروجَ للخلق عن العبادة والعبودية. وهذا لبيانِ فسادِ قولِ مَن يقول: العبادةُ لتحصيلِ الكمال، وإذا كمل العبدُ بها لا يبقى عليه تكليفٌ. وقولِ المشركين: إنَّ الناقص[2] لا يصلُحُ لعبادة الله تعالى، وإنما يعبد نحوَ الكواكبِ وهي عبيد الله تعالى. وقولِ النصارى: إنَّ عيسى عليه السلام كمل بحلول الله تعالى فيه وصار إلهاً. اهـ، وفيه ما فيه.

ومما يُستغرَبُ ما رُوي عن ابن عباس من أنَّ معنى «لا تبديلَ لخلق الله»: النهيُ عن خصاء الفحول من الحيوان.

وقيل: إنَّ الكلام متعلِّقٌ بالكفرة، كأنه قيل: فأقِمْ وجهك للدِّين حنيفاً والْزَمْ فطرةَ الله التي فَطَرَ الناس عليها، فإنَّ هؤلاء الكفرةَ خَلَقَ الله تعالى لهم الكفرَ، ولا تبديلَ لخلق الله، أي: إنهم لا يفلحون. وأنت تعلمُ أنه لا ينبغي حملُ كلام الله تعالى على نحو هذا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين المأمور بإقامة الوجهِ له، أو إلى لزومِ فطرة الله تعالى المستفادِ من الإغراء، أو إلى الفطرة، والتذكيرُ باعتبارِ الخبر، أو بتأويلِ المشارِ إليه بمذكَّرٍ. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحرافَ عن الحقِّ بوجهٍ من الوجوه كما يُنْبئُ عنه صيغة المبالغة، وأصلُه: قَيْوِم على وَزْنِ فَيْعِل، اجتمعت الواوُ والياء وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت الياء فيها.

---

(١) في تفسيره ٢٥/ ١٢٠، وذكره عنه أيضاً النيسابوري في غرائب القرآن ٢١/ ٣٤.

(٢) في (م): الناقض، وهو تصحيف. وجاء في غرائب القرآن بدلاً من المشركين: الصابئة وبعض أهل الشك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ ذلك فيصدُّون عنه صدوداً. وقيل: أي: لا عِلْمَ لهم أصلاً، ولو علموا لعلموا ذلك، على أنَّ الفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل، من ناب نوبةً ونوباً: إذ رجع مرةً بعد أخرى. ومنه النُّوْبُ، أي: النحل؛ سمِّيت بذلك لرجوعها إلى مقرِّها.

وقيل: أي: منقطعين إليه تعالى، من الناب: السنُّ خلفَ الرباعية؛ لمَا يكون بها من الانقطاع ما لا يكون بغيرها. وتُعقِّب بأنه بعيدٌ؛ لأنَّ الناب يائيٌّ وهذا واويٌّ، وقد تقدَّم غيرَ بعيدٍ عدَّةُ أقوالٍ في وجه نَصْبِه، وزاد عليها في «البحر»[1] القول بكونه نصباً على الحال من «الناس» في قوله تعالى: (فَطَرَ ٱلنَّاسَ) وقدَّمه على سائر الأقوال، وهو كما ترى.

وتقدَّم أيضاً ما قيل في عَطْفِ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: من مخالفة أمره تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ المبدِّلين لفطرة الله سبحانه تبديلاً، والظاهرُ أنَّ المراد بهم كلُّ مَن أشرك بالله عز وجل. والنهيُ متصلٌ بالأوامر قبله. وقيل: بـ «أقيموا الصلاة»، والمعنى: ولا تكونوا من المشركين بتركها، وإليه ذهب محمد بن أسلم الطوسيُّ[2]، وهو كما ترى.

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ من «المشركين» بإعادة الجارِّ، وتفريقُهم لدينهم اختلافُهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم. وقيل: اختلافُهم في اعتقاداتهم مع اتحاد معبودهم. وفائدةُ الإبدال التحذيرُ عن الانتماء إلى حزبٍ من أحزاب المشركين ببيانِ أنَّ الكلَّ على الضلال المبين.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «فارَقوا»[3] أي: تركوا دينَهم الذي أُمروا به، أو الذي اقتضته فطرتُهم.

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) أبو الحسن، الكندي مولاهم، الإمام الحافظ الرباني، سمع يزيد بن هارون، وأبا نعيم، والنضر بن شُميل، وغيرهم، وحدث عنه ابن خزيمة وغيره. صنف المسند، والأربعين، وغير ذلك، توفي (٢٤٢هـ). التاريخ الصغير للبخاري ٢/ ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٥.

(٣) التيسير ص١٠٨، والنشر ٢/ ٢٦٦.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً تُشايعُ كلُّ فرقةٍ إمامها الذي مهدَ لها دينَها وقرَّره ووضع أصوله.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدِّين المعوجِّ المؤسَّسِ على الرأي الزائغ والزَّعْم الباطل ﴿فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ مسرورون ظنًّا منهم أنه حقٌّ. والجملة قيل: اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونِهم شيعاً. وقيل: في موضع نصبٍ على أنها صفةُ «شيعاً» بتقدير العائد، أي: كلُّ حزبٍ منهم. وزعم بعضُهم كونَها حالاً.

وجوَّز أن يكون «فرحون» صفةً لـ «كل»، كقول الشمَّاخ:

وكلُّ خليلٍ غيرُ هاضمِ نفسِه لوصلِ خليلٍ صارمٌ أو مُعارِزُ[1]

والخبرُ هو الظرف المتقدِّم، أعني قولَه تعالى: (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)، فيكون منقطعاً عمَّا قبله. وضعِّفَ بأنه يوصف المضافُ إليه في نحوه، صرَّح به الشيخُ ابن الحاجب في قوله:

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخوه لعَمْرُ أبيك إلا الفرقدان[2]

وفي «البحر»: أنَّ وصف المضاف إليه في نحوه هو الأكثر، وأنشد قوله:

جادتْ عليه كلُّ عينٍ ثرَّةٍ فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدرهم[3]

وما قيل: إنه إذا وُصف به «كل» دلَّ على أنَّ الفرح شاملٌ للكلِّ وهو أبلغ، ليس بشيءٍ، بل العكسُ أبلغُ لو توُمِّلَ أدنى تأمُّلٍ.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدَّةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه تعالى من دعاء غيره عزَّ وجل من الأصنام وغيرها.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من تلك الشدَّة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذين

---

(١) ديوان الشماخ ص١٧٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٣/ ١٢٥٦، وأمالي القالي ١/ ١٩٨، وفيه: هاضم: كاسر، والمعارز: المجانب. وقال القالي: يقال: رأيت فلاناً اعترز مني، أي: انقبض، يقول: كلُّ مَن لم يظلم نفسه لأخيه ويحمل عليها فإنه قاطعٌ أو منقبضٌ.

(٢) سلف ٣/ ٣٧٠ و١٢/ ١١٧.

(٣) البحر ٧/ ١٧٢، والبيت لعنترة، وسلف عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام. ووقع في الأصل و(م) والبحر: ترة، والصواب ما أثبتناه.

كانوا دعَوْه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: فاجأ فريقٌ منهم الإشراكَ، وذلك بنسبةِ خلاصهم إلى غيره تعالى من صنمٍ أو كوكبٍ أو نحوِ ذلك من المخلوقات. وتخصيصُ هذا الفعل ببعضهم لِمَا أنَّ بعضهم ليسوا كذلك. وتنكيرُ «ضرّ» و«رحمة» للتعليل إشارةً إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبةٍ، ويَطْغَون لأدنى نعمةٍ، و«ثم» للتراخي الرُّتْبي أو الزمانيِّ.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللامُ فيه للعاقبة. وكونُها[١] تقتضي المهلةَ ولذا سمِّيت لامَ المآل، والشركُ والكفرُ متقاربان لا مهلةَ بينهما كما قيل، لا وجهَ له.

وقيل: للأمر، وهو للتهديد، كما يقال عند الغضب: اعْصِني ما استطعتَ، وهو مناسبٌ لقوله سبحانه: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ فإنه أمرٌ تهديدي، واحتمالُ كونه ماضياً معطوفاً على «يشركون» لا يخفى حالُه، والفاءُ للسببية، والتمتُّع: التلذُّذ، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وبالَ تمتُّعِكم.

وقرأ أبو العالية: «فيُمتَّعوا» بالياء التحتية مبنيًّا للمفعول، وهو معطوف على «يكفروا»، «فسوف يعلمون» بالياء التحتية أيضاً[٢].

وعن أبي العالية أيضاً: «فيتمتَّعوا» بياءٍ تحتيةٍ قبل التاء، وهو معطوفٌ على «يكفروا» أيضاً[٣].

وعن ابن مسعود: «وليتمتعوا» باللام والياء التحتية[٤]، وهو عطفٌ على «ليكفروا».

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة إيذاناً بالإعراض عنهم، وتعديداً لجناياتهم لغيرهم بطريق المباثَّة[٥]، و«أم» منقطعة، والسلطانُ: الحجةُ، فالإنزالُ مجازٌ عن التعليم أو الإعلام، وقولُه تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بمعنى: فهو

---

(١) أي: لام العاقبة.
(٢) المحتسب ٢/ ١٦٤، والبحر ٧/ ١٧٣، وقراءة «يعلمون» في القراءات الشاذة ص١١٦.
(٣) البحر ٧/ ١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٢.
(٥) من باثَّه الخبر: أطلعه عليه. معجم متن اللغة (بثث).

يدلُّ، على أنَّ التكلُّم مجازٌ عن الدلالة، ولك أن تعتبر هنا جميعَ ما اعتبروه في قولهم: نطقت الحال، من الاحتمالات.

ويجوز أن يراد بـ «سلطاناً»: ذا سلطان، أي: مَلَكاً معه برهانٌ، فلا مجازَ أوَّلاً وآخِراً.

وجملة «هو يتكلَّم» جوابٌ للاستفهام الذي تضمَّنته «أم»؛ إذ المعنى: بل أأنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلَّم ﴿بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بإشراكهم بالله عز وجل وصحَّته، على أنَّ «ما» مصدرية وضمير «به» له تعالى، أو بالأمر الذي يشركون بسببه وألوهيته[1]، على أنَّ «ما» موصولةٌ، وضمير «به» لها، والباءُ سببيةٌ، والمراد نفيُ أن يكون لهم مستمسكٌ يعوَّلُ عليه في شركهم.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً، من صحةٍ وسعةٍ ونحوهما ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ بطراً وأشراً، فإنه الفرحُ المذمومُ دون الفرح حمداً وشكراً. وهو المراد في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]. وقال الإمام: المذمومُ الفرحُ بنفس الرحمة، والممدوحُ الفرحُ برحمة الله تعالى من حيث إنها مضافةٌ إلى الله تعالى[2].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ شدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: فاجَؤوا القنوطَ من رحمته عزَّ وجلَّ.

والتعبير بـ «إذا» أوَّلاً لتحقُّق الرحمة وكثرتها دون المقابل. وفي نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة تعليمٌ للعباد أن لا يُضاف إليه سبحانه الشرُّ، وهو كثيرٌ كقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ و﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ في «الفاتحة». وعدمُ بيانِ سبب إذاقة الرحمة وبيانُ سبب إصابة السيئة إشارةٌ إلى أن الأول تفضُّلٌ والثاني عدلٌ. والتعبيرُ بالمضارع في «إذا هم يقنطون» لرعاية الفاصلة والدلالةِ على الاستمرار في القنوط.

---

(١) قوله: وألوهيته، كذا في إحدى نسخ البيضاوي كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٢ وقال: وهو معطوف على الأمر، والضمير للشريك، وجاء في غيرها من النسخ: في ألوهيته.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٣.

والمراد بالناس إمَّا فريقٌ آخَرُ غيرُ الأول، على أنَّ التعريف للعهد أو للجنس، وإمَّا الفريقُ الأول لكنَّ الحكم الأول ثابتٌ لهم في حالٍ تُدْهِشُهم كمشاهدة الغرق، وهذا الحكم في حالٍ آخَرَ لهم، فلا مخالفةَ بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فلا يحتاجُ إلى تكلُّفِ التوفيق بأنَّ الدعاء اللسانيَّ جارٍ على العادة فلا ينافي القنوطَ القلبي، ولذا سُمع بعضُ الخائضين في دم عثمان ﵁ يدعو في طوافه ويقول: اللهمَّ اغْفِرْ لي ولا أظنك تفعل. أو المراد: يفعلون فِعْلَ القانطين، كالاهتمام بجمع الذخائر أيامَ الغلاء، ولا يخفى أنَّ في المفاجأة نَبْوَةٌ ما عن هذا، فتأمَّل.

وقرئ: «يقنِطون» بكسر النون(١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يبسطه تعالى له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: ويضيِّقُه على مَن يشاء أن يضيِّقه عليه. وهذا إما باعتبارِ شخصين، أو باعتبار شخصٍ واحد في زمانين. والمرادُ إنكارُ فرحِهم وقنوطِهم في حالتي الرخاء والشدة، أي: أولم يروا ذلك، فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السرَّاء والضرَّاء كالمؤمنين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور، أي: البَسْطِ وضدِّه، أو جميعِ ما ذكر ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فيستدلُّون بها على كمال القدرة والحكمة، ولله تعالى درُّ مَن قال:

نَكَدُ الأريبِ وطِيبُ عيشِ الجاهل ... قد أرشداك إلى حكيمٍ كاملِ(٢)

قال الطيبيُّ: كانت الفاصلة قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إيذاناً بأنه تعالى يفعل ذلك بمحض مشيئته سبحانه، وليس الغِنَى بفعل العبد وجهده، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتقاعُدِه، ولا يَعرف ذلك إلا مَن آمن بأنَّ ذلك تقديرُ العزيز العليم، كما قال:

كم من أديبٍ فَهِمٍ قلبُه ... مستكملِ العقلِ مُقِلٍّ عديمْ
ومِن جهولٍ مكثرٍ مالُه ... ذلك تقديرُ العزيز العليمْ(٣)

---

(١) التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب وخلف.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٢٣.

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة، والبيتان نسبهما ابن =

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ من الصِّلة والصَّدقة وسائرِ المَبرَّات ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ما يستحقَّانه، والخطابُ للنبيِّ ﷺ على أنه عليه الصلاة والسلام المقصودُ أصالةً، وغيرُه من المؤمنين تبعاً. وقال الحسن: هو خطابٌ لكلِّ سامع. وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكون لمن بسط له الرزق.

ووجهُ تعلُّقِ هذا الأمرِ بما قبله واقترانِه بالفاء على ما ذكره الزمخشريُّ: أنه تعالى لمَّا ذكر أنَّ السيئة أصابتهم بما قدَّمتْ أيديهم أَتْبعَه ذِكْرَ ما يجب أن يُفْعَلَ وما يجب أن يُترك[1].

وحاصلُه على ما في «الكشف»: أنَّ امتثال أوامره تعالى مَجْلَبةُ رضاه والحياةُ الطيبةُ تتبعه، كما أن عصيانه سبحانه مجلبةُ سخطه والجدبُ والضِّيقةُ من روادفه، فإذا استبان ذلك فآتِ يا محمد ومَن تبعه ـ أو فآتِ يا مَن بُسط له الرزق ـ ذا القربى حقه.. إلخ.

وذكر الإمام وجهاً آخر مبنيًّا على أنَّ الأمر متفرِّعٌ على حديث البَسْطِ والقَدْرِ، وهو أنه تعالى لمَّا بيَّن أنه سبحانه يبسطُ ويَقدِرُ، أَمَرَ جلَّ وعلا بالإنفاق إيذاناً بأنه لا ينبغي أن يتوقَّف الإنسان في الإحسان، فإنَّ الله تعالى إذا بسط الرزق لا ينقصُ بالإنفاق، وإذا قَدَرَ لا يزداد بالإمساك[2]، كما قيل:

إذا جادت الدنيا عليك فجُدْ بها ... على الناس طرًّا إنها تتقلَّبُ
فلا الجودُ يُفْنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخلُ يبقيها إذا هي تذهبُ[3]

قال صاحب «الكشف» رَوَّحَ الله تعالى رُوحَه: إنَّ ما ذكره الزمخشريُّ أوفقُ لتأليف النظم الجليل؛ فإنَّ قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ) لتتميم الإنكار

= عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٤١ للبربري، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤٩٣ لذي النون المصري، وهما في الديوان المنسوب للإمام عليٍّ رضي الله عنه ص٩٣، ووقع في (م): أريب، بدل: أديب، والمثبت من الأصل والمصادر عدا بهجة المجالس، وفيه: كم من لبيب...

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٤.

(٣) ذكرهما الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٣، ووقع في الأصل و(م): إذ جادت، والمثبت من الحاشية.

على مَن فرح بالنعمة عن شكر المنعم، ويئس عند زوالها عنه، والظاهرُ على ما ذكره الإمام أنَّ المراد بالحقِّ الحقُّ الماليُّ، وكذا المرادُ به في جانب المسكين وابنِ السبيل.

وحمل ذلك بعضُهم على الزكاة المفروضة. وتعقِّب بأنَّ السورة مكيةٌ والزكاةُ إنما فُرِضَتْ بالمدينة، واستثناءُ هذه الآية ودعوى أنها مدنيَّةٌ يحتاج إلى نقلٍ صحيحٍ، وسَبْقُ النزول على الحُكْم بعيدٌ، ولذا لم يذكر هنا بقية الأصناف.

وحُكي أنَّ أبا حنيفة استدلَّ بالآية على وجوب النفقة لكلِّ ذي رحم محرمٍ ذكراً كان أو أنثى، إذا كان فقيراً أو عاجزاً عن الكسب. ووجِّه بأنَّ «آتِ» أمرٌ للوجوب، والظاهرُ من الحقِّ بقرينةِ ما قبله أنه ماليٌّ، ولو كان المراد الزكاةَ لم يقدِّم حقُّ ذوي القربى؛ إذ الظاهرُ من تقديمه المغايرةُ.

والشافعيةُ أنكروا وجوبَ النفقة على مَن ذُكر، وقالوا: لا نفقةَ بالقرابة إلَّا على الولد والوالدين على ما بيِّن في الفقه، والمرادُ بالحقِّ المصرَّحِ به في ذي القربى صلةُ الرحم بأنواعها، وبالحقِّ المعتبر في جانب المسكين وابن السبيل صدقةٌ كانت مفروضةً قبل فرض الزكاة، أو الزكاةُ المفروضة، والآيةُ مدنيةٌ، أو مكيةٌ والنزولُ سابقٌ على الحكم.

واعتُرِضَ على هذا بأنه إذا فسِّر حقُّ الأخيرين بالزكاة وَجَبَ تفسيرُ الأول بالنفقة الواجبة؛ لئلا يكون لفظُ الأمر للوجوب والندب، ولذا استدلَّ أبو حنيفة عليه الرحمةُ بالآية على ما تقدَّم، وفيه بحثٌ.

وقال بعض أجلَّة الشافعية رادًّا على الاستدلال: إنه كيف يتمُّ مع احتمال أن يكون الأمر بإيتاء الصدقة أيضاً بدليل ما تلاه؟ ثم إنَّ «ذا القربى» مجملٌ عند المستدلِّ، ومِن أين له أنه بيِّن بذي الرَّحِم المحرم؟ وكذلك قوله تعالى: «حقَّه»، ثم قال: والحقُّ أنه أمرٌ بتوفير حقِّه من الصلة لا خصوصِ النفقة، وصلةُ الرحم من الواجبات المؤكَّدة. انتهى، والحقُّ أحقُّ بالاتِّباع، ودليلُ الإمام عليه الرحمةُ ليس هذا وحده كما لا يخفى على علماء مذهبه.

وخصَّ بعضٌ الخطابَ به ﷺ، وقال: المرادُ بذي القربى بنو هاشم وبنو المطلب، أُمِرَ ﷺ أن يؤتيهم حقَّهم من الغنيمة والفيء.

وفي «مجمع البيان» للطبرسيِّ من الشيعة: المعنى: وآتِ يا محمد ذوي قرابتك حقوقَهم التي جعلها الله تعالى لهم من الأخماس، ورَوَى أبو سعيد الخدريُّ وغيرُه أنه لمَّا نزلت هذه الآيةُ أعطى عليه الصلاة والسلام فاطمةَ رضي الله عنها فَدَكاً وسلَّمه إليها، وهو المرويُّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله[١]. انتهى.

وفيه أنَّ هذا ينافي ما اشتهر عند الطائفتين من أنها رضي الله عنها ادَّعت فَدَكاً بطريق الإرث. وزعم بعضهم أنها ادَّعت الهبةَ أولاً[٢]، وأتت على ذلك بعليٍّ والحسنِ والحسين رضي الله عنهم، وبأمِّ أيمن رضي الله عنها، فلم يُقبل منها لمكان الزوجية والبنوَّة، وعدمِ كفاية المرأة الواحدة في الشهادة في هذا الباب، فادَّعت الإرثَ، فكان ما كان[٣]، وهذا البحثُ مذكورٌ على أتمِّ وجه في «التحفة»[٤] إنْ أَرَدْتَه فارْجِع إليه.

وخصَّ بعضهم ابن السبيل بالضيف، وحقّه بالإحسان إليه إلى أن يرتحل، والمشهورُ أنه المنقطِعُ عن ماله، وبين المعنيين عمومٌ من وجهٍ. وقدِّم ذو القربى اعتناءً بشأنه، وهو السرُّ في تقديم المفعول الثاني على العطف، والعدولِ عن: وآتِ ذا القُربى والمسكينَ وابنَ السبيل حقَّهم.

وعبَّر عن القريب بذي القربى في جميع المواضع ولم يعبِّر عن المسكين بذي المَسْكَنة؛ لأنَّ القرابة ثابتةٌ لا تتجدَّد، و:ذو كذا، لا يقال في الأغلب إلا في الثابت، ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرَّر منه الرأي الصائب: فلانٌ ذو رأي، ويكاد لا تسمعُهم يقولون لمن أصاب مرةً في رأيه كذلك، وكذا نظائرُ ذلك من قولهم: فلانٌ ذو جاهٍ، وفلانٌ ذو إقدام. والمسكنةُ لكونها مما تطرأُ وتزولُ لم يقل في المسكين: ذو مَسْكَنةٍ، كذا قال الإمام[٥].

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٣١، وحديث أبي سعيد أخرجه أبو يعلى (١٠٧٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٩: فيه عطية العوفي، وهو متروك.

(٢) قوله: أولاً، ساقط من (م).

(٣) ينظر ما سلف ٥/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٤) هو التحفة الاثنا عشرية، لعبد العزيز بن شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي، المتوفى سنة (١٢٣٩هـ)، ونقله إلى العربية الشيخ الحافظ غلام محمد بن محيي الدين بن عمر الأسلمي. ينظر هدية العارفين ١/ ٥٨٥.

(٥) في تفسيره ٢٥/ ١٢٥.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الإيتاءُ المفهومُ من الأمر ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه، أو خير من غيره ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذاتَه سبحانه، أي: يقصدونه عزَّ وجل بمعروفهم خالصاً، أو جهتَه تعالى، أي: يقصدون جهة التقرُّب إليه سبحانه لا جهةً أخرى، والمعنيان كما في «الكشاف»[١] متقاربان، ولكنَّ الطريقةَ مختلفة[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتَّصفون بالإيتاء ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ حيث حصَّلوا بإنفاقِ ما يَفْنَى النعيمَ المقيمَ، والحصرُ إضافيٌّ على ما قيل، أي: أولئك هم المفلحون لا الذين بخلوا بمالِهم ولم ينفقوا منه شيئاً.

وقيل: هو حقيقيٌّ على أنَّ المتَّصفينَ بالإيتاء المذكورِ هم الذين آمنوا وأقاموا الصلاة، وأنابوا إليه تعالى، واتَّقَوْه عزَّ وجل، فلا منافاة بين هذا الحصرِ والحصرِ المذكور في أول سورة البقرة، فتأمَّل.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الظاهر أنه أريدَ به الزيادةُ المعروفة في المعاملة التي حرَّمها الشارع، وإليه ذهب الجبَّائيُّ، وروي ذلك عن الحسن، ويشهد له ما روي عن السدِّيِّ من أنَّ الآية نزلت في ربا ثقيف؛ كانوا يُرْبُون وكذا كانت قريش.

وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك ومحمد بن كعب القرظيِّ وطاوس وغيرهم أنه أريد به العطيةُ التي يتوقَّع بها مزيدُ مكافأة. وعليه فتسميتُها رباً مجازٌ لأنها سببٌ للزيادة. وقيل: لأنها فضلٌ لا يجب على المعطَى.

وعن النخعيِّ أنَّ الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانَهم على معنى نَفْعِهم وتمويلهم والتفضيل[٣] عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم[٤]. وهي روايةٌ عن ابن عباس، فالمرادُ بالربا العطيةُ التي تُعطَى للأقارب للزيادة في أموالهم، ووجهُ تسميتها بما ذُكر معلومٌ مما ذكرنا. وأيًّا ما كان فـ «مِن» بيانٌ لـ «ما» لا للتعليل.

---

(١) في (م): الكشف.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٣.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي البحر ٧/ ١٧٤ (والكلام منه): والتفضل.

(٤) جاءت العبارة في البحر: وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع به، فذلك النفع لهم.

وقرأ ابن كثير: «أتيتُم» بالقصر[1]. ومعناه على قراءة الجمهور: أَعْطَيتُم، وعلى هذه القراءة: جئتم، أي: ما جئتم به من عطاء رباً ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليزيد ذلك الربا ويزكو في أموال الناس الذين آتيتُموهم إياه. وقال ابن الشيخ: المعنى على تفسير الربا بالعطية: ليزيد ذلك الربا في جَذْبِ أموال الناس وجَلْبِها. وفي معناه ما قيل: ليزيد ذلك بسبب أموال الناس وحصولِ شيء منها لكم بواسطة العطية.

وعن ابن عباسٍ والحسن وقتادةَ وأبي رجاء والشعبيِّ ونافع ويعقوب وأبي حيوة: «لتُرْبُوا» بالتاء الفوقية مضمومةً وإسنادِ الفعل إليهم[2]، وهو بابُ الأفعال المتعدِّية لواحدٍ بهمزةِ التعدية، والمفعولُ محذوفٌ، أي: لتُرْبُوه وتَزِيدُوه في أموال الناس، أو هو من قبيل:

يَـجْـرَحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[3]

أي: لتُربوا وتَزيدوا أموالَ الناس. ويجوز أن يكون ذلك للصيرورة، أي: لتَصِيروا ذوي رباً في أموال الناس.

وقرأ أبو مالك: «لتُرْبوها» بضمير المؤنَّثِ[4]، وكأنَّ الضمير للربا على تأويله بالعطية أو نحوِها.

﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يبارَكُ فيه في تقديره تعالى وحُكْمِه عز وجل.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي: من صدقةٍ ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه تعالى خالصاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ذوو الإضعاف، على أنَّ مُضْعِفاً اسمُ فاعلٍ من أَضْعَفَ، أي: صار ذا ضِعْفٍ بكَسْرٍ فسكون، بأنْ يضاعفَ له ثوابُ ما أعطاه، كأقْوَى وأَيْسَرَ إذا صار ذا قوَّةٍ ويسارٍ، فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله.

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٢٨.

(٢) التيسير ص١٧٥، والنشر٢/ ٣٤٤ عن نافع وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر٧/ ١٧٤.

(٣) قطعة من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ٢٣، وتمامه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها   على الضيف يَجْرحْ.......

(٤) البحر ٧/ ١٧٤.

ويجوز أن يكون من أَضْعفَ والهمزةُ للتعدية والمفعولُ محذوفٌ، أي: الذين ضَعَّفوا ثوابَهم وأموالَهم ببركة الزكاة. ويؤيِّد هذا الوجهَ قراءةُ أبيٍّ: «المضعَفون» اسم مفعول[1].

وكان الظاهرُ أن يقال: فهو يربو عند الله؛ لأنه الذي تقتضيه المقابلةُ، إلا أنه غيّر في العبارة إذ أثبت غيرَ ما قبله، وفي النَّظْم إذ أتى فيما قبلُ بجملةٍ فعليةٍ وهنا بجملةٍ اسميةٍ مصدَّرةٍ باسم الإشارة مع ضمير الفَصْلِ لقَصْدِ المبالغة، فأثبت لهم المضاعفةَ التي هي أبلغُ من مطلق الزيادة على طريق التأكيد بالاسمية والضمير، وحَصَر ذلك فيهم بالاستحقاق، مع ما في الإشارة من التعظيم لدلالته على علوِّ المرتبة، وترك ما آتوا وذكر المؤتي، إلى غير ذلك.

والالتفاتُ عن الخطاب حيث قيل: «فأولئك» ـ دون: فأنتم ـ للتعظيم، كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواصَّ الخلق تعريفاً لحالهم. ويجوزُ أن يكون التعبيرُ بما ذكر للتعميم، بأنْ يُقْصَدَ بأولئك هؤلاء وغيرُهم.

والراجعُ في الكلام إلى «ما» محذوفٌ إنْ جُعِلَتْ موصولةً، وكذلك إن جُعلت شرطيةً على الأصح؛ لأنه خبرٌ على كلِّ حال، أي: فأولئك هم المضعِفون به، أو: فمؤتُوه[2] ـ على صيغة اسم الفاعل ـ أولئك هم المضعفون، والحذفُ لِمَا في الكلام من الدليل عليه. وعلى تقدير مؤتوه العامّ لا يكون هناك التفاتٌ بالمعنى المتعارف، واعتبارُ الالتفات أولى، وفي «الكشاف» أنَّ الكلام عليه أَمْلأُ بالفائدة[3].

وبيِّن ذلك بأنَّ الكلام مسوقٌ لمدح المؤتِينَ حثًّا في الفعل، وهو على تقدير الالتفات من وجوه:

أحدهما: الإشارةُ بأولئك تعظيماً لهم.

(١) البحر ٧/ ١٧٤، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٣ دون نسبة.

(٢) في (م): فمؤتوا، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ١٢٤، والكلام منهما.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٤، وقوله: عليه، أي: على الوجه الأول، أي: على تقدير: فأولئك هم المضعفون به.

والثاني: تقريعُ الملائكة عليهم السلام بمدحهم.

والثالث: ما في نفس الالتفات من الحسن.

والرابع: ما في «أولئك» على هذا من الفائدة المقرَّرة في نحو:

فذلك إن يَهْلِكْ فحُسْنَى[1] ثناؤه[2]

بخلافه إذا جُعِلَ وصفاً للمؤتين، وعلى ذلك التقدير يفيدُ تعظيمَ الفعل لا الفاعلِ، وإنْ لَزِمَ بالعرض فلا يُعارِضُ ما يفيده بالأصالة، فتأمل.

والآية على المعنى الأول للربا في معنى قوله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] سواءٌ بسواءٍ، والذي يقتضيه كلام كثيرٍ أنها تُشْعِرُ بالنهي عن الربا بذلك المعنى، لكنْ أنت تعلم أنها لو أَشعرتْ بذلك لأشْعَرتْ بحرمة الربا بمعنى العطية التي يتوقَّع بها مزيدُ مكافأة على تقدير تفسير الربا بها، مع أنهم صرَّحوا بعدم حُرْمةِ ذلك على غيره ﷺ وحُرْمِتها عليه عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] وكذا صرَّحوا بأنَّ ما يأخذه المعطي لتلك العطيةِ من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام، ودافعُه ليس بآثم لكنه لا يثاب على دفع الزيادة؛ لأنها ليست صلةً مبتدأةً بل بمقابلةِ ما أُعطي أولاً ولا ثوابَ فيما يُدفع عِوَضاً، وكذا لا ثوابَ في إعطاء تلك العطية أولاً لأنها شبكةُ صيدٍ، ومعنى قولِ بعض التابعين: الجانبُ المستغزِرُ يثابُ من هبته[3]، أنَّ الرجل الغريب إذا أهدى

(١) في (م): فحسبي، وهو تصحيف.

(٢) وعجزه: وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمَّما، وهو من قصيدة لحاتم الطائي كما في الانتصاف مع الكشاف ١/ ١٤١-١٤٢، والإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٤١، والخزانة ٣/ ١٢٧، والقصيدة في ديوانه ص٧٩ دون ذكر هذا البيت.
قال الزمخشري في الكشاف ١/ ١٤١ عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: وفي اسم الإشارة الذي هو «أولئك» إيذانٌ بأن ما يَرِدُ عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدِّدت لهم، كما قال حاتم: ولله صعلوك، ثم عدَّد له خصالاً فاضلة، ثم عقَّب تعديدها بقوله: فذلك إن يهلك...

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٦٥٢٣) عن شريح القاضي. والمستغزر: الذي يطلب أكثر مما يعطي. والجانب: الغريب، يقال: جَنَبَ فلان في بني فلان يَجْنُبُ جنابةً فهو جانب: إذا نزل فيهم غريباً. النهاية (جنب) و(غزر).

إليك شيئاً لتكافئه وتَزيدَه شيئاً فأَثِبْه من هديته وزِدْه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ الظاهرُ أنَّ الاسم الجليل مبتدأ و«الذي» خبرُه، والاستفهامُ إنكاريٌّ، و«من شركائهم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«مَن» مبتدأ مؤخَّر، و«مِن» فيه للتبعيض، و«مِن ذلكم» صفةُ «شيء» قدِّمت عليه فأعربت حالاً، و«مِن» فيه للتبعيض أيضاً، و«شيءٍ» مفعولُ «يفعل»، و«من» الداخلةُ عليه مزيدةٌ لتأكيد الاستغراق.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون الاسم الجليل مبتدأ، و«الذي» صفتُه، والخبر «هل من شركائكم» إلخ، والرابطُ اسم الإشارة المشارُ به إلى أفعاله تعالى السابقة، فـ «من ذلكم» بمعنى: من أفعاله[1]. ووقعت الجملة المذكورة خبراً لأنها خبرٌ منفيٌّ معنًى وإن كانت استفهاميةً ظاهراً، فكأنه قيل: الله الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي لا يشاركه شيءٌ ممَّن لا يفعل أفعاله هذه.

وبعضُهم جَعَلَها خبراً بتقدير القول، فكأنه قيل: اللهُ الموصوفُ بكونه خالقاً ورازقاً ومميتاً ومحيياً مقولٌ في حقِّه: هل من شركائكم مَن هو موصوفٌ بما هو موصوفٌ به؟!

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ اسم الإشارة لا يكون رابطاً إلَّا إذا أشير به إلى المبتدأ، وهو هنا ليس إشارةً إليه، لكنه شبيهٌ بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٤] فإنَّ التقدير: يتربَّصن[2] أزواجهم، فقدَّر الضمير[3] بمضافٍ إلى ضمير «الذين» فحَصَلَ به الربطُ، وكذلك قدَّر الزمخشريُّ «من ذلكم» بمن أفعاله،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٤.

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي الدر المصون ٩/ ٤٨ نقلاً عن أبي حيان: يتربصُ، وهو الصواب، ومثله في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٣١٧، ومغني اللبيب ص٦٥٢، ونسب النحاس وابن هشام هذا القول للكسائي، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.

(٣) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي الدر المصون ٩/ ٤٨، وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٥، نقلاً عن البحر: فقدّر الربط.

المضاف إلى ضمير المبتدأ[١]. لكنْ لا يخفى أنَّ الإضافة غيرُ معتبرةٍ، وعلى تقدير اعتبارها يلزمُ تقدير مضافٍ آخَرَ.

وجوِّز أن تكون «مِن» الأولى لبيانِ «مَن يَفْعَلُ»، ومتعلَّقُها محذوفٌ، و«مَن يفعلُ» فاعلٌ لفعلٍ محذوف، أي: هل حَصَلَ واستقرَّ مَن يفعلُ كائناً من شركائكم. وكذا جوِّز في «مِن» الثانية أن تكون لبيان المستغرق.

وقيل: إنَّ «من» الأولى و«من» الثانيةَ زائدتان كالثالثة، وهو كما ترى.

والآية على ما قلناه أولاً متضمِّنةٌ جملتين دلَّت الأولى على إثبات ما هو من اللوازم المُساوية للألوهية ـ من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ـ له عز وجل، وأفادت الثانية بواسطة عكس السالبة الكلِّية نَفْيَها رأساً عن شركائهم الذين اتخذوهم شركاءَ له سبحانه من الأصنام وغيرها مؤكّداً بالإنكار، والعقلُ حاكمٌ بأن ما يُتَّخَذُ شريكاً كالذي اتخذ في الحكم المذكور، أعني نفيَ تأتّي تلك الأفعالِ منه، وإن شئتَ جَعَلْتَ «شركائكم» شاملاً للصنفين، ويُفهَمُ من ذلك عدمُ صحة الشركة؛ إذ لا يُعْقَلُ شركةُ ما ليس بإلهٍ لعَدَمِ وجودِ لازمِ الألوهيةِ فيه لمن هو إلهٌ في الألوهية، ولتأكيدِ ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: عن شِرْكِهم، والتعبيرُ بالمضارع لِمَا في الشِّرك من الغرابة، أو للإشعار باستمراره وتجدُّدِه منهم. وأشار بعضهم إلى أنَّ تينك الجملتين يؤخذُ منهما مقدِّمتان: موجبةٌ، وسالبةٌ كلِّيةٌ، مرتَّبتان على هيئةِ قياس من الشكل الثاني، وأنَّ قوله تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ) إلخ يؤخَذُ منه سالبةٌ كلِّيةٌ هي نتيجةُ ذلك القياس، فتكون الجملتان المذكورتان في حكم قياسٍ من الشكل الثاني، وقوله تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ) إلخ في حكم النتيجة له، ولا يخفى احتياجُ ذلك إلى تكلُّفٍ فتأمَّل جدًّا.

وقرأ الأعمش وابن وثاب: «تشركون» بتاء الخطاب[٢].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجَدْبِ والمُوْتان[٣]، وكثرةِ الحَرْقِ والغَرَقِ،

---

(١) البحر ٧/ ١٧٥.

(٢) البحر ٧/ ١٧٦.

(٣) بضم الميم وسكون الواو: كثرة الموت. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

وإخفاق الصيادين والغاصَة[١]، ومَحْقِ البركات من كلِّ شيء، وقلَّةِ المنافع في الجملة، وكثرةِ المضارِّ.

وعن ابن عباس: أَجْدَبتِ الأرضُ وانقطعت مادةُ البحر، وقالوا: إذا انقطع القطرُ عَمِيتْ دوابُّ البحر.

وقال مجاهد: ظهر الفساد في البرِّ بقتل ابنِ آدمَ أخاه، وفي البحر بأَخْذِ السفن غصباً. وفي روايةٍ عن ابن عباس: بأَخْذِ جُلَنْدَى[٢] كلَّ سفينةٍ غصباً. ولعل المراد التمثيلُ، وكذا يقال في قَتْلِ ابن آدمَ أخاه، وكان أولَ معصيةٍ ظهرت في البر؛ قال الضحاك: كانت الأرض خضرةً مُونِقَةً لا يأتي ابنُ آدم شجرةً إلا وجد عليها ثمرةً، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا يفترسُ الأسد البقرَ، ولا الذِّئبُ الغنمَ، فلمَّا قَتَلَ قابيلُ هابيلَ اقشعرَّ ما في الأرض، وشاكت الأشجارُ، وصار ماءُ البحر ملحاً زعافاً، وقَصَدَ الحيوانُ بعضَه بعضاً. وذُكر أنَّ أول معصيةٍ في البحر غَصْبُ جُلَنْدَى كلَّ سفينةٍ تمرُّ عليه، فكأنَّ تخصيص الأمرين بالذكر لذلك. وأيًّا ما كان فالبرُّ والبحرُ على ظاهرهما.

وعن مجاهدٍ: البرُّ: البلاد البعيدة من البحر، والبحرُ: السواحلُ والمدنُ التي عند البحر والأنهار.

وقال قتادة: البرُّ الفيافي ومواضعُ القبائل وأهلُ الصحارى والعمودُ، والبحرُ: المدن. والعربُ تسمِّي الأمصارَ بحاراً لسعتها، ومنها قولُ سعد بن عبادة في عبد الله بن أبيّ بن سلول: ولقد أجمع أهل هذه البحيرة - يعني المدينةَ - ليتوِّجُوه[٣].

---

(١) بتخفيف الصاد كسادة: جمع أو اسم جمع لغائص، وهو من ينزل لقعر البحر لإخراج اللؤلؤ ونحوه؛ فإنه إذا لم يقع المطر لم يتكون اللؤلؤ في الصدف؛ لأنه قيل: إنه يحصل من قطرات المطر التي يتلقاها الصدف في نيسان. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

(٢) بضم الجيم وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال ثم ألف مقصورة، وقيل فيه وفي اسمه غير ذلك. حاشية الشهاب ٦/ ١٢٧.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧٦٧)، والبخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

وقال أبو حيان: ويؤيِّد هذا قراءةُ عكرمة: «والبحور» بالجمع، ورُويتْ عن ابن عباس رضي الله عنهما(١).

وجوَّز النحاسُ أن يكون «البحر» على ظاهره إلَّا أنَّ الكلام على حذف مضافٍ، أي: مدن البحر، فهو مثل ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] وجوَّز أيضاً أن يراد بالفساد المعاصي من قَطْعِ الطريق والظلم وغيرهما(٢).

و«أل» في «البر والبحر» للجنس، وكذا في «الفساد» أي: ظهر جنسُ الفساد من الجدب والموْتان ونحوِهما في جنس البرِّ وجنس البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بسبب ما فَعَله الناسُ من المعاصي والذنوب وشؤمه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، وهو على التفسير الأول للفساد ظاهرٌ، وأمَّا على تفسيره بالمعاصي فالمعنى: ظهرت المعاصي في البرِّ والبحر بكَسْبِ الناس إياها وفِعْلِهم لها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ على الأول ظاهرٌ، وهو أنَّ الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومَحَقَها [ليذيقهم](٣) وبالَ بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عمَّا هم عليه، وأمَّا على الثاني فاللامُ مجازٌ على معنى أنَّ ظهور المعاصي بسببهم مما استَوْجَبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبالَ أعمالهم إرادةَ الرجوع، فكأنهم إنما أفسدوا(٤) وتسبَّبوا لفشوِّ المعاصي في الأرض لأجل ذلك.

وقرأ السلميُّ والأعرج وأبو حيوة وسلام وسهل وروح وابن حسان، وقنبل من طريق ابن مجاهد وابن الصباح وأبي الفضل والواسطيِّ عنه، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «لنذيقهم» بالنون(٥).

---

(١) البحر ٧/ ١٧٦، والقراءة عن ابن عباس في القراءات الشاذة ص١١٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٥.

(٣) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٢٢٤، والكلام منه.

(٤) في (م): فسدوا، والمثبت من الأصل والكشاف.

(٥) التيسير ص١٧٥ عن قنبل، والنشر٢/ ٣٤٥ عن قنبل وروح، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر٧/ ١٧٦، وعنه نقل المصنف.

وظهورُ الفساد المذكورِ على ما أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة كان قبل أن يُبعث النبيُّ ﷺ، فلمَّا بُعِثَ عليه الصلاة والسلام رَجَعَ مَن رَجَعَ مِن الناس عن الضلال والظلم[(١)].

وقيل: كان أوائلَ البعثة، وذلك أنَّ كفار قريشٍ فعلوا ما فعلوا من المعاصي والإصرار على الشرك وإيذاءِ الرسول ﷺ، فدعا ﷺ عليهم فأقحطوا وحلَّ بهم من البلاء ما حلَّ، فأخبر الله سبحانه أنَّ ذلك بسبب معاصيهم ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون[(٢)]. وفسَّر هذا القائل: «الناس» بكفار قريش.

وقيل: كان في زمانٍ سابقٍ على زمان النزول أعمّ من أن يكون الزمانَ الذي قبيل البعثة أو بعيدها أو غيرَ ذلك.

وحُكْمُ الآية عامٌّ في كلِّ فسادٍ يظهر إلى يوم القيامة، ومن هنا قيل: مَن أذنب ذنباً يكونُ جميعُ الخلائق من الإنس والدوابِّ والوحوشِ والطيور والذرِّ خُصَماءَه يومَ القيامة؛ لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية فيتضرَّر بذلك أهلُ البرِّ والبحر جميعاً.

وروي عن شقيقٍ الزاهدِ أنه قال: مَن أكل الحرام فقد خان جميع الناس.

ووجهُ تعلُّق الآية بما قبلها أنَّ فيها نعيَ ما يعمُّ الشرك وغيرَه من المعاصي، وفيما قبلُ نعيُ الشرك، وفيها من تخويف المشركين ما فيها.

وقال الإمام في وجه التعلُّق: هو أنَّ الشرك سببُ الفساد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا كان الشركُ سَبَبَه جَعَلَ الله تعالى إظهارهم الشركَ مُوْرِثاً لظهور الفساد، ولو فعل بهم ما يقتضيه قولُهم لفَسَدتِ السماواتُ والأرضُ كما قال سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥١٠-٥١١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٤.

(٢) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر في دعاء النبي ﷺ على المشركين بسبب عنادهم وإيذائهم له ما سلف ١٨/ ١٢٢-١٢٤.

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وإلى هذا أشار عز وجل بقوله سبحانه: (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا)[1] انتهى. فتأمَّل وأنْصِفْ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ مسوقٌ لتأكيد تسبُّبِ المعاصي لغَضَبِ الله تعالى ونكالِه، حيث أُمروا بأن يسيروا فينظروا كيف أَهْلَكَ الله تعالى الأممَ وأذاقهم سوءَ العاقبة بمعاصيهم، ويتحقَّقوا صِدْقَ ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ۝٤٢﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ الشرك وحده لم يكن سَبَبَ تدميرِ جميعهم، بل هو سببٌ للتدمير في أكثرهم، وما دونه من المعاصي سببٌ له في قليل منهم. وجوِّز أن يكون للدلالة على أنَّ سوء عاقبتهم لفشوِّ الشرك وغَلَبته فيهم، ففيه تهويلٌ لأمرِ الشرك بأنه فتنةٌ لا تصيبُ الذين ظلموا خاصةً.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كذلك فأقم، وتمامُ الكلام فيما هنا يُعلم مما تقدَّم في هذه السورة الكريمة[2].

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جوِّز أن يتعلق بـ «مردّ» وهو مصدرٌ بمعنى الردِّ، والمعنى: لا يردُّه سبحانه بعد أن يَجيء به ولا ردَّ له من جهته عز وجل، فيفيدُ انتفاءَ ردٍّ غيره تعالى له بطريقٍ برهانيٍّ.

واعتُرض بأنه لو كان كذلك للزم تنوينُ «يوم»[3] لمشابهته للمضاف.

وأجيب بأنه مبنيٌّ على ما قال ابن مالك في «التسهيل» من أنه قد يعامَلُ الشبيهُ بالمضافِ معاملتَه، فيُتْرَكُ تنوينُه[4]، وحُمِلَ عليه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ»[5]. وتفصيلُه في شرحه.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٢٧.

(٢) ص٤٥٠-٤٥٢ من هذا الجزء.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله، والصواب: «مرد»، ينظر الدر المصون ٩/ ٤٩، وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٥.

(٤) التسهيل ص٦٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٥.

(٥) حديث صحيح، وسلف ١٢/ ٤٨٣.

وبعضُهم جَعَلَه متعلِّقاً بمحذوفٍ يدلُّ عليه «مردّ»، أي: لا يردُّ من جهته تعالى، أي: لا يردُّه هو عز وجل.

وقيل: هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والتقدير: هو ـ أي: الردُّ المنفيُّ ـ كائنٌ من الله تعالى، والجملةُ استئناف جواب سؤالٍ تقديره: ممن ذلك الردُّ المنفيُّ؟

وقيل: هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً لـ «لا».

وقيل: متعلِّقٌ بالنفي أو بما دلَّ عليه.

وقيل: متعلقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «يوم».

وجوَّز كثيرٌ تعلُّقَه بـ «يأتي»، أي: من قبل أن يأتي من الله تعالى يومٌ لا يقدرُ أحدٌ أن يردَّه.

وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ المتبادر من اللفظ والمعنى، وهو مع ذلك قليلُ الفائدة، وارتضاه الطيبيُّ فقال: هذا الوجهُ أبلغُ لإطلاق الردِّ وتفخيم «اليوم»، وأن إتيانه من جهةِ عظيمٍ قادرٍ ذي سلطانٍ قاهر[1]. ومنه يُعلم أنَّ ذلك ليس قليلَ الفائدة، نعم إنَّ فيه الفَصلَ الملبس، وحالُ سائرِ الأوجُهِ لا يخفى على ذي تمييز.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يأتي ﴿يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أصله: يتصدَّعون، فقُلبت تاؤه صاداً وأُدغمت، والتصدُّع في الأصل: تَفرُّقُ أجزاءِ الأواني، ثم استُعْمِلَ في مطلق التفرُّق. أي: يتفرَّقون؛ فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير.

وقيل: يتفرَّقون تفرُّق الأشخاص على ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] لا تفرُّقَ الفريقين، فإنَّ المبالغة في التفرُّق المستفادةَ من «يصَّدَّعون» إنما تناسبُ الأول، ورجِّح الثاني بأنه المناسبُ للسياق والسباق؛ إذ الكلام في المؤمنين والكافرين، فما ذُكر بيانٌ لتبايُنهم في الدارين، ويكفي للمبالغة شدةَ بُعْدُ ما بين المنزلتين حسًّا ومعنًى، وهو تفسيرٌ رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة[2]. وروي أيضاً عن ابن زيد.

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥١٥، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: وبالُ كُفْرِه وهي النارُ المؤبَّدةُ، ففي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أو الكفرُ مجازٌ عن جزائه بل عن جميع المضارِّ التي لا ضَرَرَ وراءها.

وإفرادُ الضمير باعتبارِ لفظِ «مَن»، وفيه إشارةٌ إلى قلَّة قَدْرِهم عند الله تعالى وحقارتهم مع ما عُلِمَ من كثرة عددهم، وجمعُه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ باعتبارِ معناها، وفيه مع رعاية الفاصلة إشارةٌ إلى كثرة قَدْرِهم وعظمهم عند الله تعالى.

و«يَمْهَدون» من مَهَدَ فراشَه: وطَّأه، أي: يوطِّؤون لأنفسهم كما يوطِّئُ الرجلُ لنفسه فراشَه لئلَّا يُصيبَه في مضجعه ما يُنْبيه وينغِّصُ عليه مرقَده من نتوءٍ أو قَضَض(١)، أو بعض ما يؤذي الراقد، فكأنه شبَّه حالةَ المكلَّف مع عمله الصالح وما يتحصَّلُ به من الثواب ويتخلَّصُ من العقاب بحالةِ مَن يَمْهَدُ فراشَه ويوطِّئُه ليستريحَ عليه، ولا يصيبَه في مضجعه ما ينغِّصُ عليه.

وجوِّز أن يكون المعنى: فعلى أنفسهم يشفقون، على أنَّ ذلك من قولهم في المَثَلِ للمشفق: أمٌّ فَرَشَتْ فأنامَتْ(٢)، فيكون الكلام كنايةً إيمائيةً عن الشفقة والمرحمة، والأولُ أظهر.

والظاهرُ أنَّ هذه التوطئة لِمَا بعد الموت من القبر وغيره. وأخرج جماعةٌ عن مجاهد أنه قال: «فلأنفسهم يمهدون» أي: يسوُّون المضاجع في القبر. وليس بذاك.

وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص، وقيل: للاهتمام. ومقابلةُ «مَن كَفَر» بـ «مَن عَمِلَ صالحاً» لا بـ: مَن آمَنَ، إمَّا للتنويهِ بشأن الإيمان بناءً على أنه المرادُ بالعمل الصالح، وإمَّا لمزيدِ الاعتناء بشأن المؤمن العاملِ بناءً على أنَّ المراد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبيَّ والقالبيَّ.

ويُشْعِرُ بأنَّ المراد بـ «مَن عَمِلَ صالحاً» المؤمنُ العاملُ قولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ

(١) القضض: التراب يعلو الفراش. القاموس (قضض).

(٢) مجمع الأمثال ١/ ٢٢، وجمهرة الأمثال ١/ ١٥٢، والمستقصى ١/ ٣٦٨. قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يبالغ في البر بالقوم والعطف عليهم، حتى كأنه أمٌّ فرشت لابنها فنام.

﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فإنه علةٌ لـ «يمهدون»، وأقيم فيه الموصولُ مقام الضمير تعليلاً للجزاء؛ لِمَا أنَّ الموصول في معنى المشتقِّ، والتعليقُ به يفيدُ علِّيةَ مبدأ الاشتقاق، وذكر «من فضله» للدلالة على أنَّ الإثابة تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُه بالعطاء أو الزيادة على ما يستحقُّ من الثواب عدولٌ عن الظاهر.

وجوِّز أن يكون ذلك علةً لـ «يصَّدَّعون»، والاقتصارُ على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصودُ بالذات، والاكتفاءِ بفحوى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فإنَّ عدم المحبةِ كنايةٌ عن البغض في العرف، وهو يقتضي الجزاءَ بموجبه، فكأنه قيل: وليُعاقِبَ الكافرين.

وفي «الكشاف»: أنَّ تكرير «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وتَرْكَ الضمير إلى الصريح؛ لتقريرِ أنه لا يفلح عنده تعالى إلَّا المؤمنُ الصالح، وقولُه تعالى: «إنه» إلخ تقريرٌ بعد تقريرٍ على الطرد والعكس[1]. ويعني بذلك كلَّ كلامين يقرِّرُ الأول الثاني وبالعكس، سواءٌ كان صريحاً وإشارةً، أو مفهوماً ومنطوقاً، وذلك كقول ابن هانئ:

فــمــا جــازه جــودٌ ولا حــلَّ دونــه ولكن يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ[2]

وبيانُه فيما نحن فيه: أنَّ قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يدلُّ بمنطوقه ـ على ما قرِّر ـ على اختصاصهم بالجزاء التكريمي، وبمفهومه على أنهم أهلُ الولاية والزُّلفى، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتعليل الاختصاص يدلُّ بمنطوقه على أنَّ عدم المحبة يقتضي حرمانَهم، وبمفهومه على أنَّ الجزاء لأضدادهم موفَّرٌ، فهو جلَّ وعلا محبٌّ للمؤمنين.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ: الظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ الآيةَ بتمامها كالمُورِدِ للسؤالِ، والخطابُ لكلِّ أحدٍ من المكلَّفين، وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الآيةَ واردٌ على الاستئناف منطوٍ على الجواب، فكأنه لمَّا قيل: أقيموا على الدِّين القيِّم قبل مجيءِ يومٍ يتفرَّقون فيه، فقيل: ما للمقيمين على الدِّين، وما على المنحرفين عنه، وكيف يتفرَّقون؟ فأجيب: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ الآيةَ.

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.
(٢) البيت لابن هانئ، وسلف عند تفسير الآية (١٠٥) من سورة الأعراف.

وأما قوله سبحانه: (لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) الآيةَ فينبغي أن يكون تعليلاً للكلِّ؛ ليفصِّل ما يترتَّب على ما لَهم وعليهم، لكن يتعلَّق بـ «يَمْهَدون» وحده لشدة العناية بشأن الإيمان والعملِ الصالح وعَدَمِ الإعباء بعمل الكافر، ولذلك وُضع موضعَه: (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ)[1] انتهى، فلا تغفل.

وفي الآية لطيفةٌ نبَّه عليها الإمامُ قدِّس سرُّه، وهي أنَّ الله عز وجل عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبيد قدَّم الكافر، وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدَّم المؤمن؛ لأن قوله تعالى: (مَن كَفَرَ) وعيدٌ للمكلَّف ليمتنع عمَّا يضرُّه لينقذه سبحانه من الشرِّ، وقوله تعالى: (وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا) تحريضٌ له وترغيبٌ في الخير ليوصِلَه إلى الثواب، والإنقاذُ مقدَّمٌ عند الحكيم الرحيم، وأما عند الجزاء فابتدأ جلَّ شأنُه بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة[2].

هذا ولمَّا ذكر سبحانه ظهورَ الفساد والهلاك بسبب المعاصي، ذكر ظهورَ الصلاح ولم يذكر عزَّ وجل أنه بسبب العمل الصالح؛ لأنَّ الكريم يذكر لعقابه سبباً لئلَّا يتوهَّم منه الظلمُ، ولا يذكرُ ذلك لإحسانه، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الجنوب، ومهبُّها من مطلع سهيلٍ إلى مطلع الثريا، والصبا ومهبُّها من مطلع الثريا إلى بناتِ نعشٍ، والشمال ومهبُّها من بناتِ نعشٍ إلى مسقط النسر الطائر فإنها رياحُ الرحمة، وأما الدَّبُور ومهبُّها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريحُ العذاب، وذُكر أنَّ الثلاثة الأُوَلَ تلقحُ السحاب الماطِرَ وتجمعُه فلذا كانت رحمةً.

وعن أبي عبيدة: الشمال عند العرب للروح، والجنوب للأمطار والأنداء، والصبا لإلقاح الأشجار، والدَّبور للبلاء، وأهونُه أن تثير غباراً عاصفاً يقذي العينَ، وهي أقلُّهنَّ هبوباً.

وروى الطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «سننه» عن ابن عباس من حديثٍ ذكر فيه ما كان يفعله ويقولُه ﷺ إذا هاجت ريحٌ: «اللهمَّ اجعلها رياحاً ولا تَجْعَلْها ريحاً»[3] وهو

(١) حاشية الطيبي على الكشاف عند تفسير هذه الآية.

(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ١٣٠.

(٣) المعجم الكبير(١١٥٣٣) من طريق الحسين بن قيس، عن عكرمة، عن ابن عباس، وهذا

مبنيٌّ على أنَّ الرياح للرحمة والريحَ للعذاب.

وفي «النهاية»: العرب تقول: لا تُلقح السحابُ إلا من رياح مختلفة، فكأنه قال ﷺ: اللهمَّ اجْعَلْها لقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً، ثم قال: وتحقيقُ ذلك مجيءُ الجمع في آيات الرحمة والواحدِ في قصص العذاب، كـ ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] و﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: ١٩](١).

وقال بعضهم: إنَّ ذاك لأنَّ الريح إذا كانت واحدةً جاءت من جهةٍ واحدةٍ، فصَدَمتْ جسم الحيوان والنبات من جهةٍ واحدة، فتؤثِّر فيه أثراً أكثر من حاجته فتضرُّه، ويتضرَّرُ الجانب المقابلُ لعكس ممرِّها، ويفوتُه حظُّه من الهواء فيكون داعياً إلى فساده، بخلافِ ما إذا كانت رياحاً، فإنها تعمُّ جوانب الجسم فيأخذ كلُّ جانبٍ حظَّه فيحدث الاعتدال.

وأنت تعلم أنه قد تُفْرَدُ الريحُ حيث لا عذابَ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء: ٨١] والحديثُ مختلفٌ فيه؛ فرمزَ السيوطيُّ لحُسْنِه(٢)، وقال الحافظ الهيثميُّ: في سنده حسينُ بن قيسٍ وهو متروكٌ، وبقية رجاله رجالُ الصحيح(٣). ورواه ابن عديٍّ في «الكامل» من هذا الوجه وأعلَّه بحسينٍ المذكور، ونَقَلَ تضعيفه عن أحمد والنسائي(٤)، نعم إنَّ الحافظ عزاه في «الفتح» لأبي يَعْلَى وحدَه عن أنس رَفَعَه، وقال: إسنادُه صحيح(٥). فليُحْفَظ ذلك.

= إسناد ضعيف كما سيرد قريباً. ولم نقف عليه في سنن البيهقي، وإنما أخرجه في معرفة السنن والآثار ٥/ ١٨٩ من طريق الشافعي قال: أخبرني مَن لا أتَّهم قال: حدثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس. وهو في الأم ١/ ٢٢٤. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى، وهو ضعيف.

(١) النهاية (روح).

(٢) كما في فيض القدير ٥/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المناوي في فيض القدير ٥/ ١٦٦.

(٤) الكامل ٢/ ٧٦٣، والكلام من فيض القدير ٥/ ١٦٦.

(٥) فتح الباري ٢/ ٥٢٠، وفيض القدير ٥/ ١٦٦، والحديث في مسند أبي يعلى (٢٩٠٥). ولكن هذا الحديث الذي ذكره ابن حجر وصححه، وأخرجه أبو يعلى ورد بقطعة أخرى من حديث ابن عباس، وليس فيه: «اللهم اجعلها رياحاً...».

وقرأ ابن كثير والكسائيُّ والأعمش: «الريحَ» مفرداً[1] على إرادة معنى الجمع، ولذا قال سبحانه: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني المنافعَ التابعةَ لها، كتَذْرِيةِ الحبوب وتخفيفِ العفونة وسَقْي الأشجار، إلى غير ذلك من اللطف والنعم.

وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبَّب عنها، أو الروح الذي هو مع هبوبها. ولا وجهَ للتخصيص.

والواو للعطف، والعطفُ على علَّةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها «مبشِّرات»، أي: ليبشِّركم وليذيقكم، أو على «مبشرات» باعتبارِ المعنى، فإنَّ الحال قد يُقْصَدُ بها التعليلُ، نحو: أهِنْ زيداً مسيئاً، أي: لإساءته، فكأنه قيل: لتبشِّركم وليذيقكم، وكونُه من عَطْفِ التوهُّم توهُّمٌ، أو على «يرسل» بإضمارِ فعلٍ معلَّل، والتقدير: ويرسلها ليذيقكم، وكونُ التقدير: ويُجري الرياحَ ليُذيقكم، بعيدٌ.

قيل: أو على جملة «ومن آياته» إلخ بتقدير: وليذيقكم أرسلها، أو: فَعَلَ ما فَعَلَ، ولم يعتبره بعضُهم لأنَّ المقصود اندراجُ الإذاقةِ في الآيات.

وقيل: الواو زائدة.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ عز وجل، وإنما جيء بهذا القيدِ لأنَّ الريح قد تهبُّ ولا تكون مُواتيةً، فلا بدَّ من انضمام إرادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتَّى المطلوبُ. وقيل: للإشارة إلى أنَّ هبوبها مواتيةً أمرٌ من أموره تعالى التي لا يقدِرُ عليها غيرُه عز وجل.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ولتشكروا نعمةَ الله تعالى فيما ذكر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ اعتراضٌ لتسليته ﷺ بِمَن قبله على وجهٍ يتضمَّن الوعدَ له عليه الصلاة والسلام والوعيدَ لمن عصاه، وفي ذلك أيضاً تحذيرٌ عن الإخلال بمواجب الشكر. والمراد بـ «قومهم»: أقوامُهم، والإفرادُ للاختصار

---

(١) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣ عن ابن كثير وحمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة.

حيث لا لَبْسَ، والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاء كلَّ قومٍ رسولُهم بما يخصُّه من البيِّنات كما جئتَ قومك ببيناتك.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فآمَنَ بعضٌ وكذَّبَ بعضٌ فانتقمنا، وقيل: أي: فكذَّبوهم فانتقمنا منهم، ووُضع الموصول موضعَ ضميرهم للإشعار بالعلَّة، والتنبيهِ على مكان المحذوف. وجوِّز أن تكون[1] تفصيلاً للعموم بأنَّ فيهم مجرماً مقهوراً، ومؤمناً منصوراً.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فيه مزيدُ تشريفٍ وتكْرمةٍ للمؤمنين، حيث جُعلوا مستحقِّين على الله تعالى أن ينصرهم، وإشعارٌ بأنَّ الانتقام لأَجْلهم، والمراد بهم ما يشملُ الرسلَ عليهم الصلاة والسلام، وجوِّز تخصيصُ ذلك بالرسل بجَعْلِ التعريف عهديًّا.

وظاهرُ الآية أنَّ هذا النصر في الدنيا، وفي بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها، وأنه عامٌّ لجميع المؤمنين فيشمل مَن بعد الرسل من الأمة.

أخرج ابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئٍ مسلم يردُّ عن عِرْضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على الله تعالى أن يردَّ عنه نارَ جهنم يومَ القيامة» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[2]. وفي هذا إشعارٌ بأنَّ «حقًّا» خبرُ «كان»، و«نصر المؤمنين» الاسمُ كما هو الظاهر، وإنما أُخر الاسمُ لكون ما تعلَّق به فاصلةً، وللاهتمام بالخبر إذ هو محطُّ الفائدة على ما في «البحر»[3].

---

(١) يعني الفاء. حاشية الشهاب ٧/١٢٦.

(٢) مكارم الأخلاق للطبراني (١٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/١٥٧، وأخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية. وهو عندهم من طريق ليث، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء به. وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث ـ وهو ابن أبي سليم ـ وشهر بن حوشب. وأخرجه من طريق آخر عن أبي الدرداء الترمذي (١٩٣١) بلفظ: «مَن ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة» قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) ٧/١٧٨.

قال ابن عطية[1]: ووقف بعض القراء على «حقًّا» على أنَّ اسم «كان» ضمير الانتقام، أي: وكان الانتقامُ حقًّا وعدلاً لا ظلماً، ورجوعُه إليه على حدِّ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، و«علينا نصر المؤمنين» جملةٌ مستأنفةٌ، وهو خلافُ الظاهر المؤيِّدِ بالخبر، وإن لم يكن فيه محذورٌ من حيث المعنى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما أُجمل فيما سبق[2] من أحوال الرياح ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ تحرِّكُه وتنشرُه ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾ بسطاً تامًّا متصلاً تارةً ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في سَمْتِها[3]، لا في نفس السماء بالمعنى المتبادر ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ سائراً وواقفاً، مطبقاً[4] وغير مطبقٍ، من جانب دون جانب[5]، إلى غير ذلك، فالجملةُ الإنشائية حالٌ بالتأويل.

﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ أي: قطعاً تارةً أخرى.

وقرأ ابن عامر بسكون السين[6] على أنه مخفَّفٌ من المفتوح، أو جمعُ كِسْفةٍ، أي: قطعةٍ، أو مصدرٌ كعِلْم وُصف به مبالغةً، أو بتأويله بالمفعول، أو بتقديرِ: ذا كِسْفٍ.

﴿فَتَرَى﴾ يا مَن يصحُّ منه الرؤيةُ ﴿ٱلۡوَدۡقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾ أي: فُرَجِه - جمع خَلَل - في التارتين: الاتِّصالِ والتقطُّعِ، فالضمير للسحاب، وهو اسمُ جنسٍ يجوز تذكيرُه وتأنيثه. وجوِّز على قراءة «كِسْفاً» بالسكون أن يكون له، وليس بشيء.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ بلادِهم وأراضيهم، والباء في «به» للتعدية

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤١.

(٢) في (م): سيق، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٦٤.

(٣) قوله: في سمتها، أراد به جهة العلوّ. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٤) قوله: مطبقاً، اسم مفعول من الإفعال أو التفعيل، يقال: أطبقه وطبَّقه: إذا غشَّاه وغطاه، ويجوز كونه بزنة اسم الفاعل. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٥) قوله: من جانب دون جانب، تفسير لغير المطبق. حاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.

(٦) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٠٩ عن ابن عامر بخلاف عن هشام، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ فاجؤوا الاستبشارَ بمجيء الخصب ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ الوَدْقُ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: التنزيلِ ﴿لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩﴾ أي: آيِسينَ.

والتكريرُ للتأكيد، وأفاد ـ كما قال ابن عطية[١] ـ الإعلامَ بسرعة تقلُّبِ قلوبِ البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أنَّ «من قَبْلِ أن ينزَّل عليهم» يحتملُ الفسحةَ في الزمان فجاء «من قبله» للدلالة على الاتِّصال ودَفْعِ ذلك الاحتمال.

وقال الزمخشريُّ: أكَّد ليدلَّ على بُعْدِ عهدهم بالمطر، فيُفهَمُ منه استحكامُ يأسهم[٢]. وما ذكره ابن عطية أقربُ؛ لأنَّ المتبادر من القَبْليةِ الاتصالُ، وتأكيدُه[٣] دالٌّ على شدَّته.

وأبو حيان أنكر على كِلَا الشيخين وقال: ما ذكراه من فائدة التأكيد غيرُ ظاهرٍ، وإنما هو عندي لمجرَّدِ التأكيد، ويفيدُ رَفْعَ المجاز فقط[٤].

وقال قطرب: ضمير «قبله» للمطر، فلا تأكيدَ. وأنت تعلم أنه يصيرُ التقدير: مِن قَبْلِ تنزيلِ المطر من قَبْلِ المطر، وهو تركيبٌ لا يَسوغُ في كلامٍ فصيحٍ فضلاً عن القرآن.

وقيل: الضمير للزرع الدالِّ عليه المطر، أي: من قبل تنزيلِ المطر من قبل أن يَزْرَعوا. وفيه أنَّ «من قبل أن ينزَّل» متعلِّقٌ بـ «مبلسين» ولا يمكن تعلُّق «من قبله» به أيضاً لأنَّ حرفي جرٍّ بمعنًى لا يتعلَّقان بعاملٍ واحدٍ، إلا أن يكون بوساطة حرفِ العطف، أو على جهة البدل، ولا عاطفَ هنا ولا يصحُّ البدل ظاهراً. وجوَّز بعضُهم فيه بدلَ الاشتمال مكتفياً فيه بكونِ الزرع ناشئاً عن التنزيل، فكان التنزيلُ مشتملاً عليه، وهو كما ترى.

وقال المبرِّد: الضمير للسحاب؛ لأنهم لمَّا رأوا السحابَ كانوا راجينَ المطرِ، والمراد: من قبل رؤيةِ السحاب. ويحتاج أيضاً إلى حرف عطفٍ حتى يصحَّ تعلُّقُ الحرفين بـ «مبْلسين».

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٦.
(٣) في (م): وتأكيد، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ١٢٧.
(٤) البحر ٧/ ١٧٩.

وقال علي بن عيسى[1]: الضمير للإرسال. وقال الكرمانيُّ: للاستبشار؛ لأنه قُرن بالإبلاس، ومُنَّ عليهم به. وأُورد عليهما أمرُ التعلُّقِ من غيرِ عطفٍ كما أُورد على مَن قَبْلَهما، فإن قالوا بحذف حرف العطف، ففي جوازه في مثل هذا الموضع قياساً خلافٌ.

واختار بعضُهم كونَه للاستبشار على أنَّ «مِن» متعلِّقةٌ بـ «ينزَّل»، و«مِن» الأولى متعلِّقة بـ «مبلسين»؛ لأنه يفيدُ سرعةَ تقلُّب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غايةِ تقارُبِ زمانيهما ببيانِ اتِّصالِ اليأس بالتنزيل المتصلِ بالاستبشار بشهادة «إذا» الفجائية، فتأمل.

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ في «لمبسلين» هي الفارقة، ولا ضميرَ شأنٍ مقدَّراً لـ «إنْ» لأنه إنما يقدَّر للمفتوحة، وأمَّا المكسورةُ فيجب إهمالُها كما فصَّله في «المغني»[2]، وبعضُ الأجلَّة قال بالتقدير.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المترتبةِ على تنزيل المطر، من النبات والأشجار وأنواع الثمار، والفاءُ للدلالة على سرعة ترتُّبها عليه.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو وأبو بكر: «أَثَر» بالإفراد وفَتْحِ الهمزة والثاء[3].

وقرأ سلام: «إِثْر» بكَسْرِ الهمزة وإسكانِ الثاء[4].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ أي: اللهُ تعالى ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ في حيِّز النصب بنزع الخافض، و«كيف» معلَّقٌ لـ «انظر»، أي: فانظر لإحيائه تعالى البديعِ للأرض بعد موتها. وقال ابن جنِّي: على الحالية بالتأويل، أي: محيياً[5].

وأيًّا ما كان فالمرادُ بالأمر بالنظر التنبيهُ على عظيمِ قدرته تعالى، وسعةِ رحمتهِ عز وجل مع ما فيه من التمهيد لِمَا يعقبُه من أمر البعث.

---

(١) هو الرماني، ونقل المصنف كلامه وكلام غيره في هذه المسألة عن البحر ٧/ ١٧٩.
(٢) ص٣٦-٣٧، وهذا الوجوب إذا دخلت على الفعل، وأما إذا دخلت على الجملة الاسمية فقد قال ابن هشام: يجوز إعمالها خلافاً للكوفيين.
(٣) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٥، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢، والبحر ٧/ ١٧٩.
(٥) البحر ٧/ ١٧٩، وينظر المحتسب ٢/ ١٦٥.

وقرأ الجحدريُّ وابن السميفع وأبو حيوة: «تحيي» بتاء التأنيث[١]، والضميرُ عائد على الرحمة، وجوِّز على قراءة الحِرْميين ومَن معهما أن يكون الضميرُ للأثر على أنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه، وليس بشيءٍ كما لا يخفى[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العظيم الشأن ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائهم، فإنه إحداثٌ لِمثْلِ ما كان في موادِّ أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أنَّ إحياء الأرض إحداثٌ لِمثْلِ ما كان فيها من القوى النباتية.

وقيل: يحتمل أن يكون النباتُ الحادثُ من أجزاءٍ نباتيةٍ تفتَّتت وتبدَّدتْ واختلطت بالتراب الذي فيه عروقُها في بعض الأعوام السالفة، فيكون كالإحياء بعينه، بإعادة الموادِّ والقوى لا بإعادة القوى فقط. وهو احتمالٌ واهي القوى بعيدٌ، ولا نسلِّم أن المسلم المسترشِدَ يعلم وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، أي: مبالغٌ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياؤهم؛ لِمَا أنَّ نسبة قدرته عز وجل إلى الكلِّ سواءٌ.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: النباتَ المفهومَ من السياق كما قال أبو حيان[٣]، أو الأثرَ المدلولَ عليه بالآثار، أو النباتَ المعبَّرَ عنه بها على ما قاله بعضُهم. والنباتُ في الأصل مصدرٌ يقع على القليل والكثير، ثم سمِّي به ما يَنْبتُ.

وقال ابن عيسى: الضميرُ للسحاب؛ لأنه إذا كان مصفرًّا لم يُمطر. وقيل: للريح، وهي تذكَّرُ وتؤنَّث، وكِلَا القولين ضعيفان كما في «البحر»[٤].

وقرأ جناح بن حبيش: «مُصْفَارًّا» بألفٍ بعد الفاء[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، والبحر ٧/ ١٧٩.

(٢) لأن اكتساب التأنيث من الإضافة لا يجوز إلا إذا كان المضاف بمعنى المضاف إليه، أو من سببه، وأما إذا كان أجنبيًّا فلا يجوز، وهذا أجنبي. البحر ٧/ ١٧٩، والدر المصون ٩/ ٥٣.

(٣) في البحر ٧/ ١٧٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) القراءات الشاذة ص١١٦، والبحر ٧/ ١٧٩.

والـلام في «لئن» موطِّئةٌ للقسم دخلت على حرف الشرط، والفاءُ في «فرأوه» فصيحةٌ، واللامُ في قوله تعالى: ﴿لَّظَلُّوا۟﴾ لامُ جوابِ القسم السادُّ مسدَّ الجوابين، والماضي بمعنى المستقبل، كما قاله أبو البقاء ومكِّي وأبو حيان وغيرُهم[1]، وعلَّل ذلك بأنه في المعنى جوابُ «إنْ» وهو لا يكون إلَّا مستقبلاً.

وقال الفاضل اليمنيُّ: إنما قدَّروا الماضي بمعنى المستقبل من حيث إن الماضي إذا كان متمكِّناً متصرِّفاً ووقع جواباً للقسم فلا بدَّ فيه من «قد» واللامِ معاً، فالقصرُ على اللام لأنه مستقبلٌ معنًى. وفيه نظر.

وقدَّروه بمضارعٍ مؤكَّدٍ بالنون، أي: وبالله تعالى لئن أرسلنا ريحاً حارَّةً أو باردةً فضربتْ زَرْعَهم بالصَّفَارِ، فرأوه مصفرًّا بعد خُضْرتِه ونَضَارتِه ليَظلُّنَّ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد الإرسال، أو من بعد اصفرارِ زرعهم. وقيل: من بعد كونهم راجينَ مستبشرين ﴿يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ من غير تلعثُمٍ نعمةَ الله تعالى.

وفيما ذكر من ذمِّهم بعدم تثبُّتهم وسرعةِ تَزَلْزُلِهم بين طرفي الإفراط والتفريط مالا يخفى، حيث كان الواجبُ عليهم أن يتوكَّلوا على الله سبحانه في كلِّ حالٍ، ويلجؤوا إليه عزَّ وجلَّ بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطرُ ولا ييأسوا من رَوْح الله تعالى، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جلَّ وعلا برحمته ولا يُفْرِطوا في الاستبشار، وأن يصبروا على بلائه تعالى إذا اعْتَرَى زَرْعَهم آفةٌ ولا يكفروا بنعمائه جلَّ شأنُه، فعَكَسوا الأمر وأَبَوْا ما يُجْدِيهم وأَتَوْا بما يؤذيهم. ولا يخفى ما في الآيات من الدلالة على ترجيح جانب الرحمة على جانب العذاب، فلا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ لِمَا يُفْهَم من الكلام السابق، كأنه قيل: لا تَحْزَن لعدم اهتدائهم بتذكيرك فإنك.. إلخ.

وفي «الكشف»: اعْلَمْ أنَّ قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ) كلامٌ سيقَ مقرِّراً لِمَا فُهِمَ من قوله سبحانه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) الآيةَ لدلالته على أنه عزَّ وجلَّ ينتقمُ من المكذِّبين برسول الله ﷺ وينصُرُ متابِعيهِ، فذكر فيه من البيِّنات ما أُجْمِلَ هنالك مما يدلُّ على القدرة والحكمة والرحمة، واختير من الأدلَّة ما يجمع

(١) الإملاء ٤/ ١٧٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٣، والبحر ٧/ ١٨٠.

الثلاثةَ، وفيه ما يرشِدُ إلى تحقيق طرفي الإيمان، أعني المبدأ والمعاد، وصرَّح بكفرانهم بالنعمة وذمّهم في الحالات الثلاث؛ لأنَّ ذلك مما يعرفُه أهل الفطر السليمة ويتخلَّق به، وأَدْمَجَ فيه دلالته على المعاد بقوله تعالى: (فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ) ولمَّا فرغ من حديث ذمِّهم بنَى على هذا المدمَجِ وما دلَّ عليه سياقُ الكلام من تماديهم في الضلالة مع[1] مثل هذه البيِّنات التي لا أتمَّ منها في الدلالة، فقال سبحانه: (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ) إلى قوله تعالى: (فَهُم مُّسْلِمُونَ) وفيه أنهم إذاً لا محالةَ من الذين ينتقمُ منهم، وأنك وأشياعك من المنصورين، والله تعالى أعلم. اهـ، فتأمَّله مع ما ذكرنا.

وقد تقدَّم الكلامُ في هذه الجملة خاليةً عن الفاء في سورة النمل[2]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بيد أنَّا نذكر هنا ما ذكره الأجلَّة في سماع الموتى وفاءً بما وعدنا هنالك، فنقول ومن الله تعالى التوفيقُ:

نُقِلَ عن العلَّامة ابنِ الهمام أنه قال: أكثرُ مشايخنا على أنَّ الميت لا يسمع؛ استدلالاً بقوله تعالى: (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) ونحوِها، يعني من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر، وقالوا: لو حلف: لا يكلِّم فلاناً، فكلَّمه ميتاً لا يَحْنَثُ[3].

وحكى السفارينيُّ في «البحور الزاخرة» أنَّ عائشةَ ذهبت إلى نفي سماع الموتى[4]، ووافقها طائفةٌ من العلماء على ذلك، ورجَّحه القاضي أبو يعلى من أكابر أصحابنا ـ يعني الحنابلة ـ في كتابه «الجامع الكبير»، واحتجُّوا بقوله تعالى: (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ) ونحوِه.

وذهبت طوائفُ من أهل العلم إلى سماعهم في الجملة، وقال ابن عبد البرِّ: إنَّ

(١) قوله: مع، ساقط من (م).
(٢) عند تفسير الآية (٨٠) منها.
(٣) فتح القدير لابن الهمام ١/٤٤٦-٤٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٧/١٢٨.
(٤) أخرجه البخاري (٣٩٧٨) و(٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢)، وسيأتي بتمامه قريباً.

الأكثرين على ذلك. وهو اختيارُ ابن جرير الطبريِّ[1]، وكذا ذكر ابنُ قتيبة وغيرُه، واحتجُّوا بما في الصحيحين عن أنس عن أبي طلحة ﷺ قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ وظهر عليهم - يعني مشركي قريش - رسول الله ﷺ، أمَرَ ببضعةٍ وعشرين رجلاً - وفي روايةٍ: أربعٍ وعشرين رجلاً - من صناديد قريشٍ فأُلقوا في طويٍّ - أي: بئرٍ - من أطواءِ بدرٍ، وأنَّ رسول الله ﷺ ناداهم: «يا أبا جهل ابن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقًّا؛ فإني قد وجدتُ ما وعد ربِّي حقًّا؟» فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، ما تكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟! فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأَسْمَعَ لِمَا أقولُ منهم»[2]، زاد في روايةٍ لمسلم عن أنس: «ولكنَّهم لا يقدرون أن يجيبوا»[3].

وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسَلِ عبيد بن مرزوق قال: كانت امرأةٌ بالمدينة تَقُمُّ المسجد فماتت، فلم يعلم بها النبيُّ ﷺ، فمرَّ على قبرها فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا القبر؟» فقالوا: أم مِحْجَن. قال: «التي كانت تقمُّ المسجد؟» قالوا: نعم. فصفَّ الناسَ فصلَّى عليها، فقال ﷺ: «أيَّ العمل وجدتِ أفضل؟» قالوا: يا رسول الله، أتسمع؟ قال: «ما أنتم بأسمعَ منها» فذكر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته: «قَمّ المسجد»[4].

وبما رواه البيهقيُّ والحاكم وصحَّحه وغيرهما عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد، فقال: «أشهد أنكم أحياءٌ عند الله تعالى، فزوروهم وسلِّموا عليهم، فوالَّذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلا ردُّوا عليه إلى يوم القيامة»[5].

---

(١) في الأصل و(م): والطبري، وينظر تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٤ و١٩/ ٣٥٩.
(٢) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥).
(٣) صحيح مسلم (٢٨٧٤).
(٤) الترغيب والترهيب ١/ ٢٦٨. قال المنذري: قمُّ المسجد: كَنْسُه. وأخرجه بنحوه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، إلى قوله: فصلى عليها. وليس فيه ذكر اسم المرأة. وأخرجه البيهقي ٤/ ٤٨ من حديث بريدة ﷺ، فذكر اسمها أم محجن، وحسنه الحافظ في الفتح ١/ ٥٥٣.
(٥) المستدرك ٢/ ٢٤٨، والمعجم الأوسط (٣٧٠٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٣: =

وبما أخرج ابنُ عبد البرِّ ـ وقال عبد الحقِّ الإشبيليُّ: إسناده صحيح ـ عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحدٍ يمرُّ بقبرِ أخيه المؤمنِ كان يعرفُه في الدنيا يسلِّمُ عليه إلا عَرَفَه وردَّ عليه»(١).

وبما أخرج ابنُ أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: الروحُ بيد ملكٍ يمشي به مع الجنازة، يقول له: أتسمعُ ما يقال لك؟ فإذا بلغ حفرتَه دفنه معه(٢).

وبما في الصحيحين من قوله ﷺ: «إنَّ العبد إذا وُضع في قبره وتولَّى عنه أصحابُه، إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالهم»(٣).

وأجابوا عن الآية؛ فقال السهيليُّ: إنها كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزخرف: ٤٠] أي: إنَّ الله تعالى هو الذي يُسْمِعُ ويَهْدي(٤).

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ معناها: لا تُسْمِعُهم إلا أن يشاء الله تعالى، أو: لا تُسمعهم سماعاً ينفعهم، وقد يُنفَى الشيءُ لانتفاء فائدته وثمرته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]، وهذا التأويلُ يجوز أن يعتبر في قوله تعالى: (وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ) ويكون نكتةُ العدول عن: فإنك لا تُسْمِعُ الموتَى ولا الصمَّ، إلى ما في النظم الجليل العنايةَ بنفي الإسماع، ويجوز أن لا يعتبر فيه ويبقى الكلامُ على ظاهره، ويكون نكتةُ العدول الإشارةَ إلى أنَّ «لا تُسمع» في كلٍّ من الجملتين بمعنًى.

وقال الذاهبون إلى عدم سماعهم: الأصلُ عدمُ التأويل، والتمسُّكُ بالظاهر إلى

= فيه عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك. اهـ. وقال الذهبي في التلخيص: أنا أحسبه موضوعاً.

(١) الاستذكار ٢/ ١٦٥، وكلام عبد الحق في الأحكام الوسطى ٢/ ١٥٢-١٥٣، والصغرى ١/ ٣٤٥.

(٢) ذكره بإسناد عن ابن أبي الدنيا السيوطي في الحاوي ١/ ٣٠٥.

(٣) صحيح البخاري (١٣٣٨)، وصحيح مسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس ﷺ، وهو عند أحمد (١٢٢٧١).

(٤) الروض الأنف ٣/ ٦٢.

أن يتحقَّق ما يقتضي خلافَه، وأجابوا عن كثيرٍ مما استَدلَّ به الآخرون؛ فقال بعضهم: إنَّ ما وقع في حديث أبي طلحةَ ﷺ يجوزُ أن يكون معجزةً له ﷺ، وهو مرادُ مَن قال: إنَّه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، وهي من خوارق العادة، والكلامُ في مُوافقها[1]، وهو الذي نُفي في آية ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ونحوها، وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم» دون: ما أنتم بأسمعَ لمَا يقال ـ ونحوه ـ منهم، تأييدٌ ما لذلك. وحديث أبي الشيخ مرسلٌ، وحكمُ الاستدلال به معروفٌ، على أنَّ احتمال الخصوصية قائمٌ فيه أيضاً.

وفي «صحيح البخاريِّ»: قال قتادة: أحياهم الله تعالى ـ يعني أهلَ الطويِّ ـ حتى أسمعهم قولَه ﷺ توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً[2]. ويؤيِّد[3] ما أخرج البخاريُّ ومسلم والنسائيُّ وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: وقف النبيُّ ﷺ على قليب بدرٍ فقال: «هل وجدتُم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إنهم الآن يسمعون ما أقول»[4] حيث قيَّد ﷺ سماعَهم بالآن.

وإذا قلنا بأن الميت يُسأل سبعةَ أيام في قبره مؤمناً كان أو منافقاً أو كافراً، وأنه حين السؤالِ تُعاد إليه روُحه، كان لك أن تقول: يجوزُ أن يكون خطابُ أهلِ القليب حين إعادةِ أرواحهم إلى أبدانهم للسؤال، فإنه كما في حديثٍ أخرجه أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ كان في اليوم الثالث من قَتْلِهم[5].

ويحتملُ أن يكون خطابُه ﷺ لأمِّ مِحْجَنٍ كان وقتَ السؤال، بأنْ يكون ذلك قبل مضيِّ سبعةِ أيامٍ عليها، وعليه لا يكون سماعُهم من المتنازَع فيه؛ لأنهم حين سمعوا أحياءٌ لا موتى.

---

(١) أي: العادة.

(٢) صحيح البخاري إثر الحديث (٣٩٧٦).

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ويؤيده.

(٤) صحيح البخاري (٣٩٨٠) و(٣٩٨١)، والمجتبى ٤/ ١١٠، ولم نقف على هذا اللفظ عند مسلم، وأخرجه أحمد (٤٨٦٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ١٥٧، وعنه نقل المصنف.

(٥) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٤) و(٢٨٧٥)، ومسند أحمد (١٢٤٧١)، ونقل المصنف تخريجه عن الدر المنثور ٥/ ١٥٨.

ويَرِدُ على هذا أنَّ عمر ﷺ قال له عليه الصلاة والسلام: ما تكلِّم من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟! ولم ينكر ذلك عليه ﷺ، بل قال عليه الصلاة والسلام له: «ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم» ولو كان الأمر كما قال قتادة لكان الظاهرُ أن يقول ﷺ له ﷺ: ليس الأمرُ كما تقول إنَّ الله عزَّ وجلَّ أحياهم لي، أو نحو ذلك.

وعائشةُ ﷺ أنكرت ما وقع في الحديث مما استدلَّ به على المقصود، ففي «صحيح البخاري» عن هشام عن أبيه قال: ذُكر عند عائشةَ أنَّ ابن عمر رفع إلى رسول الله ﷺ «إنَّ الميت يعذَّبُ ببكاء أهله عليه» فقالت: وَهَلَ[١] ابنُ عمر، إنما قال رسول الله ﷺ: «إنه ليعذَّب بخطيئته وذنبه، وإنَّ أهله ليبكون عليه الآن» قالت: وذلك مثلُ قوله: إنَّ رسول الله ﷺ قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» إنما قال: «إنهم الآنَ ليعلمون أنَّ ما كنتُ أقول لهم حقٌّ» ثم قرأتْ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[٢].

وتعقَّب ذلك السهيليُّ فقال: عائشةُ ﷺ لم تَحْضُرْ قولَ النبيِّ ﷺ، فغيرُها ممَّن حضر أحفظُ لِلَفْظِه عليه الصلاة والسلام، وقد قالوا له: يا رسول الله أتخاطبُ قوماً قد جيَّفوا؟ فقال: «ما أنتم بأسمعَ لِمَا أقول منهم». قالوا: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمينَ ـ يعني كما تقول عائشةُ ـ جاز أن يكونوا سامعين[٣]. اهـ. وهو كلام قويٌّ.

ولا يَقْدحُ عدمُ حضورها في روايتها لأنه مرسلُ صحابيٍّ، وهو محمولٌ على أنه سَمِعَ ذلك ممَّن حضره أو من النبيِّ ﷺ، ولو كان ذلك قادحاً في روايتها لقَدَحَ في رواية ابن عمر السابقةِ فإنه لم يحضر أيضاً، ولا مانعَ من أن يكون النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال اللفظين جميعاً؛ فإنه كما عُلم من كلام السهيليِّ لا تعارُضَ بينهما.

---

(١) أي: ذهب وهمه إلى ذلك. ويجوز بمعنى: سها وغلط، يقال منه: وَهِلَ في الشيء وعن الشيء بالكسر، يَوْهَلُ وَهَلاً بالتحريك. النهاية (وهل).

(٢) صحيح البخاري (٣٩٧٨) و(٣٩٧٩)، وهو عند مسلم (٩٣٢).

(٣) الروض الأنف ٣/ ٦٢.

وقال بعضهم فيما رواه البيهقيُّ، والحاكم صححه، وغيرهما: إنَّا لا نسلِّم صحته، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار، وإنْ سلَّمنا صحَّته نلتزمُ القولَ بأنَّ الموتى الذي لا يَسمعون هم مَن عَدَا الشهداء، أما الشهداء فيسمعون في الجملة لامتيازهم على سائر الموتى بما أخبر عنهم من أنهم أحياءٌ عند الله عز وجل.

وقيل في حديث ابن عبد البر: إنَّ عبد الحقِّ وإنْ قال: إسناده صحيح، إلَّا أنَّ الحافظ ابنَ رجب تعقَّبه وقال: إنه ضعيفٌ بل منكر[1].

وفي حديث ابن أبي الدنيا أنه على تسليم صحَّته لا يثبتُ المطلوبُ؛ لأنَّ خطاب الملك عليه السلام للروح الذي بيده، وهو ليس بميت.

وفي حديث الصحيحين من سماع العبد قرعَ نعالِ أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه، أنه إذ ذاك تعود إليه روحُه للسؤال فيسمعُ وهو حيٌّ. والجمهورُ على عَوْدِ الروح إلى الجسد أو بعضِه وقتَ السؤال على وجهٍ لا يحسُّ به أهلُ الدنيا إلا مَن شاء الله تعالى منهم، ووراء ذلك مذاهبُ.

فمذهب ابن جرير وجماعةٍ من الكرَّاميَّة أنَّ السؤال في القبر على البدن فقط، وأنَّ الله تعالى يخلُقُ فيه إدراكاً بحيث يسمعُ ويعلم، ويَلَذُّ ويألم، وعلى هذا المذهب يمكن أن يقال نحوُ ما قيل على الأول. ومذهبُ ابن حزم[2] وابنِ ميسرة أنه على الروح فقط، ومذهبُ أبي الهذيل[3] وأتباعِه أنَّ الميت لا يشعر بشيءٍ أصلاً إلّا بين النفختين.

والحقُّ أنَّ الموتى يسمعون في الجملة وهذا على أحد وجهين:

أوَّلهما: أن يخلق الله عز وجل في بعض أجزاء الميت قوةً يسمع بها متى شاء الله تعالى السلامَ ونحوَه مما يشاء الله سبحانه سماعَه إياه، ولا يمنع من ذلك

(١) أهوال القبور لابن رجب ص١٠٩، وفيه تعقيباً على تصحيح عبد الحق: يشير إلى أن رواته كلهم ثقات، وهو كذلك إلا أنه غريب بل منكر.
(٢) في الفصل في الملل والنحل ٤/ ٦٧.
(٣) هو محمد بن الهذيل البصري العلاف، صاحب التصانيف، رأس المعتزلة، توفي سنة (٢٣٥هـ). سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤٢.

كونُه تحت أطباق الثرى، وقد انحلَّت منه هاتيك البنيةُ وانفصمت العُرى، ولا يكاد يتوقَّفُ في قبول ذلك مَن يجوِّز أن يَرى أعمَى الصينِ بقَّة أندلس.

وثانيهما: أن يكون ذلك السماعُ للروح بلا وساطةِ قوةٍ في البدن، ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحسَّ وتدرك مطلقاً بعد مفارقتها البدن بدون وساطةِ قوًى فيه، وحيث كان لها على الصحيح تعلُّقٌ لا يعلم حقيقته وكيفيتَه إلا الله عز وجل بالبدن كلِّه أو بعضِه بعد الموت، وهو غيرُ التعلُّق بالبدن الذي كان لها قبله، أجرى الله سبحانه عادتَه بتمكينها من السمع، وخَلَقه لها عند زيارة القبر، وكذا عند حمل البدن إليه وعند الغسل مثلاً، ولا يلزمُ من وجود ذلك التعلُّق والقولِ بوجود قوة السمع ونحوِه فيها نفسها أن تسمع كلَّ مسموعٍ؛ لِمَا أنَّ السماع مطلقاً ـ وكذا سائر الإحساسات ـ ليس إلَّا تابعاً للمشيئة، فما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن، فيُقْتَصَر على القول بسماع ما ورد السمعُ بسماعه من السلام ونحوه، وهذا الوجهُ هو الذي يترجَّحُ عندي، ولا يلزمُ عليه التزامُ القولِ بأنَّ أرواحِ الموتى مطلقاً في أفنية القبور؛ لِمَا أنَّ مدار السماع عليه مشيئةُ الله تعالى، والتعلُّقُ الذي لا يعلم كيفيتَه وحقيقتَه إلا هو عز وجل، فلتكن الروحُ حيث شاءت أو لا تكن في مكانٍ كما هو رأيُ مَن يقول بتجرُّدها.

ويؤخذ من كلامٍ ذكره العارف ابن برجان في «شرح أسماء الله تعالى الحسنى» تحقيقٌ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ للشخص نفساً مُبْرَأةً من باطنِ ما خُلق منه الجسمُ وهي روحُ الجسم، وروحاً أَوْجَدها الله تبارك وتعالى من باطن ما برأ منه النفسَ، وهي للنفس بمنزلة النفس للجسم، فالنفسُ حجابها، وبعد المفارقة في العبد المؤمن تُجْعَلُ الحقيقةُ الروحانية عامرةَ العلوَ من السماء الدنيا إلى السماء السابعة، بل إلى حيث شاء الله تعالى من العلوِّ في سرورٍ ونعيمٍ، وتُجعل الحقيقةُ النفسانيةُ عامرةَ السفلَ من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجوِّ، ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلِّي في قبره، وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة[1]، قبل

---

(١) حديث رؤية النبي ﷺ موسى قائماً يصلي في قبره أخرجه أحمد (١٢٢١٠)، ومسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس ﷺ. وحديث رؤية النبي ﷺ إبراهيم تحت الشجرة أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

صعوده عليه الصلاة والسلام إلى السماء، ولقيهما عليهما السلام بعد الصعود في السماوات العلا[١]، فتلك أرواحُهما وهذه نفوسُهما وأجسادُهما في قبورهما.

وكذا يقال في الكافر، إلا أنَّ الحقيقة الروحانية له لا تكون عامرةً العلوَّ، فلا تُفتح لهم أبوابُ السماء، بل تكون عامرةً دارَ شقائها والعياذُ بالله تعالى.

وبين الحقيقتين اتصالٌ، وبوساطة ذلك ومشيئته عز وجل يَسمع مَن سلَّم عليه في قبره السلامَ، ولا يختصُّ السماعُ في السلام عند الزيارة ليلةَ الجمعة ويومَها وبكرةَ السبت، أو يومَ الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها، بل يكون ذلك في السلام عند الزيارة مطلقاً، فالميتُ يُسْمِعُ الله تعالى روحَه السلامَ عليه من زائره في أيِّ وقتٍ كان، ويُقْدِرُه سبحانه على ردِّ السلام كما صرّح به في بعض الآثار[٢].

وما أخرجه العقيليُّ من أنهم يسمعون السلامَ ولا يستطيعون ردَّه[٣]، محمولٌ على نفي استطاعةِ الردِّ على الوجه المعهود الذي يسمعُه الأحياء. وقيل: ردُّ السلام وعدمُه مما يختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ شخصٍ يُقْدِرُه الله تعالى على الردِّ ولا يثابُ عليه لانقطاع العمل، وشخصٍ آخَرَ لا يُقْدِرُه عز وجل.

وعندي أنَّ التعلُّق أيضاً مما يتفاوتُ قوةً وضعفاً بحَسَبِ الأشخاص، بل وبحَسَبِ الأزمان أيضاً، وبذلك يُجمع بين الأخبار والآثار المختلفة. وأما الجوابُ عن الآية التي الكلامُ فيها ونحوِها مما يدلُّ بظاهره على نفي السماع فيُعْلَم ممَّا تقدَّم، فليُفْهَمْ واللهُ تعالى أعلم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ابتدأكم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعْفَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ.
(٢) منها حديث ابن عباس الذي أخرجه ابن عبد البر وصححه عبد الحق، وقد سلف ص٤٨٦-٤٨٧ من هذا الجزء.
(٣) الضعفاء ١٩/٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وورد ذلك أيضاً في حديث أنس عند مسلم (٢٨٧٤) وقد سلف ص٤٨٦ من هذا الجزء، وفيه: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

أساس أمركم، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، فـ «مِن» ابتدائية، وفي الضعف استعارةٌ مكنيةٌ حيث شبِّه بالأساس والمادَّة، وفي إدخال «من» عليه تخييلٌ.

ويجوز أن يُراد من الضَّعف الضعيفُ بإطلاق المصدر على الوصف مبالغةً، أو بتأويله به، أو يراد: من ذي ضَعْفٍ، والمرادُ بذلك النطفةُ، أي: الله تعالى الذي ابتدأ خَلْقَكم من أصلٍ ضعيفٍ وهو النطفةُ، كقوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨]. وهذا التفسيرُ وإن كان مأثوراً عن قتادةَ إلَّا أنَّ الأوَّلَ أَوْلَى وأنسبُ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلُم، أو تعلُّقِ الروح بأبدانكم.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السنّ، والمرادُ بالضَّعف هنا ابتداؤه ولذا أخّر الشيب عنه، أو الأعمُّ فقوله سبحانه: «شيبة» للبيان أو للجمع بين تغييرِ قواهم وظواهرهم.

وفَتَحَ عاصمٌ وحمزةُ ضاد: «ضعف» في الجميع[1]، وهي قراءةُ عبد الله وأبي رجاء[2].

وقرأ الجمهور بضمِّها فيه، والضمُّ والفتحُ لغتان في ذلك كما في الفَقْر والفُقْر، الفتحُ لغةُ تميم والضمُّ لغةُ قريش، ولذا اختار النبيُّ ﷺ قراءةَ الضمِّ كما ورد في حديثٍ رواه أبو داوود والترمذيُّ وحسَّنه وأحمدُ وابنُ المنذر والطبرانيُّ والدارقطنيُّ وغيرُهم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قرأتُ على النبيِّ ﷺ: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) أي: بالفتح، فقال: «﴿من ضُعْف﴾ يا بنيَّ»[3] أي: بالضم؛ لأنها لغةُ قومه عليه الصلاة والسلام، ولم يقصد ﷺ بذلك ردَّ القراءة الأخرى لأنها ثابتةٌ بالوحي أيضاً كالقراءة التي اختارها.

---

(١) التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٣٤٥، وقد صح عن حفص الفتح والضم كما ذكر صاحب النشر.

(٢) البحر ٧/ ١٨٠.

(٣) مسند أحمد (٥٢٢٧)، وسنن أبي داود (٣٩٧٨)، وسنن الترمذي (٢٩٣٦)، والمعجم الأوسط (٩٣٧٠)، وعزاه لابن المنذر والدارقطني السيوطي في الدر ٥/ ١٥٨.

وروي عن عاصم الضمُّ أيضاً، وعنه أيضاً الضمُّ في الأوَّلَيْنِ والفتحُ في الأخير(١). وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدريِّ والضحاك الضمُّ في الأول والفتحُ فيما بعدُ(٢). وقرأ عيسى بضمِّ الضاد والعين، وهي لغة أيضاً فيه(٣).

وحُكي عن كثيرٍ من اللغويين أنَّ الضُّعفَ بالضمِّ ما كان في البدن، والضَّعْفَ بالفتح ما كان في العقل، والظاهرُ أنه لا فرقَ بين المضموم والمفتوح، وكونهما مما يوصف به البدنُ والعقل.

والمراد بـ «ضعف» الثاني عينُ الأول، ونكِّر لمشاكلة «قوة»، وبالأخير غيرُه، فإنه ضعفُ الشيخوخة وذاك ضعفُ الطفولية، والمراد بـ «قوة» الثانية عينُ الأولى ونكِّرت لمشاكلة «ضعفاً»، وحديثُ النكرة إذا أُعيدتْ كانت غيراً أغلبيٌّ، وتكلَّف بعضهم لتحصيل المغايرة فيما نُكِّر وكُرِّر في الآية، فتدبر.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خَلْقَه من الأشياء التي من جملتها ما ذُكر من الضعف والقوة والشيبة، وخَلْقُها إما بمعنى خَلْقِ أسبابها أو محالِّها، وإما إيجادها أنفسها وهو الظاهرُ، ولا داعي للتأويل فإنها ليست بعدمٍ صرفٍ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ المبالغُ في العلم والقدرة، فإنَّ الترديد فيما ذكر من الأحوال المختلفة مع إمكان غيره من أوضح دلائل العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ، سمِّيت بها لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً، وصارت عَلَماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا والكوكب للزُّهرة. والمراد بقيامها وجودُها أو قيامُ الخلائق فيها.

---

(١) ذكرهما عن عاصم الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٩، والمشهور عنه الفتح في الثلاثة، روى ذلك عنه أبو بكر، وقال الداني في التيسير ص١٧٥-١٧٦: وكذلك روى حفص عن عاصم فيهنَّ غير أنه ترك ذلك واختار الضم اتِّباعاً منه لروايةٍ حدثه بها الفضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن عبد الله بن عمر أن النبي أقرأه ذلك بالضم، وردَّ عليه الفتح وأباه، وعطية يضعَّف، وما رواه حفص عن عاصم عن أئمته أصح، وبالوجهين آخُذ في روايته؛ لأتابع عاصماً على قراءته، وأوافق حفصاً على اختياره.

(٢) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني، وفتحوا في الأخير.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣، والبحر ٧/ ١٨٠.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ أي: ما أقاموا في القبور كما روي عن الكلبيِّ ومقاتل، والمراد به: ما أقاموا بعد الموت ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: قطعةٍ من الزمان قليلةٍ.

ورَوَى غيرُ واحدٍ عن قتادة أنهم يَعْنُون: ما لبثوا في الدنيا غير ساعة.

ورجِّح الأول بأنه الأظهر؛ لأنَّ لبثهم مغيًّا بيوم البعث كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وليس لبثُهم في الدنيا كذلك.

وقيل: يعنون: ما لبثوا فيما بين فَناء الدنيا والبعثِ، وهو ما بين النفختين، وفي الحديث الصحيحِ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قيل: أربعون يوماً يا أبا هريرة؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْتُ. قيل: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْتُ[1]. وعَنَى بقوله ﵁: أبيتُ: امتنعتُ من بيان ذلك لكم، أو: أبيتُ أن أسأل النبيَّ ﷺ عن ذلك، ولهذا الحديث قيل: لا يُعلم أهي أربعون سنةً أم أربعون ألفَ سنةٍ؟

وحكى السفارينيُّ في «البحور الزاخرة» عن بعضهم دعوى اتفاقِ الروايات على أنَّ ما بين النفختين أربعون عاماً. وأنا أقول: الحقُّ أنه لا يعلمه إلا اللهُ تعالى، ودعوى الاتِّفاقِ لم يقم عندي دليلٌ عليها.

وذكر الزمخشريُّ أنَّ ذلك وقت ينقطعُ عذابُهم فيه[2].

واستقلُّوا مدة لبثهم كذباً على ما رُوي عن الكلبي، أو نسياناً لِمَا عَرَاهم من هول المطلع على ما قيل.

وجوِّز أن يكون استقلالُهم تلك المدةَ بالإضافة إلى مدة عذابهم يومئذ، ولا يَبْعدُ علمُهم بها سواءٌ كان هذا القولُ في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٧، وهذا الوقت كما ذكر الشهاب في الحاشية ٧/ ١٢٩ هو بعد إخراجهم من القبور إلى أن يدخلوا في النار.

وجوّز أن يكونوا عدُّوا مدةَ بقائهم في الدنيا ساعةً لعدم انتفاعهم بها، والكثيرُ بلا نفعٍ قليلٌ، كما أنَّ القليلَ مع النفع كثيرٌ، فالكلامُ تأسُّفٌ وتحسُّرٌ على إضاعتهم أيامَ حياتهم.

وبين «الساعة» و«ساعة» جناسٌ تامٌّ مماثلٌ، كما أطبق عليه البلغاء إلا مَن لا يعتدُّ به، ولا يضرُّ في ذلك اختلافُ الحركة الإعرابية، ولا وجودُ «أل» في إحدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة، وكذا لا يضرُّ اتحادُ مدلولهما في الأصل؛ لأنَّ المعرَّف فيه كالمنكَّر بمعنى القطعةِ من الزمان؛ لمكان النقل في المعرَّفِ وصيرورتِه عَلَماً على القيامة كسائر الأعلام المنقولة، وأَخْذُ أحدهما من الآخر لا يضرُّ أيضاً كما يوضِّحُ ذلك ما قرَّروه في جناس الاشتقاق.

وظنَّ بعضُهم أنَّ الساعة في القيامة مجازٌ، ولذا أنكر التجنيسَ هنا إذ التجنيسُ المذكورُ لا يكون بين حقيقةٍ ومجازٍ، فلا تجنيس في نحو: ركبتُ حماراً ولقيتُ حماراً معمَّماً، تعني رجلاً بليداً.

واشتهر أنه لم يقع في القرآن الكريم هذا النوعُ من الجناس إلا في هذا الموضع، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر عليه الرحمة موضعاً آخر، وهو قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۞ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] [النور:٤٣-٤٤] لأن «الأبصار» الأول جمعُ بصرٍ، و«الأبصار» الثاني مرادٌ به ما هو جمعُ بصيرة.

وتعقِّب بأنه وإن كان «الأبصار» الثاني مراداً[2] به ما هو جمعُ بصيرة إلا أنه ليس من باب الحقيقة، بل بطريق المجاز والاستعارة؛ لأن البصيرة ما تُجمع على أبصار بل على بصائر، فقد قال علماء العربية: إنَّ صيغة أفعال من جموع القلَّة لا تطَّردُ إلا في اسمِ ثلاثيٍّ مفتوح الفاء كبَصَرٍ وأبصار، أو مكسورِها كعِنَب وأعناب، أو مضمومِها كرُطَبٍ وأَرْطاب، ساكنِ العين كثوبٍ وأثواب، أو محرَّكِها كما تقدَّم، وكعضُدٍ وأعضاد وفَخِذٍ وأفخاذ، وصيغةُ فعائل من جموع الكثرة لا تطَّردُ

(١) سلف ١٨/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) في (م): مراد.

إلا في اسمٍ رباعيٍّ مؤنثٍ بالتاء أو بالمعنى ثالثُه مدَّةٌ، كسحابةٍ وسحائب، وبصيرةٍ وبصائر، وحَلوبة وحَلائب، وشمال وشمائل، وعجوز وعجائز، وسعيد علم امرأةٍ وسعائد، فاستُعيرت «الأبصار» للبصائر بجامعِ ما بينَهما من الإدراك والتمييز، وقد سمعتَ أنَّ هذا النوع لا يكون بين حقيقةٍ ومجازٍ فليُحْفَظْ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإفك ﴿كَانُوا۟﴾ أي: في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: يُصْرَفون عن الصدق والتحقيق، والغرضُ من سَوْقِ الآية الإغراقُ في وصف المجرمين بالتمادي في التكذيب، والإصرارِ على الباطل.

أو: مثلَ ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبيَّن لهم الآن أنه ما كان إلا ساعةً، فسوقُ الكلام للتعجُّب من اغترارهم بلامِعِ السراب، والغرضُ أن يَحْقِرَ عندهم ما فيه من التمتُّعات وزخارفِ الدنيا كي يُقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبيل الرشاد، فكأنه قيل: مثلَ ذلك الإفك العجيب الشأن كانوا يؤفكون في الدنيا اغتراراً بما عدده ساعة استقصاراً، والصارفُ لهم هو الله تعالى، أو الشيطان، أو الهوى، وأيًّا ما كان فليس ذاك إلا لسوء اختيارهم وخباثةِ استعدادهم.

وفي الآية على أحد الأقوال دليلٌ على وقوع الكذب في الآخرة من الكفرة. واستدل بها بعضُهم على نفي عذاب القبر، وليس بشيء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ في الدنيا من الملائكة أو الإنس، أو منهما جميعاً ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في علمه وقضائه، أو ما كتبه وعيَّنه سبحانه، أو اللوح المحفوظ، أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وأيًّا ما كان فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بما عنده.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ وفيه من البُعْدِ ما فيه ـ أنَّ الكلام على التقديم والتأخير، والأصل: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله: لقد لبثتم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾[1]، والكلامُ ردٌّ لِمَا قالوه مؤكَّدٌ باليمين، أو توبيخٌ وتفضيحٌ وتهكُّمٌ بهم، فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٥/١٥٨ عن قتادة، وينظر تفسير الطبري ١٨/٥٢٧.

﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم تُوعَدون في الدنيا، والفاءُ فصيحةٌ، كأنه قيل: إن كنتم منكرين البعثَ فهذا يومُه، أي: فنُخْبِرُكم أنه قد تبيَّن بطلانُ إنكارِكم. وجوِّز أن تكون عاطفةً والتعقيبُ ذكريٌّ، أو تعليليةً.

﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أنه حقٌّ؛ لتفريطكم في النظر فتستعجلون به استهزاءً. وقيل: لا تعلمون البعثَ ولا تعترفون به، فلذا صار مصيركم إلى النار.

وقرأ الحسن: «البَعَث» بفتح العين فيهما، وقرئ بكَسْرِهما وهو اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ[(١)]، وفي الآية من الدلالة على فضل العلماء مالا يخفى.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يقعُ ذلك من إقسام الكفار وقولِ أولي العلم لهم ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذرُهم. وقرأ الأكثر: «تنفع» بالتاء[(٢)] محافظةً على ظاهر الأمر للفظ[(٣)] وإن توسَّط بينهما فاصلٌ.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتابُ طلبُ العُتْبى، وهي الاسمُ من الإعتاب بمعنى إزالةِ العَتَبِ، كالعطاء والاستعطاء، أي: لا يُطلب منهم إزالةُ عتبِ الله تعالى ـ والمراد به غضبُه سبحانه عليهم ـ بالتوبة والطاعة؛ فإنه قد حقَّ عليهم العذابُ.

وإن شئتَ قلت: أي: لا يقال لهم: أَرْضُوا ربَّكم بتوبةٍ وطاعةٍ، كما كان يقال لهم ذلك في الدنيا.

وقيل: أي: لا يستقيلون فيُستقالون بردِّهم إلى الدنيا.

وقال ابن عطية: هذا إخبارٌ عن هول يوم القيامة وشدَّةِ أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعُهم الاعتذار، ولا يُعطَوْنَ عُتْبَى وهي الرضا، و«يُستعتبون» بمعنى يُعتَبون، كما تقول: يملك ويستملك، والبابُ في اسْتَفْعَلَ أنه طلب الشيء، وليس هذا منه؛ لأنَّ المعنى يفسُدُ إذا كان المفهوم منه: ولا يُطْلَبُ منهم عُتْبى[(٤)]. انتهى.

---

(١) البحر ٧/ ١٨٠، وقراءة الحسن ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٦٦.

(٢) وهي قراءة الكوفيين. التيسير ص١٧٦، والنشر٢/ ٣٤٦..

(٣) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تفسير أبي السعود٧/ ٦٦ (والكلام منه): محافظة على ظاهر اللفظ، وهو أولى.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤.

فجَعَل اسْتَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ، وحاصل المعنى عليه على ما في «البحر»: هم من الإهمال وعدمِ الالتفات إليهم بمنزلةِ مَن لا يؤهَّلُ للعَتَب، وقيل: المعنى عليه: هم لا يعاتَبون على سيئاتهم بل يعاقبون(١).

وما ذكرناه أوَّلاً هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه، ويا ليت شعري، أي ما ادَّعاه ابنُ عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه: لا يُطلب منهم عُتْبَى، على ما سمعتَ؟!

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وبالله تعالى لقد وَصَفْنا للناس من كلِّ صفةٍ كأنها مَثَلٌ في غرابتها، وقَصَصْنا عليهم كلَّ صفةٍ عجيبةِ الشأن، كصفةِ المبعوثين يومَ القيامة، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يُسمع من استعتابهم، فضَرْبُ المثل اتِّخاذُه وصُنْعُه من ضرب الخاتم واللَّبِن، والمثلُ مجازٌ عن الصفة الغريبة. والمراد بـ «هذا القرآن» إمَّا: هذه السورة الجليلة الشأنِ، أو المجموع وهو الظاهرُ، و«من» تبعيضية، وجوِّزت الزيادة.

وقيل: المعنى: وبالله تعالى لقد بيَّنَّا للناس من كلِّ مثلٍ يُنبِّؤهم عن التوحيد والبعثِ وصِدْقِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فضَرَبَ بمعنى بيَّن، والمثلُ على أصله، وقيل: بمعنى الدليل العجيب، و«القرآن» بمعنى المجموع.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: مع ضَرْبنا لهم من كلِّ مثلٍ في هذا القرآن الجليل الشأنِ لئن جئتهم بآيةٍ من آياته ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لفَرْطِ عتوِّهم وعنادهم وقساوةِ قلوبهم، مخاطِبين لك وللمؤمنين: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: مزوِّرون.

وجوِّز حملُ الآيةِ على المعجزة، أي: لئن جئتهم بمعجزةٍ من المعجزات التي اقترحوها ليقولَنَّ الذين كفروا.. إلخ.

والإتيانُ بالموصول دون الضمير لبيان السبب الحامل على القول المذكور، وإذا أُريدَ بالناس ما يعمُّ الكفرة وغيرَهم فوجهُ الإظهار ظاهرٌ. وتوحيدُ الخطاب في «جئتهم» على ما يقتضيه الظاهرُ، وأمَّا جمعه في قولهم: «إن أنتم» فلئلَّا يبقى بزَعْمِهم له عليه الصلاة والسلام شاهدٌ من المؤمنين، حيث جعلوا الكلَّ مدَّعين.

---

(١) البحر ٧/ ١٨١.

وقال الإمام: في توحيد الخطاب في «جئتهم» وجمعِه في «أنتم» لطيفةٌ، وهي أنَّ الله تعالى قال: إن جئتهم بكلِّ آيةٍ جاءت بها الرسلُ عليهم السلام ويمكنُ أن يجاء بها يقولوا: أنتم كلُّكم أيها المدَّعون للرسالة مُبطلون[1]. انتهى، ولا يخفى أنَّ ما ذكرناه أحسنُ وألطفُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطَّبعِ الفظيع، وجوِّز أن يكون المعنى: مثلَ ذلك القول ﴿يَطْبَعُ﴾ أي: يَختمُ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي جلَّت عَظَمتُه وعَظُمَتْ قدرتُه ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: لا يطلبون العلم، ولا يتحرَّون الحقَّ، بل يصرُّون على خرافاتٍ اعتقدوها، وترَّهاتٍ ابتدعوها، فإنَّ الجهل المركَّب يمنع إدراك الحقِّ، ويوجبُ تكذيبَ المحقِّ، ومن هنا قالوا: هو شرٌّ من الجهل البسيط، وما ألطفَ ما قيل:

قال حمارُ الحكيم توما ... لو أنصفوني لكنتُ أرْكَبْ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ ... وصاحبي جاهلٌ مركبْ[2]

وإطلاقُ العلم على الطلب مجازٌ لِمَا أنه لازمٌ له عادةً.

وقيل: المعنى: يطبعُ الله تعالى على قلوب الذين ليسوا من أولي العلم. وليس بذاك.

والمراد من «الذين لا يعلمون» يحتمل أن يكون: الذين كفروا، فيكون قد وضع الموصول موضعَ ضميرهم للنعي بما في حيِّز الصلة، ويحتمل أن يكون عامًّا، ويدخلُ فيه أولئك دخولاً أوليًّا. وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة يميلُ إلى الاحتمال الأول. وقد تقدَّم الكلامُ في طَبْعِه وخَتْمِه عز وجل على القلب[3].

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي: إذا علمتَ حالَهم وطَبْعَ اللهِ تعالى على قلوبهم فاصْبِرْ على مكارِهِهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وقد وَعَدَك عز وجل بالنصرة وإظهارِ الدين وإعلاء كلمة الحقِّ، ولا بدَّ من إنجازه والوفاءِ به لا محالة.

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ١٣٨.
(٢) المثل السائر ٢/ ٣٥٨.
(٣) ينظر ما سلف ١/ ٣٩١ وما بعد و٦/ ٣٧٣-٣٧٤.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنَّك على الخفَّة والقلق ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البيِّنة، بتكذيبهم إياها، وإيذائهم لك بأباطيلهم التي من جملتها قولُهم: «إن أنتم إلا مبطلون» فإنهم شاكُّون ضالُّون، ولا يُسْتَبْدَعُ أمثالُ ذلك منهم. وقيل: أي: لا يوقنون بأنَّ وعد الله حقٌّ، وهو كما ترى.

والحمل وإن كان لغيره ﷺ لكنَّ النهي راجعٌ إليه عليه الصلاة والسلام، فهو من باب: لا أَرَيَنَّكَ هاهنا، وقد مرَّ تحقيقه، فكأنه قيل: لا تَخِفَّ لهم جزعاً. وفي الآية من إرشاده تعالى لنبيِّه ﷺ وتعليمِه سبحانه له كيف يتلقَّى المكارهَ بصدرٍ رحيبٍ مالا يخفى.

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوبُ: «ولا يستحقَّنَّك» بحاءٍ مهملةٍ وقافٍ[1]، من الاستحقاق، والمعنى: لا يفتننَّكَ الذين لا يوقنون ويكونوا أحقَّ بك من المؤمنين، على أنه مجازٌ عن ذلك؛ لأنَّ مَن فَتَنَ أحداً استماله إليه حتى يكون أحقَّ به من غيره، والنهيُ على هذه القراءة راجعٌ إلى أمته عليه الصلاة والسلام دونه ﷺ؛ لمكان العصمة، وقد تقدَّم نظائرُ ذلك وما للعلماء من الكلام فيها.

وقرأ الجمهور بتشديد النون، وخفَّفها ابنُ أبي عبلةَ ويعقوب[2].

ومن لطيف ما يُروَى ما أخرجه ابنُ أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكمُ، والبيهقيُّ في «سننه» عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، أنَّ رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال: (وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) فأجابه كرم الله تعالى وجهه وهو في الصلاة: (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)[3]. ولا بِدْعَ في هذا الجواب من بابِ مدينةِ العلم وأخي رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) المحتسب ٢/ ١٦٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤، والبحر ٧/ ١٨١-١٨٢.

(٢) النشر ٢/ ٢٤٦ عن يعقوب.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٣٠٧، وتفسير الطبري ١٨/ ٥٣٠، والمستدرك ٣/ ١٤٦، وسنن البيهقي ٢/ ٢٤٥، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ١٥٨.

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ إلى آخره. قيل: الألِفُ إشارةٌ إلى ألفةِ طبعِ المؤمنين، واللامُ إلى لؤم طَبْعِ الكافرين، والميم إلى مغفرة ربِّ العالمين جلَّ شأنه، والرومُ إشارةٌ إلى القلب، وفارس المشارُ إليهم بالضمير النائبِ عن الفاعل إشارةٌ إلى النفس، والمؤمنون إشارةٌ إلى الروح والسرِّ والعقل، ففي الآية إشارةٌ إلى أنَّ حالَ أهلِ الطلب يتغيَّر بتغيُّر الأوقات، فيغلبُ فارسُ النفسِ رومَ القلب تارةً، ويغلبُ رومُ القلب فارسَ النفس بتأييدِ الله تعالى ونَصْرِه سبحانه تارةً أخرى، وذلك في بضع سنين من أيام الطلب، ويومئذ يفرح المؤمنون الروحُ والسرُّ والعقل، وعلى هذا المنهاج سلك النيسابوريُّ[1].

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه إشارةٌ إلى حال المحجوبين ووقوفِهم على ظواهر الأشياء، وما من شيءٍ إلا له ظاهرٌ، وهو ما تدركهُ الحواسُّ الظاهرة منه، وباطنٌ وهو ما يدركه العقلُ بإحدى طرق الإدراك من وجوه الحكمة فيه، ومنه ما هو وراء طور العقل، وهو ما يحصل بواسطة الفيض الإلهي وتهذيبِ النفس أتمَّ تهذيب، وهو وإن لم يكن من مستَنْبَطاتِ العقل إلَّا أنَّ العقل يقبله، وليس معنى أنه ما وراء طور العقل أن العقل يُحيله ولا يقبله كما يتوهَّم، ومما ذكرنا يعلم أنَّ الباطن لا يجب أن يُتوصَّل إليه بالظاهر، بل قد يحصل لا بواسطته، وذلك أعلى قَدْراً من حصوله بها، فقولُ مَن يقول: إنه لا يمكن الوصولُ إلى الباطن إلا بالعبور على الظاهر، لا يخلو عن بحث.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي: يُسَرُّون بالسماع في روضة الشهود، وذلك غذاءُ أرواحهم ونعيمُها، وأعلى أنواعِ السماع في هذه النشأة عند السادة الصوفية ما يكون من الحضرة الإلهية بالأرواح القدسية والأسماع الملكوتية، وهذه الأسماعُ لم يفارقها سماعُ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] واشتهر عندهم السماعُ في سماع الأصوات الحسنة، وسماعِ الأشياء المحرِّكة لِمَا غَلَب عليهم من الأحوال، من الخوف والرجاء والحبِّ والتعظيم، وذلك كسماع القرآن والوَعْظِ والدُّفِّ والشَّبابة والأوتار والمزمار والحُداء والنشيد،

(١) في غرائب القرآن ٢١/ ٣٤.

وفي ذلك الممدوحُ والمذموم. وفي «قواعد» عزِّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام الكبرى تفصيلُ الكلام في ذلك على أتمِّ وجه[1]، وسنذكر إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلَّق بذلك، واللهُ تعالى هو الموفِّقُ للصواب.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي استغراقُ الأوقات في تنزيه الله سبحانه، والثناءِ عليه جل وعلا بما هو سبحانه تعالى أهلُه، فإنَّ ذلك روضةُ هذه النشأة، وفي الأثر أن حِلَقَ الذِّكر رياضُ الجنة[2].

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فيه إشارةٌ إلى أن الفرع لا يلزم أن يكون كأصله:

إنما الوَرْدُ من الشوك ولا يَنْبتُ النرجِسُ إلا من بَصَلْ[3]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الاشتراك في الجنسية من أسباب الألفة: إنَّ الطيور على أشباهها تقع.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه عز وجل لم يُكْرِه أحداً على ما هو عليه إنْ حقًّا وإن باطلاً، وإنما وقع التعاشُقُ بين النفوس بحسب استعدادها وما هي عليه، فأعطَى سبحانه جلَّتْ قدرتُه كلَّ عاشقٍ معشوقَه الذي هام به قلبُ استعدادِه، وصار حبُّه مِلْءَ فؤاده، وهذا سرُّ الفرح، وما ألطفَ ما قال قيس بن ذريح:

تعلَّق روحي روحَها قبل خَلْقِنا ومِن قبلِ ما كنَّا نطافاً وفي المهدِ
فزادَ كما زِدْنا فأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنفصمِ العقدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرُنا في ظلمة القبر واللَّحدِ[4]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ الآية فيها إشارةٌ إلى أنَّ طبيعة الإنسان ممزوجةٌ من هدايةِ الروح وإطاعتِها، ومن ضلال النفس وعصيانِها، فالناسُ إذا أظلَّتْهم المحنة، ونالتهم

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢/ ١٨١ وما بعدها.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠) من حديث أنس ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
(٣) البيت لابن الوردي، وهو في شرح اللامية للشريف مسعود بن حسن القناوي ص١١٥.
(٤) الأغاني ٩/ ١٩٦، وتنسب أيضاً لمجنون ليلى، وهي في ديوانه ص١١٤.

الفتنةُ، ومسَّتْهم البليّة، وانكسرت نفوسُهم وسَكَنَتْ دواعيها، وتخلَّصت أرواحُهم عن أَسْرِ ظُلْمةِ شهواتها، رَجَعَتْ أرواحُهم إلى الحضرة، ووافَقَتْها النفوسُ على خلاف طباعها، فدَعَوْا ربَّهم مُنيبين إليه، فإذا جاد سبحانه عليهم بكَشْفِ ما نالهم، ونَظَر جلَّ وعلا باللطف فيما أصابهم، عاد منهم مَن تمرَّد إلى عادته المذمومةِ وطبيعته الدنيَّةِ المشؤومة.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الشرور ليست مرادةً لذاتها، بل هي كبطِّ الجرح[1]، وقَطْعِ الأصبع التي فيها أَكِلَة.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ لأهل الوراثة المحمدية أهلِ الإرشاد بأن يصبروا على مكارِهِ المنكِرين المحجوبين، الذين لا يوقنون بصدق أحوالهم، ولذا يستخفُّون بهم، وينظرون إليهم بنظر الحقارة، ويعيِّرونهم وينكرون عليهم فيما يقولون ويفعلون.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين، وأن يحفظنا وأولادَنا وإخوانَنا من الأمراض القلبية والقالبية بحرمةِ نبيِّه الأمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى بعون الله تعالى الجزء العشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الحادي والعشرون ويبدأ

بسورة لقمان

(١) أي: شَقُّه. القاموس (بطط).